كأنّ شيئاً لا يحدث

رواية

منذر بدر حلّوم

-1 -

توقّف بنا القطار العتيق في وسط الطريق. طريقنا عبر الجبال والوديان، من اللاذقية إلى حلب، كان يمكن أن يكون جميلاً، لولا أنّ القطار العتيق كان يسعل ويبصق ويرتجف، قبل أن يزرقّ وجهُه ويتوقف كمُدخّن عجوز. لم يبق أمامنا، نحن أسرى الحديد، إلا مغادرة القطار، ولكن إلى أين؟ ليس لنا إلا النزول من العربة والانحدار إلى طريقٍ عام عبر السفوح المكسوّة بالصنوبر والبطم والقطلب والزرّود والريحان، أو الانتظار أجلا غير مسمّى حتى تعلو صافرة الانطلاق، وينفث العجوز الغاضب دخانه الأسود في وجوهنا، ليذكّرنا بحياته. حياته هي دخانه الأسود القاتل.

– لا تحزن يا بني، لا تحزن! كلها عشرة أيام! لم أفهم يومها ماذا كانت تعني بالأيام العشرة. نقّلت نظري بين صورة الأمل في عيني ابنة مريم الحزينتين وبين عيني رفيقي علي جاد الصغير القلقتين المتسائلتين. هل كانت تتوقع أن يرحل الظالمون خلال عشرة الأيام غير المعدودات.. كانت ابنة مريم كثيراً ما ترجو الله أن لا يأخذها قبل أن ترى حساب الظالمين، هنا على الأرض وليس في مكان آخر، فكلمات مثل "حسابهم عند ربهم" كانت ترسم على وجهها ابتسامة يائسة مشوبة بالسخرية.. أم أنّها حددت "عَشرة الأيام" أملا بالشفاء على يد الله!؟ لم تكن لتفعل. فهي كانت تصلي من أجل معجزة تحصل ليس في جسدها، إنّما في جسد آخر لا تتسع له يدها المنبسطة إلى الله، جسد لم يعد ينتمي إلى الماء، فيه تتوجع ويتوجع من تحب. كانت تصلّي لله، راجية المزيد من العمر، ليس طمعاً بالحياة بحد ذاتها، إنّما لتمنح الله فرصة أطول من أجل أن يثبت عدله هنا. كانت كلّما ضعف أملها بالله صلّت له أكثر. راح الإيمان يوماً بعد يوم يتسرّب من بين أصابعها المتباعدة في ابتهال إلى السماء، ومع أن الله لم يثبت لها شيئاً مماً قيل عنه، إلا أنّها أصرّت على الإمساك بذرّة الإيمان الأخيرة قبل أن ترحل. كانت لا تزال تؤمن بأن العدل يمكن أن يتحقق، وأن الحق يمكن أن يحقّ، ولكن ذرة الإيمان الأخيرة التي انزلقت إلى الفراغ بين أصابعها كانت تقول لها إن ذلك لن يحصل على يد الله. وقد لا تكفه العشرة الأيام التي تضمرها لإثبات ذلك، فيما أصابعها العشرة تقول لجلالته

– خلقت الكون في ستة أيام واستويت على العرش!

-2-

علت وجه ابنة مريم ابتسامة حين وطأت قدماها الأرض. فمغادرة القطار العتيق كانت تعني بالنسبة لها تأجيل تلقّي الحكم بالإعدام بضعة أيام. كنا في طريقنا إلى طبيب القلب، وكانت واثقة من أنّه كان سيقول ما قاله طبيب آخر قبله بإنكليزية لم تكن تعرف منها شيئاً لكنّها كانت تشعر بما تعنيه.

– ما عاد القلب يحتمل، ممكن أن يتوقّف عن النبض بين لحظة وثانية! قال الطبيب

-3-

على حبال غسيل مهجورة، عرّشت الياسمينة مرسلة جدائلها بعكس اتجاه الريح. كانت الياسمينة تفعل ذلك كل صباح ومساء، بل كلما رأت المعلّم وابنة مريم على السطح العتيق. كانت رائحة البُن توقظ الياسمينة في الصباح. من يد المعلّم كانت رائحة القهوة تنطلق لملاقاة الأريج الأبيض. لا مكان لقوانين الريح ساعة يلتقي المعلم وابنة مريم على الإسمنت المتشقق المكسو بالأشنيات، يحتسيان القهوة، ويتفحّصان نوايا الله. كان الله في مكان ما لا يريحهما أنّهما لا يريان منه إلا القبور، وأمّا البخور والنذور فكانت لقوى أخرى.

-4-

للخضر هنا سلّتان، كلما امتلأتا بالدعاء طار ما فيهما وحط على أوراق الخرنوب والسنديان في الدقاقة والكاديك، ولله (عجمي) سلّة ولله (شيخ يوسف) أخرى. من مقام الشيخ يوسف، مشت ابنة مريم، وكانت عينا الطبيب اليائستان قد أحالتاها إليه دون كلام، مشت، عابرة سفح (جبل سعد) إلى عين الغار. قرابة الساعة استغرق الطريق، الطريق نفسه الذي كان يقطعه المعلّم في ثلث هذا الوقت. وكانت طيور السمّان تخفق بأجنحتها، مُصدِرةً ضجيجاً في السماء القريبة، نحو السفح المطل على الطريق الأبيض الضيّق، لتبيت في الدغل.

-5-

كان علي جاد الصغير يعرف أنّ قلب أمّه لم يعد يحتمل المزيد من القهر. ذات مساء، نظر أخوه الصغير إليها مواسياً وقد انهدّت على الأرض بعد أن أنزلت (دبليزاً) كبيراً من الماء، حملته من العين المتفجّرة في أسفل الوادي: " بكرة يا أمّي بس صير رئيس رح انقلّك الميّة بطيارة هليوكوبتر!" ضحكت ابنة مريم. لم تقل له كعادتها: " إن شاء الله! " ففي عبارة " إن شاء الله! " موافقة ورجاء وأمل بالله على تحقيق الرجاء. لكنّ الرجاء هنا عتبة. كانت ابنة مريم تعرف معنى العتبات.

-6-

غادرْنا القطار. ولم يتخلّ عنّا الله، فقد لاح لنا ممرٌ في أطراف الغابة الممتدة من شريط أسود خلّفه حريقٌ غير قديم إلى مكان ما في الأسفل، كنا لا نزال نجهله، ولكنّنا خمّنا أن طريقاً ما للسيارات يجب أن يمتد هناك. وأخيراً، بلغنا أسفل الوادي، بعد قرابة ساعة ونصف، قطعنا خلالها بضع مئات من الأمتار، وركنّا خلالها إلى ثلاث مَضاءات بين الأشجار، كأنما أعدّتها الطبيعة لابنة مريم التي كثيراً ما كانت تنظر إلى السماء، بحثاً عن زرقة وأوكسيجين. وحين بلغنا الوادي، لجأنا إلى صنوبرة أُسند إلى جذعها الثخين حجر كبير. لا بد من أنّ أحداً ما ممن ضاقوا قبلنا ذرعاً بالقطار قد سبقنا إلى هنا.

كان أحدهم قد حفر على اللحاء البني السميك بيد صلبة: N+N = قلباً وسهماً يخترقه. لست أدري لماذا يكتب العشاق على الحيطان وعلى جذوع الأشجار تمائم عشقهم بأحرف أجنبية. ربما لشعورهم بأن الحب الممنوع هنا، ممكن في غير مكان! هذه ليست إجابة على أية حال. وإلى جذع الصنوبرة وإلى قلب العاشق المجهول، راح يتناهى من مكان قريب هدير سيارات.

إنّه الطريق إذن غير بعيد! ابتسمت ابنة مريم وحمدت الله على فَرَجه! وبعد استراحة أطول من سابقاتها، استجاب خلالها قلبها للدعاء، اتجهنا صوب مصدر الصوت. وأخيراً، لاح الإسفلت. لم أكن أحسب أنّ الإسفلت يمكن أن يُفرحَ أحداً كما أفرحنا في ذلك الصباح. وهناك، توقّفت حافلة صغيرة مستجيبة لإشارةٍ من يدي، وكنت أتمنى لو تأخّر قدومها بعض الوقت ريثما تستريح ابنة مريم قليلاً، على حجرٍ من البازلت تُرِك ليعيش على هامش الطريق دون أخوته الذين سُويت بوجههم الأرض من أجل أن نمشي عليها بأمان. وتبدد شيء من القلق على وجه علي جاد، بفضلٍ من سلام الصنوبر الباعث على النعاس.

توقّفت الحافلة، ولم يكن أمامنا خيار إلا الصعود، فحافلة أخرى قد لا تأتي عمّا قريب. ودخلنا حجرةً رمادية مغلقة مليئة بضجيج الأغاني والزمامير، وقرقعة الحديد، واهتزاز الزجاج، ودخان الركّاب، وزعيق طفل صغير.

– على مهلك، الطريق صعب يا أخي، انتبه، لو سمحت! قلت للسائق وقد تجاوزْنا بصعوبةٍ صهريجاً كدنا ننسحق تحت مؤخّرته. نظر السائق في مرآته متوعّداً

– أخي، السيارة سيارتي، وبْ سُوقها على كيفي!

-7-

حين وصلت ابنة مريم إلى دارها، ارتسمت على وجهها ابتسامة عاشقة تطلّ على حبيبها المقبل على فرس بيضاء. وكمثل فرسه، أبيضَ الملابس كان.

– الحمد لله والمجد لصاحب المقام، ما شعرت بالتعب، ومشيت كأنّي لا مريضة ولا شيء..يا شيخ يوسف، اشفني، ولك منّي كل يوم زيارة وبخّور لترابك...عندك أمل يامو!؟

كم كانت حاجة علي جاد الصغير إلى إتقان التمثيل عظيمة في تلك اللحظة. يومها أدرك قيمة التمثيل. وأمّا قبلها فكان يستغرب أن يمتهن المرء ارتداء الأقنعة، أن يفقد نفسه ويصير أحداً ما غريباً كل يوم

– أنتِ أدرى بصحتك من أي طبيب يامو، طالما مشيتِ وما تعبت، يعني حالتك مليحة، وان شاء الله بْ تتحسن!

– ادع لي يا حبيبي!

-8-

دعا علي جاد الصغير الحجرَ والشجرَ والريحَ والماءَ والنبتَ الأخضرَ والطيرَ. لم يدع الترابَ. خاف أن يختلط عليه الأمر بين مدّ الأرض تحت قدمي ابنة مريم نحو حياة منفتحة إلى سنوات بعيدة وبين قدّ لحد من أجل جسدها الأبيض المستتر بصلواتٍ يتماسك معها نسيج ثوبٍ تهالك عن العيون. ولم يدع كائنات البحار، خوفاً من أعماقها المدلهمة. ودعا الجهات الأربع. ودعا ما في صلوات المؤمنين والمحتاجين من قوةٍ وطاقة رجاء، وما في السماء من توائم لنا. ودعا كل الأشياء التي تخطر بالبال لمساعدة أمّه وترميم ما تهالك من قلبها. وكان كلما دعا، تحيك أصابع يديه نسيجاً جديدا للقلب، تضغطه راحتاهما ليتوقف عن التمدد. كان قد رأى القلب على جهاز (الإيكو). ومن لحظتها ابتدع صلواته الخاصة، جاعلاً يديه ليس في وضعية ابتهال، إنّما في وضعية إمساك بالقلب، كي لا يتضخم أكثر وينهار نسيجه. كلَّ ليل راح يغفو على صلاة الإمساك بالقلب، وكلَّ صباح يصحو عليها. وحين كان يرى أمّه تبتسم وتتحرك بخفة لتحضر له طبق طعام، يفرحه النجاح الذي حققته صلواته، فيمعن في شكر القوى التي يستحضرها. فلا أحد يعمل دون شكر. ويعاود الكرّة من جديد، راسماً ابتسامة على وجهه الحزين كأنّما ليشجع الجندَ المتعبة أيديهم من الإمساك بجدار القلب

– أكيد، يامو، أكيد! قال لها، وتلفّتَ نحو مقام الشيخ يوسف

– لا تخذلها، وأنا بدوري أعدَكْ بأن أؤمن بك إذا شفيتْ أمّي، وأعدك بالمجاهرة بإيماني!! وعده علي جاد، على الرغم من أنّه لم يكن واثقاً من قدرته على المجاهرة بإيمانه بالمقام أمام أصدقائه الذين سيسخرون منه ويتهمونه بالرجعية والتخلّف.

-9-

ما كان أصعب رسم ابتسامة فرح على الوجه. أدركتُ، فيما كنت أنظر إلى صديقي، كم من الصعب على الإنسان أن يصطنع الفرح، وما أسهل اكتشاف الحزن في العينين. وأمّا الحزن فلا يحتاج إلى أكثر من التوقّف عن التمثيل.

-10-

يوم رسب علي جاد الصغير في امتحان القبول في معهد التمثيل، لم يكن مطلوباً منه تمثيل الفرح، إنّما كان عليه أن يزاحم الآخرين لاحتلال موضع قدم على باب الحافلة المزدحمة التي تهمّ بمغادرة المحطّة. كان بإمكانه أن يضحك ساعتذاك. بل كثيراً ما كان يضحك ضحكة ليست فرحة ولكنّها ليست حزينة، يضحك ضحكة اندهاش.. وكانت تبدو على ضحكته في مثل هذه المواقف علامات البلاهة.

– ما الذي تفعله!؟ صاح أحد أعضاء اللجنة، وربّما كان كبير الممتحِنين

– لماذا لا تزاحم؟ لماذا لا تحاول الصعود!؟ هل ستصعد إلى الحافلة بهذه السحنة اليائسة؟!

التفت إليه علي جاد، مبتسماً، في إشارة إلى شفقته على المتزاحمين ورغبته في الضحك على طريقة تعلّقهم بباب الحافلة، وأسدلهما، ليس جفنيه إنّما يديه. فقد أسقط في يده. وغادرتْ الحافلة، وراح علي جاد يشيّعها بنظراتٍ لا بد أن يرى فيها المؤمن عبارة " لا حول ولا قوّة إلا بالله ". لكنّه لم يكن كذلك ولا الممتحنون كما بدوا له. لم يكن علي الصغير يمثّل. ولم يقتصر فشله على النظر المتكرر إلى عيون أعضاء لجنة الامتحان، فقد كان يستنهضهم ليدفعوا هؤلاء المتزاحمين المتدافعين عند باب الحافلة إلى قلبها أو إلى إحراقها، بدلاً من الاستسلام لمشيئتها والانجرار خلفها بهذه الطريقة المهينة، بل كان فشله واضحاً قبل البدء. كان قد تدرّب على الفرح، على الضحك الفرِح قبل مجيئه إليهم. كان يهرب من أشكال التعبير الأخرى في الشارع. يهرب من الشارع المتخم بها. كان عليه التخفف منها، إغماض العين عنها، الاستدارة إلى غير اتجاه، ثم العودة إلى البيت وتكسير المرايا

– وأمّا الفرح فلم أكن أجيده، ولست أقدر عليه الآن! حسبته سيقول للّجنة، ويضيف

– لو تشتغل معاهد التمثيل على رسم الفرح على الوجوه، ليس الرضى والاستسلام إنّما الفرح!

-11-

هوب.. هوب! لليوم العاشر على التوالي، يحتضر شرطي النجدة راجي، ويموت الورد والزيتون، وينقضّ صقر على قلب المعلّم فينهدّ على صخرة بيضاء، وتنظر ابنة مريم بعين الشك

إلى السماء، وتروح الحافلة كاترينا إلى اللاذقية وتجيء، حاملةً الرجال والنساء، وتشرق الشمس وتغيب، كأن شيئاً لا يحدث في عين الغار، ويغادر الأولاد إلى الشام ويعودون حاملين البنادق من هناك، ويطلق كثير من الرصاص.

-12-

هوب.. هوب! صاح الجابي بأبيه سائق كاترينا، وخبط على الحديد، قبيل انطلاقها في رحلتها الأولى من عين الغار إلى اللاذقية. كان أحدٌ ما قد خرج من بيته وأسند ظهره إلى الحافلة من خلف، لم ينتبه إليه السائق في تراجعه نحو الجدار قبل أن ينعطف بحافلته إلى الإسفلت العتيق.

لم يكن صوت فيروز قد صدح من الإذاعات بعد. كان العاملون في الإذاعات يطردون عن أنفسهم النعاس بفنجان قهوة أو كأس من الشاي، بانتظار أن تنتهي التلاوة التي يفتتحون بها البث الصباحي. وفيما تغسل الأمّهات التلاميذ، تحسّباً لتفتيش على النظافة يجريه المعلّمون كل صباح، يكون الآباء قد انتهوا من سلق البيض.

-13-

هوب.. هوب! خرج المعلّم إلى جولة الفجر ولم تكن فيروز قد خرجت من الدُور إلى أعشاش العصافير بعد. وكان الأهلون يعلمون بجولتي المعلّم في الفجر والعشاء. وكان يخجلهم أن تُدقّ أخشابُ أبوابهم على نعاسٍ فيها وأن يؤتى بأولادهم من ظلمةٍ ما إلى عيونهم الغافلة. هذا الفجر، خرج المعلّم وكانت كاترينا تسعل وتهزّ بدنها الصدئ الطويل استعداداً لرحلتها الأولى إلى اللاذقية. وكانت عاملات (الريجي) قد شتمن أزواجهن النائمين وعلا صراخ الصغار في بيوتهن قبل أن يخرجن إلى ساحة عين الغار.

-14-

في الساحة، تتوقف كاترينا بانتظار ركّاب الرحلة الأولى الذين يعرفهم السائق واحداً واحداً، ويعرف من منهم يتأخّر ومن يأتي باكراً. كانت الحافلة تقلّ في رحلتها الأولى، إضافة إلى عاملات (الريجي) السليطات اللسان، موظّفين يصلون إلى شوارع المدينة قبل ساعتين من انفتاح أبواب دوائرهم على روائح الورق العتيق والغبار وبقايا سعال الأمس، هرباً من صراخ نسائهم الخارجات، على غضبٍ، إلى الصغار وإلى نظراتهم المشبعةِ بغيم جاف وصفير ريح في خربات، هم رجال الورق العتيق.

-15-

النساء يصرخن ويشتمن في الفجر إذا كان ليلهن بارداً. وريثما يصل طلاب (الثورة) و(البعث) و(جول جمّال) و(الصناعة) وغيرها من الثانويات، التي تفتح أبوابها بعد ما يزيد عن ساعة ونصف من إطفاء بوسلطان لمحرك كاترينا، على بعد بائع فلافل وتاجر زيت زيتون و(مال قبّان) وثلاث نساء متورّمات الأطراف يبعن البيض البلدي وعربةٍ مات صاحبها مربوطة بجنزير إلى عمود كهرباء من جدار ثانوية (جول جمّال) الخلفي، يكون هواء الحافلة قد أشبع بنكات بذيئة تبادلها الرجال الهاربون مع النساء الغاضبات. كنّ يتفحّصن وجوه الموظّفين بحثاً عن شتائم لا تزال عالقة عليها. مَن ليس على وجهه شتيمة، يتحوّلن إلى الرقّة معه. كنّ يباذئن (القزّيطا)، غامزات إلى انخماص في وسط شاربه، وكن يضحكن من حمرة شارب (العطّاس) لكنّهن يحجمن عن مباذأته فهو لم يكن يجيد استخدام الرموز، وكنّ ينظرن إلى رأس السائق بوسلطان، وكان يحلقه عند (اليابوس) الحلاّق كل أسبوع بالموس، ولا يفهمن العلّة التي تراها امرأته في الفجر. المرأة قبلما يستيقظ جسدها لا تطيق ذلك. والرجل يأتي مهدود الحيل في المساء. يدلق في جوفه زجاجة من عرق التين ويغفو حتى توقظه حركة امرأته المتقلّبة إلى نهوض.

-16-

هوب.. هوب! وكان الاستعداد لعرس صافي بن بارود قد انتهى، وكان بارود قد أتم شراء علب الفواكه المجففة والبشاكير والخرطوش، وبدأ طبخ الديناميت في عين الغار، وأعدّ الذين لا يملكون بنادق آلية كتلاً منه، راجين منها أن تُخرس رشقات الرصاص، وبدأت زوجة النمر تعبئة أمشاط الكلاشنيكوف بالرصاص، وراح زوجها يستعير الرصاص من رفاقه. لم يكن لديه أكثر من ثلاثمائة طلقة، اغتمّت المرأة، فطمأنها بأضعاف منها. وتهرّب سعد من مجلس أبيه النمر. وكان يفعل ذلك كلّما أمسك أبوه بالسلاح. كان يسكنه هاجسُ أنَّ أباه سيطلق عليه النار ذات يوم. فيما كان النمر يحزنه أن لا يرى الرجولة التي يتوخّاها في سعد.

-17-

هوب.. هوب! وكان المعلّم خرج إلى جولته بعد أن صلّى من أجل تلاميذه، صلاة أنشأها ودرج على أدائها، وبات تحققها حلماً يسعى إليه بغير الصلاة.. صلاة يرددها بعد اغتساله بالماء البارد كل فجر

– رَبّنا، هيئ للصغار سبل أن يكونوا أذكى وأجمل وأعقل من معلّميهم ومن آبائهم وأجدادهم، وأكرمنا بتفّوقهم علينا، إنّك على كل شيء قدير، رَبّنا، وخذ بأيديهم الصغيرة نحو أن تزدهر بهم هذه الأرض المباركة فتنتج جمالاً وأماناً وسلاماً، رَبّنا، واجعل المدرسة بّوابةً نحو خلق العوالم التي تَركتَ خلقها للإنسان، ومن أجل ذلك لا تؤاخذهم إذا ما ارتابوا، فلا تقدّم دون الشك والسؤال، وجنّبهم يا رب حمل السلاح، واجعل حبرهم برداً وسلاماً عليهم وعلى مَن يأتي مِن بعدهم، ولا تأخذهم بأخطاء أهلهم وذويهم ومن لا سلطة لهم عليهم، وإذا ما استعصى عليهم قهر الواقع فخفّف عنهم آلام القهر والانكسار، وجنّبهم، يا ربَ الكرامةِ، ذلّ الفاقة والخضوع، واجعلهم من أصحاب الفضل على التاريخ ومن أصحاب الكرامة يا راعي أصحاب الكرامات، إنّك مجيب الدعاء ومحقق الرجاء!

-18-

هوب.. هوب! وبعدما تأكّد المعلّم من انبعاث الحياة في بيوت تلاميذه جميعها، ورؤيته ما في الدُور المكشوف ما ينفتح من أسوارها الواطئة على العيون، وبعدّما عرّج على غرفة أخيه راجي العتيقة ورأى الموت يجلس على حافة سرير الشرطي الشاب، نحا صوب درب (جبل الصنوبر)، فقد كان لا يزال لديه من الوقت ما يكفيه لصعود الجبل والصلاة من أجل أرواح زيتوناته الثلاث والثلاثين، والخرنوبة والبطمة وشجرتي الغار. وبعدها، يبتسم، معتذراً، لابنة مريم في طريقه إلى غرفة الصف.

-19-

لا يتناول المعلّم طعام الفطور. ومع ذلك، تجلس ابنة مريم بانتظاره مع أرغفة جِيءَ بها من بيت النار إلى صينية الإفطار. وتملأ من أجل حضور غيابه كأس شاي، وتضع في المكان الذي يُترك له رغيفَ خبزٍ، وتبتسم لعينيه المعلّقتين في الهواء فوق صينية الطعام، وتُعرِض عن الإفطار على هواه، ملقيةً، بعد أن يكون قد أسلم وجهه للمدرسة وانصرف الأولاد، برغيف خبز مشبع بالزيت على الجمر. تعلق بالرغيف حين تنزعه جمرات. تنزعها بأصابعها البيضاء عنه، وتأكله شاردة في شيء ما وتتابع الغسيل. ويلتهم الأولاد الطعام على غير ما يُرضي المعلّم الذي يطلب التأني، وملء الرئتين بهواء الصباح بعد بسملة، وترفع ابنة مريم حاجبيها، فيفهم أنّ الملاحظة على الطعام ليست أفضل ما يفعله أب بأولاده لحظة تكون اللقمة في الحلق.

لم يعد المعلّم من الجبل بعد. راح الآذن يقرع جرس المدرسة. وجاء السقّاء ومطّ عنقه من فوق سور الدار، وسأل ابنة مريم عن المعلّم، فأشعل في قلبها النار.

-20-

وذات فجر، نزل مطر أصفر، قال المعلّم حين رآه:" إنّه الطلع! قامت الصحراء تنشر طلعها لتلقّح أخضر الجبال نحو الرمل.. الرمل آت.." ولم تكن أمّهات عين الغار قد علّقن بعد صور أحبتهن الصغار في بزاتهم العسكرية على جدران بيوتهن وبخّرنها وصلين من أجل أصحابها وبكين الرجولة الطفلة فيها وعلّقن التمائم حولها وحبسن تابعات أسمائها في زجاجات صغيرة وحشرن مزقاً من قمصانهم في شقوق جدران المزارات، ولم يكن المعلّم قد غادر صخرته البيضاء، ولا ابنة مريم كانت قد بدأت بعدّ أيامها العشر، ولا راجي كان قد بدأ الخطو نحو التراب الأبيض، لكنّ النساء كُنّ قد امتنعن عن ارتياد عين الماء دون رجال، حين نزل على معسكر الجند الغرباء وعلى الأولاد في عين الغار.. ثم، صار لعين الغار جندها، ورحنا إليهم نصير، يأخذنا نحوهم ماءٌ وترابٌ وهواءٌ ونبتٌ لم نكن تذوّقنا كمثل طعمه من قبل.

-21-

وكان المعلّم، ذات فجر شتوي، وقبل أن يخرج إلى جولته ويعرّج على أخيه القابض على كأس الموت بأصابع طويلة لم تكن، خلاف صاحبها، تنتظر عزرائيل ولا تفهم لماذا أُبعدت عنها أوتار العود وعُلّقت الآلةُ على الجدار على مسافة حياة منها.. كان المعلّم تعرّق بشدة وخرج إلى السطح بعد أن كسر قشرة الجليد المتشكلة على سطح الماء في البرميل المطلي بالإسمنت من الداخل، وغسل وجهَه ثلاثاً متمتماً بصلواته السرية. تبعته ابنة مريم وكانت قد لاحظت أنّه يرتعد خوفاً في فراشه. أرادت أن تستمر في تظاهرها بالنوم لكنّ خوفها عليه دفعها إلى الخروج من فراشها واللحاق به إلى السطح. بادرته متأسّفة

– شايف كابوس!! الله يلعن الشيطان!

– أي كابوس؟ استغفري ربّك! الخضر.. شفت الخضر، الله يجعله شفيعنا...

– يا ويلنا من غضبه! تهدّج صوت ابنة مريم وانعقد لسانها دون السؤال عن الهيئة التي جاءه فيها.. هل جاء بِشرٍّ أم جاء مُعينا؟ لم يسأله صوتُها إنّما فعل تنفّسها..

– خير، وأكثر من خير. أنا من اليوم مدين له بروحي!

-22-

كانت ابنة مريم تنام على خَوَان صنعه السقّاء، وربما فُتحت الخاء ليتسع للنوم قياساً بخاء مكسورة تصلح فقط للطعام، خوان موضوع تحت نافذة الغرفة المهلهلة، ولا تتعبوا أنفسكم بإرجاع

الإضافة فكلتاهما كانت مهلهلة، مُغلِقةً بجسدها المرتجف نصف الجائع درب الريح الباردة عن صغارها. لم تكن البطانيات في بيت المعلّم تكفي الجميع.

كان المعلّم يستعيذ بالعرق من شر البرد، وكانت ابنة مريم تلتحف مزقاً من بقايا فساتين ومناديل وأشياء لا أسماء لها، خِيطَتْ على هيئة لحاف. تنام ولا تنام، منطويةً على آلامها وأحلامها بغدٍ يكبر فيه أولادها فيشترون لها ما لم يكف راتبُ معلّم المدرسة المُثقل بديونٍ موروثة لشرائه. كانت ابنة مريم تدفع الليل عن نفسها بما تملك من صبر، بانتظار شمس تدفّئها في النهار. كان فستانها الوحيد الرقيق أقوى من جميع الصلوات، كان كافياً لإبقائها على علاقة مباشرة بالسماء.. بسماء الزمهرير والنار، سماء يهوه والله.

الغرفة الثانية في بيت المعلّم، المؤلّف من غرفتين لا ثالثة لهما، كان اسمها سيبيريا. هكذا سماها المعلّم وهكذا صار الجميع في بيته يسمونها. لم يكن أحد يجرؤ على النوم في سيبيريا بسبب من ثلاث درجات. كانوا ينامون في سوريا. هكذا راح صديقي علي جاد الصغير بن المعلّم يسمّي محشرهم الشتوي. الصيف بيت الله الواسع!! كانت أنفاسهم تكفي لرفع حرارة سوريا ثلاث درجات. كانوا يعيشون الشتاء في الغرفة سوريا، بل ليالي الشتاء، ويعيشون الصيف على سطح البيت الصغير، تحت خيمة من أغصان الخرنوب.

-23-

ومما زاد إيمان المعلم بالوشاح الأخضر الذي انتشله من اللجة إلى الضوء، لدغة أفعى لم تمته، بينما كانت أصابعه تحاول إخراج حبّات الزيتون المحشورة بين الحجارة والشوك.

كان بستان الزيتون الذي زرعه هناك يطل على عين الغار، من جهة القبلة، وعلى البحر ومعمل الإسمنت حيث أقام الفدائيون موقعا لهم للانطلاق إلى فلسطين، من جهة الغرب، فجاءت فلسطين إليهم بدلاً من أن يأتوا إليها، بما عليها من جنود غاصبين، وما زالت قبورهم التي حفرتها القنابل هناك مفتوحة على الضوء والهواء.

وكان راجي لا يزال يداعب أوتار العود بين شجيرات الورد، في بزة شرطي النجدة، كان يفعل ذلك ويغنّي. وكنّ يعبرن من أمامه فرحات. وحتى الصغيرات من بنات عين الغار كن يرتدين الفساتين، وكن يرفعن شعرهن كأنّما تحية للشاب الوسيم المعانق أوتاره. وبعد..

-24-

وذات مساء، لاحظ راجي أنّ علي جاد الصغير ينظر نحوه نظرة حزينة متسائلة، فتوقّف عن العزف، راجياً من ابن أخيه تحرير الكلمات التي تعاني شفتاه صعوبة تقييدها

- قل يا ابن أخي!

– لا أفهم كيف انتسبت إلى الشرطة وأنت فنّان! شرطة وموسيقى ورقص ورسم وورود وحب الحياة والجمال! كيف؟

– أبوك يا ابن أخي هو السبب!

– كيف؟

– لا تقلق.. لا تقلق، أبوك فعل خيراً.. أبوك، يا ابن أخي، أهداني رواية (الأبله)! لماذا أهداني (الأبله) بالذات؟ اسأله هو ولا تسألني أنا، وفي الفصل الخامس من الجزء الثالث، وجدت يا ابن أخي فكرة أدهشتني وقلت في نفسي هي الحقيقة، وقلت لأجرّبها على نفسي

– أي فكرة يا عمّي؟

– لا تستعجل يا ابن أخي، فكرة عظيمة مثلها، لا بد من احترامها وقولها برويّة.. الاستعجال مع دوستوييفسكي عدم احترام لأفكاره العظيمة

– طيّب.. طيّب.. ما هي؟

– سأل إيبوليت الصغير، أي صغير؟! عمره 18 سنة وسكّير.. غير مهم على أية حال.. سأل الأمير ميشكين:" هل صحيح يا أمير أنت قلت في ذات يوم إن الجمال سوف ينقذ العالم؟ " هات، هات الكتاب عن الرف. وجاء علي جاد بالكتاب وناوله لعمّه راجي

– ها هي الصفحة " ثم صاح موجّهاً كلامه إلى جميع الحضور: أيّها السادة، يقول الأمير إن الجمال سوف ينقذ العالم! أمّا أنا فأقول إنّ سبب آرائه الطائشة المرحة هذه هو أنّه عاشق الآن... "

– فهمت..

– لا تسئ الظن بأبيك.. أمّا عمّك سالم فباستمرار يقول عني سكير طائش.. فهمت أين فكرتي من فكرة الأمير؟

– لا أظن

– فكّر معي يا ابن أخي! هي فكرة رائعة: شرطي ينقذ العالم بالجمال وليس بالسلاح! فكرة رائعة.. رائعة يا ابن أخي وتستحق أن يموت الرجل في سبيلها

– أنت عاشق يا عمّي!

– نعم عاشق ومجنون، ولا تخجل من قولها يا صديقي. أنت صديقي وهذا أهم من كونك ابن أخي..

–25–

كان سور الدار واطئاً، وكانت الطاولة الصغيرة التي يضع عليها راجي كأس العرق تُرى من الشارع، وتُرى عيناه الواسعتان وابتسامته الذكية الشجاعة المداعبة، وأصابعه تداعب أوتار العود.

كان راجي يمضي أرباع الساعات، متردداً بين كأسٍ ولقمةٍ على الطاولة وبين الورد، بانتظار الخروج إلى خمّارة سلّوم. لسببٍ ما، كان الشرطي يقسّم الوقت إلى أرباع الساعات. كان راجي الشاب يمقت قيلولة بعد الغداء. وكان إذا غلبه النعاس لا يستسلم له أكثر من ربع الساعة. كان يرى أنّ الأغنام وحدها تلجأ إلى القيلولة ساعات الظهر.

-26-

ومن على شرفة وروده، أو من بينهن، كان الشرطي يرفع نخب الصبايا ويهديهنّ الورد. ثم يطلق في أعراسهن الرصاص، ويراقصهن، غير آبه لحال الذكور. ولم يكن يعزف على عوده في الأعراس. كان راجي يعرف جميع فتيات عين الغار، وجميعهن كن يعرفنه. ولأسباب في عينيه وفي ابتسامته وفي خطوط يديه وفي روحٍ كانت لمّا تزل مقيمة بعد، وربّما لغير أسباب، لم يصدف أن رفضت أياً منهن دخول الدار، ولم يصدف أن عادت يده فارغةً حين يمدّها نحو الصبايا المتزّينات في الأعراس في دعوة لمراقصته. كان دائماً في حالة نشوة، وكان دائماً في حالة جذب.

-27-

– تعالي.. تعالي..– يقول راجي لفتاة تبطىء من خطوها من أجل أن يدركها قبل أن يخفيها المنعطف القريب – لمّي شعرك وارفعيه! هكذا أحلى، ومع هذه الوردة تصيرين أحلى وأحلى! ولأخرى:

– لو تلوّني قليلاً، بلمسة خفيفة، الطرف الوحشي من عينك، بهذا اللون! ويقطف بتلة ويضعها في المكان الذي يعنيه:

– أووه.. أنت رائعة! نحن يا عزيزتي دائما بحاجة لقليل من (الرتوش) تركها الله لنا حتى نعرف معنى الجمال! (الرتوش) حتى نظهر ما هو حسن في خلقه، فينا. هذه وردتك لا تنسيها، لا تتركيها تعطش!

-28-

وذات نهار اصفرّت سماؤه، أُحيطتْ المنطقة بالأسلاك الشائكة، وهُدمتْ بيوت القرويين المطلّة عليها، وراح الرصاص يُطلق في كل اتجاه. أُغلِق الشاطئ الأبيض أمامنا. تركنا تلك المناطق على مرمى نظرنا العاجز حين وُضِعنا وإيّاها تحت مرمى الرصاص. لم نصدّق في البداية أنهم سيحرموننا ملح البحر. راح الممنوع يدبّ كأم أربع وأربعين، فإذا بنا نستيقظ كل صباح على ممنوع جديد. ومن يفوته أن يتعلّم الممنوعات الجديدة يعود إلى أمّه محمّلاً ببقايا

دمه، معفّرةً بالتراب. واكتسبت الرؤوس والخلجان والصخور والأمواه اسماً واحداً لم نكن نعرفه من قبل. وراحت أعناق الزيتون تُبضّ. كم كان ثقل ذلك رهيباً على المعلّم حين رأى زيتونة العقارب تهوي، وكانت أولى الزيتونات التي حكم عليها بالموت. تابع المعلّم وحده ذلك، متطلّعاً بعتب نحو الخضر، فلا ابنة مريم استطاعت النظر إلى أسنان المنشار تأكل العنق ولا أي من أفراد عائلتها. الأشجار الأولى نُشرت جذوعها، وبعد ذلك اقتلعت قرمها ورميت على التخم. فكّر المساعد المشرف على العملية بالاستفادة من خشب الزيتون، ثم جاءته أوامر القلع والحرق. تلك التي ألقيت قرمها، مَسحت على جرحها يد المعلّم.

-29-

وما إن أغلق المعلّم عينيه، حتى رأى نفسه ينقل جثث الزيتون لينصبها حول المدرسة فيكتب الأولاد على يباسها ما يشاؤون، وفي إغماضة العين يرتد خائباً، فلهم وحدهم أن يتصرفوا بأمر القتلى. الزيتون أيضا يموت. كان التين قد أتت عليه الديدان في عين الغار.

-30-

– الكلاشينكوف أحسن بارودة بالعالم! قال المساعد بوعلي، رافعاً بندقيته، وراح يتباهى بإطلاق النار بيده اليمنى على حائط المدرسة، فيما يده اليسرى تمسك بلفافة تبغ بلدي على عتبة فمه الأدرد. لم يصوّب بارودته باتجاه شباك المعلّم، كما فعل صاحب الكلب الأسود، الرجل الذي صار اسمه بارود. لسبب ما يكره مشايخنا الكلاب، ويكرهون الكلاب السود أكثر من سواها " لعنك الله يا...!: إلعنْ يزيد ولا تزيد، يا شيخ!" همس صاحب الدعوة في إذن الشيخ، قاطعاً اللعنة التي أعقبت مرور كلب أسود أمام الجمع. كان بين الحضور غرباء.

أطلقَ صاحبُ الكلب الأسود من بندقية الصيد على شباك صفّنا طلقين ناريين. حين عاد ابنه ضابطاً من موسكو. كان ابنه أهداه هذا (الكسر المجْوِز)، وعكّازاً مطعّماً بالعاج. في ذلك الصباح، كان بارود كعادته يعتلي كرسي التوت، متظاهراً بقراءة كتاب عتيق أمام العّلية، محدّقاً في مؤخرة ابنة الجيران، حين تراءى له أن المعلّم توقّف عند حديد النافذة مختلساً النظر إلى صحن الدار. هناك كانت عزيزة أخت زوجته. كان لغرفة صفّنا نافذتان، واحدة تتوسّط مقاعدنا، ربط صاحب الكلب إلى قضبانها حماره الرمادي، وأخرى قرب السبّورة للمعلّم، يتملّى عبرها السماء ويرد تحيات العابرين بأحسن منها. كان المعلّم يغمض عينيه مبتسماً، ريثما ينتهي الحمار من نهيقه كلّ مرّة. وفجأة رأينا معلّمنا ينبطح، ثم دوّى طلق أعقبه آخر.

-31-

الفأر يفقد ذاكرته، ويخسر الخبرة التي اكتسبها عند تعرّضه لضغط عصبي، وأمّا الإنسان فتتعطل كهرباء دماغه، كثير من دارات الدماغ يتوقف عند تخويفه. يبدأ الدماغ بتشغيل داراته الأولى التي كانت قبل عصر الكهرباء بزمن طويل. يبدأ بإعطاء تعليمات لليدين والقدمين والأنياب. تُسقَطُ أبوابٌ مسننةٌ ثقيلة من حديد بين الدماغ والعقل. تقرقع أبواب الدماغ وأقفاله الصدئة، ويتناهى من هناك وقع أقدام ثقيلة. إرهاب الإنسان، يعيده إلى غريزته. كل الدماغ التطوري المكتسب، يصبح بلا معنى. نحن كائنات، نصف أدمغتنا زائد عن الحاجة. ومن شأن المزيد من الخوف أن يعيدنا إلى حيوانيتنا عودة لا رجعة عنها. الحيوانات أيضا تُحبَس. لا تطمئنوا كثيراً...! خالَ المعلّم المنبطح في غرفة الصف نفسَه يُلقي محاضرة عن بيولوجيا الإرهاب.

- البيولوجيا أساس رديء للسياسة!- سيقولون لي! فكّر المعلّم- أعرف. سيقصفني المستمعون بالبيض. قبل أن يخرجوا من القاعة، ساخرين من حماقتي.

-32-

بدأ تاريخ المسرح في عين الغار مع البيض. كَتَب علي جاد الصغير مسرحية من فصل واحد. سلّة ملآنة بالبيض البلدي استهلكناها في عرضنا الأول. لم تسمح لنا شبيبة الثورة بإجراء العرض الثاني. في المسرحية مدير مؤسسة يرتشي بسلّة بيض. لم يكن في جيب أيّ منا قرش واحد. وأمّا الذهب فأمهاتنا كنّ قد بعناه من زمان.. كنّ قد بعن ذهب خواتم زواجهن كي يسترن أجسادهن بقطعة قماش. يكتشف المراجعون المنتظرون أمام باب المدير أن طلباتهم مرفوضة، في حين يشير صاحب السلة الفائز بموافقة إلى خصيتيه ضاحكاً. يدخلون مكتب المدير ويكسرون البيض على رأسه، بعد أن يقف أمامه أحد الممثلين مديراً ظهره للجمهور، ويعرض عليه بيضتيه ليأخذهما "هذا ما لدي لك ولأمثالك!" يصيح. ويدخل الجمهور. الجمهور هو أهلنا. يقذفه الجمهور بالبيض. يتبيّن أنهم خبأوه بانتظار اللحظة الحاسمة. تندفع أم الممثل، لتحول بين جسده وبين أحذية الجمهور الغاضب. لحسن حظ الفن، لم تكن السكين معه على خشبة المسرح.

-33-

طالَبَنا أهلُنا بمزيد من المسرحيات، لكن وحدة شبيبة الثورة في عين الغار قدّمت مسرحية عن فدائيين يقتلون صهاينة ويرفعون علماً على تلٍّ في فلسطين. ومن أجل أن تنغرز عصا الراية بسهولة، جعلوا التلّ (جاغاً) من التبن. حشوا هذا الكيس الكبير بالتبن جيّداً، وكان عليه أن يلعب دور أحد تلال فلسطين. هذه المسرحية، انتهت أيضاً بمشاجرة. كان حامل الراية صغير القد.

كان عليه أن يعتلي التل برشاقة، ويغرز عصا الراية أو، الأدقّ، رمحَ الراية فيها بحماسة. لكنّه لسوء حظّه، اختل توازنه حين انخفس التبن تحت قدميه. فسقط. تبين أن حامل الراية فتاة سروالها مفتوق. قفز أخوها إلى الخشبة وأشبعها ضرباً. ومع ذلك، لم يمت المسرح في عين الغار إلا بعد المسرحية الثالثة، التي وضعها رفيق في قيادة رابطة الشبيبة. المواطن في هذه المسرحية تأتاء لا يستطيع إفهام المسؤول ما يريد. في ذلك المساء ضحك بارود كثيراً، وصفّق، وأطلق من بارودته النار في الهواء. ومع ذلك، فقد كانت تلك آخر مسرحيات عين الغار. وحدها الأعراس لم تنقطع. كان لا يزال بإمكان بارود إشباع رغبته في إطلاق النار هناك. وكان لا بد في كل عرس من نار.

-34-

وعلا صوت منادي الضيعة من على الحاووظ

– يا أهالي عين الغار، الحاضر منكم يعلم الغايب، موسم المسرحيات بعين الغار خلص، والفنون جنون، والجنون فنون! وفهمكم كاف، ولا داع لذكر الأسماء.

-35-

وكان الاسم! اسم من، وباسم من كانت ترفع الصلاة؟ وكانت، على أشجار الزيتون في بستان المعلّم، تنزّلت الأسماء. وليس فقط على الزيتونة التي لَدغت في ظلها أفعى لم ترها عين سبابةَ المعلّم، تنزّل الاسم، بل كثير من أشجار الزيتون تنزّلت عليها أسماء في ذلك البستان قبلما تدخله الجرافات.

-36-

يخطر بالبال أن تكون الزيتونة التي لدغت الأفعى تحتها إصبع المعلّم قد تنزّل عليها اسم (زيتونة الحيّة)، أو زيتونة الأفعى، لكن الأمر لم يكن كذلك، فقد تنزّل عليها اسم (الله أعلم!). ولم يتنزّل الاسم إلا في اليوم الذي تلا تلك الحادثة. وكان المعلّم نتر إصبعه، وصدرت عنه أنّة مكبوتة مصحوبة بتوكيد

– حيّة..!! لدغتني حيّة! هاتوا لي خرقة، خيط، أي شي، يا الله، بسرعة..! وأسرعت يدا ابنة مريم إلى ذيل فستانها، وبعد شق صغير أحدثته الأسنان في طرف القماش المتهالك، سلّمتْ شريطاً مزركشاً بأزهار صغيرة من درجات الأزرق المتباينة للمعلم. قام المعلّم بشدّ السلامية الأبعد عن الملدوغة بشريط صغير ضيّق اقتطعه بأسنانه، حابساً الدم في الإصبع، ثم شدّت ابنة

مريم أسفل ساعده بالشريط المزركش الذي بدا جميلاً على يد المعلّم. وبحد السكين، وبعد أن صرخ في وجه ابنه طالباً أَخْذَ القدّاحة عن جذع الشجرة وإشعالها تحت النصل المصوّب نحوه

– عجّل، احرق الشفرة بالنار!

–37–

وعلى الجدار الأبيض الدافئ قبالة الأخضر العابق بالبخّور، كان المعلّم اتكأ وبقي صامتاً. لم يُصلّ، لم يقل لصاحب المقام شيئاً. هو فقط جلس بانتظار أن تأتيه علامة ما على الخلاص. كان متأكدا من أنّه سيوحى له بطريقة للخلاص. لم يكن المعلّم ينتظر أن تعود الحياة إلى أشجاره التي راح يسكت فيها النبض على مرأى من عينيه. ولم يُصلّ من أجل حياة أخيه راجي. وكان الأخير سجّل يوماً آخر من أيام احتضاره، الجديد فيه أنّه أراد أن يعود العودُ إلى يديه. وطلب من علي جاد الصغير رفعه عن الحائط، لكنه كان يسمع شيئاً آخر يحول بينه وبين دوزنة الأوتار. ويبتسم راجي ويبتسم المعلّم ويصمت الأخضر.

–38–

وكان المعلّم قد رأى أمواه البحر تتنازعه، وحوله عتمة من كل الجهات، والموج العالي العاتي منه والمنحني الذي يميل إلى انطواء يغرقه، وكان يسأل يونس أن يرسل له ذلك الحوت من أجل أن يغفو في جوفه ويستريح، قبلما يجد نفسه على الشاطئ، تدغدغ قدميه سرطانات الماء الصغيرة الخارجة من الرمل إلى باطني قدميه المائلين إلى الصفرة. وفيما كان المعلّم يستجدي أواخر ذرات الأوكسيجين أن تتمهل بالاحتراق، رأى من بعيد نوراً فوق الماء، وراح النور يقترب منه، وبان حصانٌ أبيض، راحت حوافره تولّد نوافيراً تتدغم مع رذاذ الموج، وبدا الفارس الأخضر عليه، ودار بحصانه حول الفم المفتوح على الرجاء والنور، ورمى صوبَه طرف وشاحه الأخضر.. فمدّ المعلّم يده وأمسك به..

–39–

ورجا المعلّمُ ابنة مريم:

– روحي اليوم زوري مقامه ولبّسيه ثوباً أخضر من حرير! نظرت ابنة مريم متأسّية فليس في بيت المعلم ما تشتري به الحرير، لكنّها لم تشأ أن تفسد فرحته بالخلاص على يد حبيبه.

– إن شاء الله! أجابته، وانصرفت إلى العلبة المعدنية المحشورة في عنبر المؤونة. لم يكن قد بقي من البقول ما يحتاج إلى إغراق اليد بعيداً. كانت العلبة الفارغة، نصفها في الهواء، ترقد بعيداً عن أيدي الصغار. كانت ابنة مريم قد أخرجتها أمس، ومسحت سطحها اللامع الصقيل من الداخل، وابتسمت لحلمها بأن تمتلئ العلبة من تلقاء نفسها بالنقود، ثم أعادتها، ساخرةً من حلم

يتكرر ساعات الضيق تفضحه اليد والعينان. ومع ذلك، عادت ابنة مريم إلى العلبة لتمنح القوى الخفيةَ فرصةً لإثبات ما لا يصدّقه عقلها، هي ابنة الشيخ..

– هات، خلّني صدّق، خلّني آمن– ثم تضحك كأنما تناكد أحداً ما تراه دون سواها– ما فيها شيء!

وبدا المعلّم تغمره طمأنينة ذات طيوف خضراء، الوجد على قسماته منها ندي ينشر الضوء، ما رأت ابنة مريم على وجهه حالة مثلها من قبل. وكان، قبلما يسحبه الوشاح الأخضر، كثيرٌ من تلاميذه غادر مريلته إلى الخاكي والمرقّط، جاعلاً على جنبه جعب الرصاص والحراب بدل الدفاتر والأقلام. وفرح المعلّم لقرب بستانه من مقام الخضر ورأى في ذلك ليس أقل من طريق منه وإليه.

–40–

وكان المعلّم شقّ إصبعه على طول السلاميات الثلاث، وراح يعصر الدم، الذي اسودّ نتيجة انحباسه، من هناك، ثم طلب زجاجة العرق وسكب منها على الجرح، ناظراً نحو ابنة مريم، ففهمت أن عليها تقديم مزقة أخرى من ذيل فستانها لتضميد الإصبع الجريحة

– خُذ، بالشفاء إن شاء الله، لكن أين الحيّة؟ مع سؤالها، بدا الأولاد كأن قوة نابذة دفعت بهم عن الجذع، فيما أمسك المعلّم بعودٍ يابس وأمسكت ابنة مريم بآخر، وراحا ينكشان التراب والحجارة حول الجذع، فما وجدا وكراً ولا وجدا شيئاً من تلك الحيّة التي آلمت المعلّم

– الله أعلم، رتيلاء لدغتك.. أو عقرب لسعتك!!

– أيّ عقرب يا ابنة الشيخ!؟ أنا لا أمزح، وما أنا مجنون حتى أشق إصبعي بسبب عقرب. ثم، كأنني لا أعرف لدغة الحيّة من لسعة العقرب..! وفجأة ظهر ابن المعلّم الأوسط، ولم يكن أبواه قد لاحظا غيابه، فقد كان انسلّ متهرّباً من العمل وتمدد على بردعة الحمارة، مختبئاً خلف جذع زيتونة شدت إليها (الصابرة)، ظهر الولد حاملاً قطعة من رسن الحمارة التقطها في مكان قيلولة الدابة، قطعة جعلها تلوّثها بعرق الحيوان وما علق به من تراب رقطاء. علّق الولد الرقطاءَ على العصا التي تُستحث بها الحمّارة حين تنوء بثقل الزيتون، في طريق العودة إلى عين الغار، ودلّاها كأفعى قتيلة، ومشى في سباق مع صوته المراهق

– ها هي الحيّة، قتلتها! كان هذا الشقي أقرب إلى ابنة مريم وكانت قد التقطت الضحكة التي يخفيها

– الله أعلم، كانت تنوي لدغ الصابرة!– ابتسم المعلّم، فقد رأى في الرسن الأرقط أفعى حقيقية– قلت لكِ حيّة، ما صدّقت! قلتِ لي الله أعلم! إصبعي ما أعلم؟ تفضّلي هذا البرهان، استغفر الله! ولكنه لم يكمل استغفاره حتى انفجر الولد بالضحك وكادت ابنة مريم تقضي اختناقاً

بضحكتها المكبوتة. حسب الأولاد أن أفعى حقيقية لدغت أمّهم حين انقلبت على الأرض من شدّة الضحك، وراحت تدفع التراب والحجارة الصغيرة بقدميها. وحين اكتشفوا غرقها في الضحك شارك الجميع في جوقةٍ أثارت غضب المعلّم ثم ابتسامته

– يا أولاد الشياطين، تسخرون مني!؟ ورفع حجراً وقذف بها حامل الرقطاء فأصابت منه الرأس، ومن هناك نزّ خيط دم رفيع. ضغط الجريح جرحه براحة يده وركض باتجاه الدرب المفضي إلى المقام، وهناك التقط شيئاً من بعر الماعز وضغطه على الجرح. كان ذلك درب القطعان بين المقام وعين الغار. لم يُبق الماعز على شيء من الأخضر خلا ما احتمى منه بخاصرة المقام.

– الله أعلم، لدغتني الحيّة برأسي! قال الجريح بنبرة ضاحكة ومعتذرة في آن، مخففاً الهم عن قلب المعلّم الذي اغتم، فدعا ابنه لمعاينة جرحه، وكان يخشى أن يكون الجرح بليغاً

– الله أعلم– قال المعلم ضاحكاً– هذه لحسة حيّة، أسنانها ما انغرزت كفاية برأسك اليابس، رُح اقعد بالفيء. استراحة، هات البطحة يا ولد.

–41–

هوب.. هوب! وتابعت كاترينا سيرها، من ظل جدار ثانوية جول جمّال نحو عين الغار، وكان راجي لا يزال يحتضر، أصابع يديه حول كأس العرق وعيناه على الأوتار.

وفي كاترينا، كان جذع علي جاد الصغير يتأرجح يمنة ويسرة وإلى أمام وخلف فيما رأسه منكبّ على صدره. لم يكن قد نام ليل أمس. لم يقل للمعلّم أو لابنة مريم شيئاً عن رغبته في عدم العودة إلى البيت هذا اليوم. والصحيح أنّه لم يكن قد حسم أمره بشأن البقاء في المدينة. كان ما دفعه إلى البقاء خارج البيت، هذه المرّة بالذات، هربه من ضعفه أمام مواجهة لحظة الموت. كان علي جاد الصغير شعر بأن موت عمّه سيكون في هذا الليل. فأمضاه في شوارع المدينة، قبل أن يركن إلى غرفةٍ نصف معتمة في الفاروس. وكان الشيخ ابن عمّ أبيه قد أثقل عليه في أمسه بأحاديث عن الموت.

–42–

كان الشيخ قد قصد ابن عمّه المعلّم أمس الأوّل في أمرٍ لم يلتقط علي جاد الصغير علاقته بالدنيا آنذاك. ولم تكن ابنة مريم تسأل المعلّم عمّا يثير فضولها في خروج المعلّم مع ابن عمّه، ما لم يفصح عنه من تلقاء نفسه، كما لم تكن تفعل ذلك في العموم. فطالما هو سكت عن أمر ما فمعنى ذلك أنّ هذا الأمر لا يخص شؤون البيت، وإلاّ لأطلعها عليه وشاورها فيه.

ذهب المعلّم بالشيخ إلى مكان ما، وغابا ساعة أو ساعتين من الوقت. ما أعلمه أنّهما سلكا طريق الجب. لم يكن لدى أحد في بيت المعلّم ساعة لضبط الوقت الفاصل بين خروجهما من البيت وعودتهما إليه. ساعة البيت الوحيدة كانت في معصم المعلّم، وهي الآن ترقد مع أوراق ورسائل ووثائق وأشياء أخرى في علبة مبطّنة بأخضر جاءت به ابنة مريم من حيث يؤتى بالأخضر شرائط عابقة بالبخّور.

كان في العلبة فيما مضى صور ثلاث: صورة الشيخ أبيها بحاجبيه الكثين وبلحيته الموشّحة بأبيض وشى بشيخوخة جميلة لم تأت، وصورة المعلّم في بزّة الجمارك وصورتها وإياه، هي في فستان مكشكش طويل تُمسك، مُطرِقةً، بباقة ورد، فتاة ترتسم أعوامها الأربعة عشرة على وجنتيها، وهو في سترة وربطة عنق وغرّة مرفوعة إلى الأعلى واليسار عن مفرق في شعر أسود لامع، وبريق في العينين وابتسامة نصر.

-43-

وانتشر صوت المنادي فوق أسطحة البيوت

– يا أهالي عين الغار، الحاضر منكم يعلم الغايب، الدعوة دعوة والواجب واجب، وكل واحد منكم يعمل بأصله، لا تنسوا عرس أخينا صافي اليوم، وهذا القول لتوكيد الدعوة، أبعد الله عنكم كل نعوة!

-44-

ويوم نتر المعلّم إصبعه من بين الحجارة متألّماً، كان مُدّ على التراب (ميزر) أبيض، كانت ابنة مريم قد صرّت به أرغفة الخبز. وعليه، وضعت طنجرة صغيرة جيء بها من البيت. كان الباذنجان المطبوخ مع البندورة والثوم، بعد قلي قِطعهِ الصغيرةِ المقشّرة بالزيت، رائعَ الطعم مع الفيلفة الحريفة الخضراء. وإلى جانبه، وُضِع طبق من البطاطا المسلوقة والمهروسة مع البقدونس والثوم والحامض وزيت الزيتون. ومن تحت الأشجار، التقط الأولاد حبّات قد (عيتنت)، أو تعطّنت، بفعل ما فيها من ديدان ذبابة ثمار الزيتون، وبفضل من تخمّرها في الظل. ومع الكأس الثانية، راح المعلّم يغنّي " لازرعلك بستان ورود "، وراح الأولاد يرددون معه أغنية فؤاد غازي، متطلعين صوب أمّهم التي بدا أنّها سارحة (الله أعلم) أين.

كانت ابنة مريم كثيرة الشرود، وكثيراً ما كان ينتهي شرودها بابتسامة ذابلة، أو بحكاية من حكايات الأهلين مع جدّها الشيخ. وهذه المرّة، لوّح الأولاد بأيديهم أمام عينيها لإعادتها إلى الطعام وإليهم، فابتسمت كعادتها واغرورقت عيناها بالدمع

– بوسوا يد أبيكم وقولوا له الحمد لله على سلامتك! لا تزعل، خلاص يا سيدي، كرمى لعين سكيبة، حيّة وطولها متر! ضحك المعلّم وتابع، دون أن يؤثر قول ابنة مريم على نبرة أدائه للأغنية

– " واغزل لك من نور الشمس حيّة وحطا بإيديكِ..!" فابتسمت ابنة مريم

– إن شاء الله يرزقنا، وتشتري لي إسوارة مثل الحيّة! وكان المعلّم وابنة مريم قد باعا محبسيهما في ساعة ضيق لم تنجل. وفي الغد، غير آبهين بالأفعى، تناولت أسرة المعلّم الغداء تحت زيتونة كان تنزّل عليها اسم (الله أعلم!).

-45-

وكانت تناهت إلى سمع المعلّم هتافات الأولاد يجوبون أزقّة عين الغار. كان يعلم ما يقولون. فقد سبق أن سمعه في باحة المدرسة من تلاميذه اللاهين بعد الدوام

– هوب، هوب يا بارود، بْ تصير قاق بتاكل دود! بْ تصير قط بْ تاكل فار، وبيحطّك الله بالنار..

-46-

وقبيل أن تُشلع الأشجار وتبقى أسماؤها معلّقة في الهواء، كان أحدٌ ما كثرت الأقاويل حوله، دون أن يعرف الأهلون من يكون بالضبط، قد بدأ يفجّر الصخر في جبل الصنوبر، ويجرفه إلى أراضٍ غادرها الأهلون إلى نقودٍ سرعان ما نفدت. وكان ما يعرفه الأهلون أنّ جرافات حكومية عملاقة راحت تهدر هناك.

في البداية فرحوا! فهذا المقتدر الذي تقتلع جرافات وُضِعتْ تحت تصرفه الصخورَ العملاقة وتنقلها ليس عن أراضيه إنّما إليها، أنّ هذا الرجل لا بد أن يوسّع طريقي الجبل، من جهة (الجب)، ومن جهة مغارة (تْرسلان) الجرفيين الوعرين ويعبّدهما، وعندئذ سترتفع أسعار أراضيهم وسيصبح بإمكانهم بناء دور هناك. كان الأهلون يتبعون الماء فيسكنون الأرض الواطئة، تاركين القمم لموتاهم ولقتلاهم. لم يكن أحد قد طردهم من مقابرهم قبل أن تبنى القصور على قمم الجبال.

في زحام المدينة، يمكن لملامح وجهك أن تندغم مع آلاف الوجوه المتشابهة القسمات ويمكن لعينيك أن تضيعا عن العيون، أمّا في سكون الجبال فلم يعد ذلك ممكناً. وفكّر الأهلون وحلموا بأن الماء المنبثق من بين الصخور في عين الغار، هنا، والجب وعين الدقاقة، هناك، لا بد من أن يُجرّ إلى الجبل، وقد يحفر بئر في أعلاه. فالذي يأتي بكل هذه الآليات ويستطيع هزّ الجبال

على مقربة من جدران المنتجع المحروس بالنار، لا يعقل أن يكون عاجزاً عن الإتيان بحفّارة ماء بل بحفّارة نفط تخرج الماء من مئات الأمتار. وعندئذ، سيتحوّل الجبل إلى جنّة.

-47-

على عشاء أوّل أمس الذي كست فيه طيوف رمادية مصفرّة وجه المعلّم، لم يكن الشيخ ابن عمّ المعلّم قد أعجبه دفاع علي جاد الصغير عن فكرة الانتحار، وعن الحق في إنهاء الحياة مقابل عدم تخبير الانسان في بدئها. أكّد الشيخ أنّ أحداً لا يحق له أن يختار ساعة موته. شعر علي جاد بالغضب ولم يعجبه ذلك في نفسه، كما شعر بأنّ الحديث يضجر أباه. فقد جلس المعلّم على حافّة الكرسي، كأنما يهم بالنهوض. بات واضحاً لعلي أنّ واجب مجالسة الضيف هو ما يقعد المعلّم عن الانصراف إلى صمته، وحزنه على نفسه وعلى أخيه. لم يغادر المعلم مائدة ضيفه، وليته فعل!

وبعد ضِيقٍ، غادر الشيخ إلى غرفة راجي، طامعاً بثنيه عن فكرة الانتحار، ولو قبل يوم من موته. كان الشيخ يعتقد أن ذلك سيكون كافياً ليُرفع عنه إثم قتل النفس.

-48-

وكان الشيخ حمل رسالة لابن عمّه المعلّم:

– انصحك أن لا تعاند.. سمعت أن الذي اشترى معظم الجبل، وراح يستصلح أملاك الدولة التي بالسفح الغربي القبلي، من جهة البحر، ضابطٌ مهم، وهذا الذي دفع المال واحد شكلي ما له شبر واحد من الأرض، إلا إذا راضاه بقطعة أرض صغيرة من جهة الجبل، لا من جهة البحر..وأن الشاري الحقيقي، قال حين سمع بأنّك لا تقبل البيع، ساخراً من الألفين وأربعمائة سهم: نبعث له أربعة عساكر لينصبوا خيمة فيها، وخلّ الألفين وأربعمائة سهم تنفعه. منطقة عسكرية، ممنوع الاقتراب والتصوير! فما رأيك؟!

-49-

وكانت ثلة من الأولاد عبرت ساحة عين الغار، فيما الرجال يتنافشون في مقهى (برهو) عن فوائد تفجير الصخر، وكان الشاعر بوفيصل قد تنبّأ:

– إذا استمر هزّ جبل الصنوبر بهذه القوّة ستتفجّر، والعلم عند الله، ينابيع على السفوح!

وسانده آخر، ترتسم على وجهه ملامح جدّية مبالغ فيها

– وقد يتشكّل عندنا شلال عظيم مثل شلالات نياغرا!

– لكن، يا فهمان – يلتقط الشاعر بوفيصل سخريته– ارتفاع الجبل من قرمة فخذه حتى أعلى شعرة بغرّة زيتونات المعلّم 333 متر و.. ويعني، الشلاّل لن يكون أقوى من بولة امرأتك على الواقف! – وضحك الحاضرون وصخبوا. فقد كانوا جميعاً يعرفون كيف ردّ الرجل الذي صار اسمه (عالواقف) على صراخ امرأته. قال لها حين راحت تصرخ في وجهه على باب دارهم " لا تصرخي.. لا تصرخي، مهما صرخت ما فيكي تبولي عالواقف"– كم ارتفاعه؟

– حسب الهواء يا أفندينا! يمكن أن ينقص ويمكن أن يزيد!– حسم نادل المقهى النقاش– وحسب طول الـ...

– إن شاء الله يصب ببؤبؤ عينك!، لا تتدخل حضرتك بشيء لا يعنيك، ثم إنّ الشلال بحاجة لقطع عمودي وسفوح الجبل مائلة، والماء يمكنه التدفق عليها جرياً فلا يسقط.

– قصدك يبعبع ولا ينسكب

– بل قصدي ينبح مثل كلب جعاري!

– ما أحلاه انزعاجك يا بوفيصل! ابتسم النادل في محاولة اعتذار عن تدخّله

– أحسنت– قال الشاعر مخاطباً النادل– عرفت أنّك المقصود.

– يعني، الأفضل، لو نطلب من الأفندي قطع السفح قبل كل شيء– تدخّل صاحب المقهى من وراء طاولته– والأفضل، لو يشتري حواكير السفح ويحوّلها إلى حائط... الله أكبر تخيّلوا بدل السفح حائط ارتفاعه..كم يا شاعرنا؟ و33 سنتمتر!

– وتخيّل أعشاش السنونو فيه

– وتخيّل العشّاق قبلما يطيرون من فوقه

– وتخيّل الأمهات يبكين تحت!

– تخيّلهن، يا غبي، بطريقة ثانية تحت ماء الشلاّل! وقطعَ صراخُ الأولاد استرسالهما

– عوعو..عوعو، ما فيه عتم ولا فيه ضو..هو جقل أم هو كلب.. ساعة هَو وساعة عو.

-50-

وانصرف الأولاد، وكانت شواطئ لهوهم أحيطت بالأسلاك الشائكة. أغلق البحر، فإلى أين يذهبون؟ (الهبطة) ممنوعة، و(البجاق الفوقاني)، و(البجاق التحتاني)، و(جبّور)، وبعدها (سِكر مسيعود)، و(جورة سامي)، و(جورة الشيخ علي)، ثم (القناطر)، و(الأضاي)، و(التنين)، و(خبيزات القرباطية)... هذه هي جغرافيا الماء، أو كانت كذلك. هذه الأسماء لصخور وبرك ماء ترك فيها صغار عين الغار وحشيتهم الأولى. أمّا الآن فغيّرت اسمها نحو اسم واحد، تاركةً الأولاد للرمل تذروه الريح. أترى وحشيتهم تعودُ إليهم مرّة أخرى بعد انتزاع الماء منهم أو انتزاعهم منه؟

-51-

وكان المعلّم يهبط بتلاميذه فجر الجمعة نحو البحر. هناك، يخفقون حوله كمثل قلوب صغيرة، فإذا بهم يكتشفون القدرة على العوم، ثم على ضرب الماء والاندفاع إلى أمام، ثم على الغوص، ثم على اللعب كيفما يشاؤون، ومعهم يصعد إلى تخوم بيوتهم ثم يغادرهم إلى الجبل. وكان بستان المعلّم على منبسطِ القمّةِ، تحيط به بساتين بيعت من أربع الجهات. كان البستان تصله بطريق (الجب)-(الخضر) درب ضيقة على تخمٍ بين بستانين قبلما تنتقل ملكيتهما إلى شار جديد، فيدمجهما كما يدمج غيرهما مما وضع يده عليه واشتراه فضاعت معالم التخوم والدروب. وراحت جرّافات هدّارة تنقل صخوراً عملاقة كانت فجّرت بالديناميت، وبين حين وحين كان يؤذن للجرافات أن تأخذ نفساً عميقاً وتغفو لبعض الوقت، ليس استعداداً لرفع التراب من أجل زيتون وتين جديدين، إنّما من أجل أشياء راح المكان يفصح عنها بالتدريج، وراح الأهلون يزدردونها دفعة وراء دفعة. وراح المعلّم ينادي أشجاره بأسمائها، وسط ضحك الرجال، فيما الصوت يضيع مع القهقهات وضجيج الحديد والبارود.

-52-

وكان راجي علم باقتلاع الزيتونة التي تنزّل عليها اسمه في بستان أخيه. وكان خرج من غرفته لآخر مرّة قبل أن يدخلها إلى انطفاء. كان اسمه لا يزال محفوراً على جذع الزيتونة لحظة ألقيت في النار، وكان خاتم الفضّة لا يزال في الجرح الذي أحدثه راجي في ذلك الجذع. كان يغفو وسط اللحم النابض بالنسغ. وحيداً وحزيناً، خرج راجي.

كان راجي صدّق في أمسه أنّ الجمال منقذ العالم. وكان صدّق أن الدم يجري في العروق من أجل الحياة. وحتى حين كان عليه أن ينقذ قاتلاً صدمته سيارة أثناء خروجه مهتاجاً من البيت الذي ذبح فيه أخته العاشقة، راح يبحث عن الوحش في عينيه، فوجده يختبئ خلف زجاج جميل مندى مائل للخضرة. وأمّا اليوم فهو لم يعد يؤمن بشيء.

-53-

كان راجي كثيراً ما تُذَمّ فيه رقّته. وابتسم راجي متصوّراً أنّهم ينتظرون منه أن يحشر سبطانة المسدس في فمه ويطلق النار لآخر مرّة في حياته.

- الموت برصاصة أسرع من أن يتأمّله الناس! لا، لن أنتحر بالرصاص. قال راجي في نفسه، باحثاً عن موت أجمل.

– أي شرطي أنت، ولم تقتل رجلاً في حياتك؟!– كانوا يتساءلون ساخرين– وتعزف على العود وتغنّي للحب ولا تتحدث إلاّ عن العشق والجمال والموسيقى! عيب! هذا لا يليق بشرطي!

وخرج راجي إلى حانة سلّوم، متزنّراً بحزام جلد جديد، حاشراً تحته مسدّسه فوق سروال كحلي اللون وقميص أبيض. وعند باب الدار استدار، وأطلق رصاصة على البزّة التي كانت لا تزال معلّقة على حبل الغسيل. ومن زيتونة الدار المهجورة، كسر فرعاً، وضرب به الحائط، ورماه، ولم يلتفت إلى مكان سقوطه.

–54–

هوب.. هوب! وتابعت كاترينا رحلتها في الطريق إلى عين الغار، وكان علي بن الساموك وفيصل بن الشاعر وجلال بن الوحش من أوائل تلاميذ المعلّم الذين غادروه إلى الشام، وكانوا قبل رحيلهم يسامرون راجي في غرفته، نحو دو ره مي. وكان راجي يتمنّى لو يرحل معهم إلى الشام، لكنّه كان عاشقاً هنا. ولم يكن لعشقه أن يعيش في غير أرض، كما لم يعش هنا في تربة الورد.

–55–

وكان منادي الضيعة صعد الحاووظ قبل خمسة أعوام وصاح:

– يا أهالي عين الغار، الحاضر منكم يعلم الغايب، علي بن سلمان علي ساقوه عَ العسكرية، ادعوا له، الله يرجّعه بالسلامة! واستسلم لنوبة سعال وبصق قبل أن ينزل درجات السلّم الحديد.

وفي يوم آخر:

– يا أهالي عين الغار، الحاضر منكم يعلم الغايب، فيصل بن أم فيصل، الله يكون بعونها، تطوع بسرايا الدفاع ولبس المموه، ادعوا له، يرضى عنه القائد ويحنن قلبه عليه.

–56–

وفي ساحة الضيعة، اقترح عيسي أن ترسل كل عائلة من عائلات عين الغار واحداً على الأقل من أبنائها إلى الجيش، وأن لا يستثنى غني أو فقير، شيوخ أو عَوام.

– تخيّلوا القوّة – قال عيسي– في كل بيت رشاش، عند اللزوم!

-57-

وكان في بستان المعلّم زيتونة، تنزّل عليها اسم (عقارب عيسي). وكانت تنتصب عند رعش في وسط البستان. عيسي!؟ لسببً ما، لم يناده أحد بما يقتضي اسم عيسى من احترام، فاستبدل الناس، مذ عرفوا أيّ عيسى يكون، بألفه المقصورة ياء.

وكان يمكن أن يتنزّل اسم (زيتونة البرودة) على شجرة عيسي، وهذا ما كان اقترحه علي جاد الصغير، المسمّى تيمّناً بالراعي الذي غادر مراياه إلى التراب، لكنّ اقتراحه لم يلق الصدى المطلوب. فقد كانت ابنة مريم سبقته إلى الاسم، وهي كانت تُلقّب برئيسة دائرة الألقاب في بيت المعلّم، وبمديرة شؤون وجوه المساكين. كانت ترسم على وجهها سحناتهم بنجاح عجيب.

طلب علي جاد الصغير تسمية الشجرة بـ(زيتونة البرودة)، ليس لأن العقارب تبترد في ظلمة حجارتها، إنّما لأن عيسي حين مرّ ببستان المعلّم وكان في طريقه لزيارة مقام الخضر، حاشراً في جيبه علبة كبريت، فيها بعض أعواد الثقاب وقليلا من البخّور، جلس تحت الشجرة التي كثيراً ما قُتلت عائلات من العقارب في ظلّها. جلس عيسي، ساخراً من دعوة علي جاد الصغير إياه إلى الحذر من عقارب تعيش تحت الزيتونة. ضحك عيسي

– وقت كنا بعمركم، ولا دراسة ولا من يحزنون، صحيح كلامي يا ابن الأوادم، ما فيه أحد كان يتعلّم إلا أولاد المشايخ؟ كنا ندور بالبراري من الصبح للمساء، وكانت الشمس بالصيف، ما مثل هذه الأيام، كانت مثل النار تحرق ذنب العصفور، كنّا نفتش عن العقارب ونتركها تلسعنا.. ورأى عيسي محدّثه علي جاد الصغير يخفي ضحكة، فأضاف

– يا ابن أخي، لسعة العقرب كانت تعطينا برودة! ساعات الظهر كانت مثل جهنم، موت أحمر! وراح عيسي يقلّب بُنصر يسراه المعوجّة في غير مكان، مؤكّداً لمن يصغي إليه من أسرة المعلّم المشغولة بقطاف الزيتون أنّ فيها كثيراً من اللدغات واللسعات

– شف يا ابن أخي كيف إصبعي متورّمة! كلّه من لسعات العقارب! لم تتزحزح الدبلة التي أمسك بها عيسي أثناء عرضه لإصبعه المعقربة من مكانها.

-58-

هوب.. هوب، وراح أحدهم يخبط على حديد كاترينا ذات مساء، ويصيح ركاب المقعد الخلفي مع الرجل اللاهث:

– هووووب هوب! يا بوسلطان، طلّع الرجل، حرام.

– خلّوه يعرف التعب، ما معه مصاري ليدفع الإجرة، لا يشتغل ولا يقعد بالبيت!

– هووووب هوب، طلّعه! أنا أدفع عنه! صاح العطّاس. وصعد عيسي إلى الحافلة.

-59-

وكثيرا ما كانت سيارة النجدة التي يقودها راجي تمتلئ بالساعين إلى المدينة لأمرٍ، أو من المدينة لأمر آخر، ناهيك برحلات أخرى، يُنتزع الشرطي الشاب إليها من بين شجيرات الورد أو من حانة سلّوم، لإسعاف مصاب.

– إصبعه انبترت! قالوا له، فضحك:

– أي واحدة؟ إذا كانت من أصابع يديه أو قدميه فغير مهمّة.

– كلّها مهمة يا راجي!

– ما كلّها. فما أكثر الناس الذين عندهم أصابع زائدة ولا يعرفون كيف يستخدمونها! ونهض راجي لنقل ذي الإصبع المقطوع.

– مجنون!– قال سُمّاره، حين ارتسم ظهره الحنون وراء الصغير الذي جاء لمناداته!

-60-

وكان عيسي حين زار بيت المعلّم، بعد أمدٍ من جلوسه تحت زيتونة العقارب، فَقَدَ خنصرَ يسراه. جاء عيسي راجياً المعلّم وثيقة إتمام الصف السادس لابنه الأوسط. ولست أدري ما الذي كانوا يفعلونه بهذه الوثيقة في سرايا الدفاع. فهي لم تكن تعني النجاح في الصف السادس، وكثيراً ما كان المعلّم يكلّف ابنه علي جاد الصغير بكتابتها. وكان الأخير يتجرأ أحيانا على التوقيع تحت اسم المعلّم إلى أن احتجَّ الأخير، بقسوة، على كتابة اسمه بخط مائل. فاكتفى علي جاد الصغير، مذ ذاك، بكتابة الوثائق، تاركاً للمعلّم تدوين اسمه وعبارة (مدير مدرسة عين الغار الابتدائية) بخط يده. حين جاء عيسي طالباً وثيقة للأوسط أسوة بالبكر، لم تكن بنصر يسراه في مكانها.

-61-

كان عيسي قد سخر في خمّارة سلّوم من الرجال الذين ينتظرون "مثل النسوان" توّقف السيارة حتى ينزلوا منها في ساحة الضيعة.

– أنا عمري ما نطرت حتى تتوقف السيارة، أنا بْ نط منها! لم يكذب عيسي فقد رأيته بأم عيني يقفز من كاترينا، قبل أن تتوقف. ولولا بطن أتان كبيرة اعترضت طريقه لتابع جريه وربما تدحرجه من باب الحافلة حتى عتبة داره.

-62-

ومرّ رجل غريب متأنّق من أمام أولاد، كانوا في قيلولة تحت أشجار الصنوبر أمام دكان اليابوس الحلاّق، فالتفتوا إليه، ونهضوا، وبدوا أشبه بجوقة لا تحتاج إلى أكثر من إشارة من عصا المايسترو ليُنشدوا. وما إن تجاوزهم الرجل ببضع خطوات حتى صاحوا بصوت واحد، مستعدّين لاختبار حماقته:

– مرحبا يا شب، بِ طيزك حَبّ.

لم يكن الرجل أحمق إلى درجة الدخول معهم في لعبة أرادوها، فانصرف عنهم، ولكن ليس إلى المكان الذي قصده إنّما إلى سيارته البيجو العتيقة. كان الهارب على شبهٍ بالبدين شاري الأراضي المجهول.

-63-

ما أسهل انتقال الضمائر: ياء، هاء..!– قال المعلّم مبتسماً، وأضاف– أرضه، أرضي، أرضنا، أرض، الأرض! معكِ حقّ يا ابنة مريم، فالمشكلة أكبر من التراب الذي منه جبلنا، وليس غريباً أنّه لم يسجد للطين! أمّ أنّ المشكلة كلّها في الطاعة والتطويع؟ وعاد إلى درس التربية الدينية، عاد إلى درسه عن أيوّب. وكانت ابنة مريم قد احتجّت على درس أيوّب.

– " ويبلونّكم ليمتحن قلوبكم أيّكم أحسن عملا ". أجابها مبتسماً، وأضاف:

– أهذا قليل يا ابنة الشيخ؟ لا يُعرف الناس إلا في المحن! وتعترض ابنة مريم، تعترض على أن يكون شكر أيّوب لله هو الحل. وأن يكون ذلك ما يريده الله.

-64-

كان الشيخ أبوها قد غادر الزيتون إلى خوابٍ فارغات، ولجأ إلى جدرانٍ راح الطين الأبيض ينسلخ عنها. لجأ الشيخ إلى القرآن، وانتظرت مريم وأولادها أن تبيض الدجاجات. سُدّت الدروب أمام الشيخ نحو صلوات تركها معلّقة فوق الأشجار هناك. فعلى قمّة تتوسط الأخضر، لم تكن قد طاوعت فأس الشيخ، نصبوا صحناً راح يدور يميناً ويساراً. وعدوه بأن حلولهم على أرضه لن يطول، لكنّه لم يستطع الانتظار، فرحل.

-65-

ضحكت ابنة مريم ساخرة. تذكّرت صورة راودتها حين رأت المدافع الخضراء أوّل مرة في جبل أبيها الشيخ. خيّل إليها أنّها ستورق في الربيع، وحين لم تورق وكانت رأت عتمة مواسيرها،

تخيّلت أفاع تعشش فيها، وتضع فيها بيضها، وراحت ترى المدافع تطلق بيض الأفاعي نحو الدور. وأصابها الذعر من ثعابين صغار تخرج إلى البيوت ومن البيوت. كان البيض يفقس في عيني ابنة مريم، وكلّما فقست بيضة حلّت محلّها أخرى. ينابيع من الثعابين، راحت ترى في ذلك النهار، حتى أصابتها حمى وغابت عن الوعي. كان ذلك من زمان، أمّا اليوم فراحت تتأمّل قبر أبيها المنصوب قبالة جبل لا تزال عليه مواسير خضراء حولها أشجار استوحشت فكثر فيها اليباس.

-66-

كثيراً ما كانت ابنة مريم تبكي عذابات أيّوبَ، لم يستطع الشيخان جدّها وأبوها إقناعها بأن الله كان على حق، رأت أن الله تواطأ مع الشيطان على أيوب، فقتل أولاده السبعة وبناته الثلاث، وذهب بجميع رزقه وأذاقه صنوف العذاب، لا لشيء إلاّ ليكسب الرهان أمام الشيطان، ليؤكّد لنفسه بعد أن زرع الشيطان الشك فيها بأنّ العبد أيّوب قابل للخضوع والصبر إلى ما لا نهاية

– ما معنى هذا الإيمان؟! ناطرنا حتى ندوّد ونذلّ ونشحذ.. وكلما انذل الواحد منّا وانسحق ومرض أكثر يحمد سبب مرضه وفقره وذلّه أكثر!! إذا كان قبول القهر والذل طريق الجنّة فمن الأبله الذي سيقاوم الشر على الأرض؟...الله يخلّيك يا شيخ، لا تحاول إقناعي بهذا الحكي...

– الصبر نصف الإيمان يا ابنتي! الصبر نصف الإيمان! ويبتسم الشيخ.

-67-

وكان الشيخ جدّ مريم لأمّها يفعل ما فعله أبوها بعده. يبتسم واثقاً من أنّ يوماً سيأتي تعيد فيه النظر بحساباتها مع نعيم قهر النفس وفضيلة قبول العذاب. ففي الخضوع كما رأيا راحة للنفس وطمأنينة. ونعيم الخضوع لا يعرفه إلاّ الذين سبق أن ساورهم الشك. كان رهانهما على الضعف الذي يزداد مع التقدم بالعمر وعلى الخوف الذي ينمو معه. فما إن يزداد الإنسان ضعفاً حتى يكبر إيمانه بالله. هكذا ظنّا. لكنهما أخطأا الحساب، فابنة مريم لم تكن تريد لنفسها حياة مديدة، ليس أكثر من خمسين عاماً. " الكبر يذّل الإنسان!" كانت تقول، ولم تكن تقبل وعداً بنعيم هناك على شقاء هنا. كانت ترى ما في السماء عبر الأرض وليس العكس. كانت الأرض عند ابنة مريم تقول بنهايات أخرى للخضوع غير ما يقول به الشيخان.

-68-

حكى علي جاد الصغير لأمّه عن دونكيشوت مرّة فضحكت وراحت تهزّ رأسها، ثم انسدل الحزن على عينيها.

كان حساء العدس يغلي على نار الحطب في ذلك الصباح الشتوي، وكانت الريح قد جنحت بهوائي التلفاز نحو الأثفية المشادة في الهواء لصق جدار أبيض سوّده الشحّار مُشرعٍ نحو البحر. وكدت أقول الهواء الطلق، لكن للهواء الطلق معنى الحرّية والهواء لا يكون طلقاً مع الفقر. يكون ريحا أو يكون بلا أوكسيجين!

-69-

– رحمة الله عليك يا أبي، رحمك الله يا جدي!– خاطبت ابنة مريم الصورتين فيما راحت تمسح عنهما الغبار– لا أعرف من منّا على حق، ولا أستطيع قبول القهر ولا فهم لماذا ينتظر سبحانُه وتعالى حتى يناديه عبده أيوب " إنّي مَسَّني الشيطان بنصب وعذاب"، وكأنه لا يعرف، وكأنّه لم يراهن الشيطان على طاعة أيوّب! وكأنّه كان ينتظر نداء المسكين أيّوب ولا يعنيه عذابه، فطالما لم تطلب مساعدتي فلن أساعدك، ويقول له حين يناديه" اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب" أعرف.. أعرف أنّك تنتظر التتمة يا أبي "...إنّا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنّه أوّاب".

-70-

وكانت ابنة مريم مذ أخرجها والدها الشيخ من المدرسة انصرفت إلى القراءة نكاية برجال عين الغار الذين سخروا من سماح الشيخ لابنته بمجالسة الصبيان على مقاعد الدرس، ولم يلبّوا نداءه بإرسال بناتهم إلى المدرسة. وراحت تقرأ القرآن قراءة إثر أخرى..حتى إذا حفظت معظمه، راحت تبحث عن فكرة العدل فيه، فانتهت إلى ضرورة أن تبحث عنه في غير مكان، وراحت تسأل المعلّم كتباً أخرى. وكان يبتسم، مؤكّداً لها:

– لن تجدي ما يحقق العدل هنا!

– يعني، في قبول الظلم عبادة وإيمان، والتمرّد على الظلم ما فيه عبادة! وقبول الظلم مشكور؟!

– لا، ولكن ما كل طريق نحو العدالة عادل.. مقاومة الظلم بظلم تنتهي إلى فظائع!

– يعني، أنت مع أهون الشرور.. مع الطاعة والخضوع.. مع وعود سماوية تشلّنا على الأرض، وتحوّلنا إلى عبيد !

– لا، لا تظلميني يا ابنة الشيخ، لكن الطريق طويل والعمر قصير! أعرف أنّ هذا الكلام لا يعجبك، وأنا مثلك لا يرضيني السكوت على الظلم.. لكن الحي أبقى من الميت..

– الموت أفضل...

– لا تقوليها!

-71-

كان أصحاب البساتين المحيطة بالمزار يرجون أن يكون للجيرة محل هنا أيضاً. وكان عيسي يرى في المزار مكاناً يتسع لكل ما يخطر بالبال. فالمهمّ أن لا يتزعزع يقين الرجل فيه. ولم تكن ابنة مريم تعنيها في شيء علاقة عيسي، قريبها البعيد من جهة الأم، بالمزار. فهي على سجال دائم وليس مع الأخير. فكيف يكون السجال دون ردود؟ هذا ما يعرفه من لم يتملّكهم اليقين!

وما إن ينصرف عيسي حتى يرتسم الأسف على وجه المعلّم فيعاتب ابنة مريم على غمزها من قدرته، عليه السلام، على المساعدة في جني الزيتون، ورفع العناء عن كواهل المتعبين:

– لا تسئ الظن فيه، فهو يعرف أنني أمزح، وأنا أعرف أنّه لن يقطف الزيتون معنا ولن يعصر الزيت حتى لو فطسنا ألف مرّة، ولن يقول لنا غير الذي يقوله المشايخ: ثوابكم بالآخرة.. خلاص، كرمى لعينيك بالآخرة، الله يخلّيك خلّني اشتغل، روحي كلّها غضب وكفر. ثم صمتت، وعادت عبر أولادها إليه:

– بجيرتك يا خضر، أنت تعرفني أكثر من كل الناس، تعرف أنّ قلبي معك، لكن روحي لا تقبل الظلم وعقلي لا يتوقف عن السؤال!! ولو أنّك قصفت عمري من زمان لكان أريح لحبيبك المعلّم وللأولاد الذين لن يروا بحياتهم غير الشقاء! قوموا ارقصوا يا أولاد ولا تصيروا مثل أمكم..أكلها الهمّ، ولبستها لعنة الشك...

-72-

لم يكن أهالي عين الغار يأتون إلى المقامات توسلاً لشفاعة عند الله. إنما الرجاء في الأخضر ومبتغاه ومنتهاه. ولم تكن علاقة الله بأصحاب المقامات تشغل بال مقدّمي القرابين. فعين الغار، محمّية وأهلوها بالسنديان العتيق وقلبه المكسو بالأخضر. ولمزقةٍ منه، ما ليس للأزرق البعيد وإن قَرُب منه الماء. والماء عند ابنة مريم، يتطهّر بالغار والريحان قبلما يصير إلى الجسد.

كان المعلّم يأتيها بقطفة غار وباقة ريحان كلّما قادته صلواته إلى (المنزلة) أو (جبل الصنوبر)، وكان على الماء أن يأرج بهما قبل أن ينسكب على أجساد الأولاد الشاحبة المستترة عن عيون البشر بعيون الشجر والسماء. وأما المطر فكان ينسكب في الروح. وكان (الجب) حيّاً لا يزال.

-73-

وكان تنزّل اسم (كل الناس) على زيتونة خرجت منها أربعة أغصان إلى أربع الجهات. وكان الأخضر فيها حيّاً لا يزال، حين جلست ابنة مريم تحتها، وانتقلت من الحزن إلى الضحك فجأة، وقذفت المعلّم بحصاة صغيرة كأنما تدغدغ خاصرته قائلة:

– يلعن والد الفقر، حتى الأهل بسببه يتقاتلون على أتفه الأسباب! كيف لدغة الحيّة؟

– لن نتقاتل، لا على حيّة ولا على مليون عقرب لا تخافي.

وذات رمادٍ طغى على أخضر الجبال، رفعت جرّافة جذور (كلّ الناس)، وأنّت فروعها وتكسّرت قبلما ينهدّ جسدها على الأرض وتُجرّ إلى النار.

-74-

وركض عزّوز المجنون، ممتطياً فرع زيتون بدل القصبة التي اعتاد ربطها إلى عنقه بحزام عريض، ركض في شوارع عين الغار، يقهقه ويبكي، ويصيح:

– الله الله يرحمه.. الله الله يرحمه..

– يرحم من يا عزّوز؟

– يرحم العيب! أجاب عزّوز

-75-

هوب.. هوب! وتوقّفت كاترينا المتمهّلة الخطو نحو موتٍ في عين الغار، ومع توقّفها تردد صوتٌ أجفلَ علي جاد الصغير:

– أين كنت؟ أبوك مات!

جاءته الكلمات كالصاعقة، في مقعد البوسطة الذي شاركه فيه رجل مدمن على قراءة الجرائد وعلى أشياء أخرى.

-76-

كان الركاب إلى عين الغار يخفون عن (قزّيطا) جرائدهم التي اشتروها إمّا لتمضية الوقت في الطريق أو لقراءة صفحة عن جريمة قتل ما، وأملوا بحملها إلى زوجاتهم ليتعظن خاصّة إذا كان للقتل علاقة بألاعيب النساء وعشقهن الممنوع. كانوا يخفون الجرائد عنه، فلم تكن لتكفه جريدة (البعث) التي توزّع مجاناً في مبنى البلدية حيث يخدم، ولم يكن بمقدوره دائماً ضمان الحصول على نسخة مجانية من جريدة (تشرين) أو (الثورة)، فما إن يجدها في يد أحد ما في البوسطة حتى يختطفها منه للحظة تطول حتى زمّور الوصول إلى (عين الغار).

– لحظة.. درها صوبي لو سمحت، ما هذا الخبر؟ هاتها دقيقة واحدة!! ويستسلم الراكب، وتسحب منه جريدته في وسط عبارة يقرؤها، ويغادر الحافلة دونها، خاصّة إذا كان من ركّاب الطريق. وينتشي قزّيطا ضاحكاً للجريدة التي استقرت في حضنه، ويبدأ بقراءة الصفحة التي تنشر فيها نعوات الرجال الفاضلين والنساء الفاضلات. الجميع يصبحون فاضلين بعد الموت. ويقرأ قزّيطا بطاقات شكر للأطباء على عمليات جراحية أجروها لمرضى موثرين، وإعلانات مناقصات لمجارير صرف صحي، وشبكات كهرباء ومياه، وتدشين مدارس ومداجن ومباقر.. ويقرأ الرجلُ الأبراجَ أيضاً، ويقرأ صفحة التتمات. فإذا ما أعجبته نهاية موضوع، بحث عن بدايته. ويبدأ بحلّ الكلمات المتقاطعة، وغالباً ما يكملها في البيت.

–77–

ويخرج الأولاد إلى شوارع عين الغار، ويصيحون:

– اعطونا تمر وخذوا النَمر! جرائدنا تعطي تمر وجرائد قزّيطا حبر.

كان خبر اكتساب الرجل لقب قزيطا قد انتشر انتشار النار في الهشيم، فقد استيقظ الرجل على فقدان اسمه وعلى صراخ الصغار، يرفع أكبرهم سعفة نخيل، يسمّونها في عين الغار (جْريدة)، وبها يزيلون أعشاش العناكب المنصوبة في الزوايا بين الجدران والسقف. يخافون العناكب ناسين كم تريحهم من بعوض وذباب.

وأمّا النمر، وكان من بين أوائل تلاميذ المعلّم الذين غادروا المدرسة إلى العسكر، فجاء عند الصغار لضرورة القافية. وكان الصغار، قبل أن يصفع النمر ابنه سعد على مرأى من عيونهم، يحبّونه، فقد كان يأتي لزيارة المعلّم إلى المدرسة ويأتي بأقلام رصاص ودفاتر، راجياً معلّمه تقديمها للأوائل، أقلام ودفاتر من لبنان لم ير صغار عين الغار مثلها من قبل.

–78–

وبعد أيام، وكان جاء في إجازة يمضيها في دفء امرأته، استيقظ النمر محزوناً لِما سمعه عن هتاف الصغار. فترك ما اشتراه من دفاتر وأقلام في البيت. واكتفى بسلامٍ جاف على المعلّم، ممزوج بعتب على عدم تأنيبه التلاميذ. وشدّ ابنه سعد من أذنه متسائلاً عن اللحظة التي سيغدو فيها رجلاً يدافع عن أبيه. وبعدها، خرج إلى السطح فرأى كتابة بالطباشير الأبيض على بطانيتين رماديتين نشرتهما امرأته على منشر أسود اقتطعه من كَبْل هاتف عسكري

– سامحنا يا بوسعد، يا شيخ الشباب، نحن منحبّك وما قصدنا نزعّلك، لكن القافية بنت كلب.

-79-

هوب.. هوب! نظر قزّيطا، العائد من المدينة باكراً على غير عادته، نحو ابن المعلّم بأسى وعاد إلى كلمةٍ مؤلفةٍ من خمسة حروف بدايتها فاء والحرف الأوسط فيها عين. لم يجد من المناسب أن يسأل الشابَّ، خاصّة مع صدمته بنبأ الموت، عن الكلمة المطلوبة.

تمنى علي جاد الصغير أن يكون قزّيطا هو المقصود بخبر الموت، لكنّه تذكّر حكايات أمّه المتكررة عن يتم قزّيطا المبكر وأخويه من الأبوين. فقد قضى أبواه بمرض السل ولم يكن قد تعلّم أخوه الأصغر الإعلان عن حاجته إلى التبوّل بعد. بعد ذلك، تعلّم التبوّل في كل مكان، دون بذل جهد كبير في إخفاء إحليله، وعلّمه لولده الوحيد بطريقة خاصة، بقيت رائحتها على قميص علي جاد الصغير، حتى عاد إلى أمّه ذاتَ يومٍ من تلك الغرفة الصغيرة التي تخاط فيها الملابس للعساكر والطلاب.

-80-

كان علي جاد الصغير قد جلس على كرسي من خشب التوت بانتظار أن ينتهي أخو قزيطا من درز سرواله الخاكي، وإذا بعينيّ الخيّاط تضحكان وتنحرف الدرزة مع انشداد نظره إلى هناك، ومع نظره تنحرف يداه. لو لم يلتفت علي جاد لمعرفة سبب الفرح المرتسم في عيني الخيّاط، لجاءته ترعة البول في موضع أقل إيذاء. صفّق أخو قزّيطا لصغيره الذي كان قد اعتلى الطاولة التي يقصّ عليها الخياط القماش، ورجا زبونَه، مقهقهاً، أن يخرج إلى برميل الماء، فيغسل وجهه وقميصه بالماء وبصابونة مطبوخة من زيت الزيتون. وخرج علي جاد الصغير إلى الماء، فيما عانق أخو فزّيطا صغيره لحمايته من قبضةٍ كانت قد ابتردت بماء البرميل.

-81-

وكان الرجل قد صار إلى قزّيطا بفضل من قارئ جرائد غريب، صعد إلى الحافلة ذات مرّة، وغادرها بعد مسافة لا تتسع لأكثر من قراءة مفاجأة من تلك المفاجآت التي تعدّها جهة ما ليصبح للورق معنى.

كان قزّيطا نظر وبدأ يقرأ خبراً سعيداً عن ولادة ياسر وعمّار وحسن وحسين، التوائم الأربعة الذين أنجبتهم امرأة شابّة من رجل مؤمن. هكذا جاء في الخبر. وفيما كان صاحب الجريدة مستغرقاً في قراءة خبر عن تسريح موظّفين في الدولة لأسباب تمس النزاهة، والدهشة بادية على وجهه، انتُشِلتْ الجريدة من يده دون استئذان كما بدا له، فقد فاته الصوت الذي يرجوه الجريدة للحظة. تلفّتَ الغريب إلى اليد التي سحبت الجريدة من يده، وهزّ رأسه ضاحكاً

– مبروكة عليك يا أستاذ قزّيطا، بحقّ الحبر الذي فيها، ما فيها غير الكذب! وبعد بضع مئات من الأمتار طلب توقّف الحافلة، وغادرها عند بداية درب ضيّق بين البساتين! ضحك من كان قد بقي من الركّاب في كاترينا، وهنأوا قزّيطا على اسمه الجديد.

– قزّيطا!– قال له رجل كان يخفي قزّيطته أو كما يسمّي الروس الجريدة (جازيتا)، بالجيم المصرية– بالله اسم على مسمّى.. الف مبروك عليك، يا أفندينا يا قزّيطا.

– شو يعني قزّيطا؟ سأل آخر، فأتاه الجواب من ثالث:

– يعني، شيء مبهدل!

–82–

ولم تكن (القزيطات) تتحدّث عن جرف بساتين الزيتون في عين الغار. وكانت الأقاويل قد سبقت الجرافات والانفجارات إلى الأهلين بأسابيع. في البداية، جاء أحد ما بسيارة بيجو عتيقة وشعر مصبوغ بأسود لمّاع جديد وسأل عن دار المختار. لم يطل مكوث الرجل اللامع الشاربين كثّهما، المستدير الوجه أسمره هناك. فبعد أقل من نصف ساعة كانت كافية لرشفة قهوة، ركبا سيّارة البيجو العتيقة وانطلقت بهما نحو مقبرة بيت بومسعود، وهناك توقّفا، وراح المختار يحرّك يده راسماً خطوطاً ودوائراً ومثلّثات وغيرها من الأشكال الهندسية في هواء الجبل، فيما عيناه تتنقلان بين جهتي الجبل المنكشفتين عليهما من هنا، وإلى السفح الشمالي اللامرئي منه. وكان المختار، بين حين وآخر يُنقّل نظره من جهات الجبل وخضرته وبياضه إلى حذاء زائره اللماع، وإلى كرشه المستديرة التي تحجب ما يتدلى أسفل البطن عن صاحبه. فهم الرجل الحاذق أن عيني المختار تتساءلان عن إمكانية الصعود إلى هناك، وتوفير كل هذه الشروح عن بعد. فهناك، على أرض الواقع سيخبره لمن هذه الرقعة الصغيرة من الأرض البائرة، ولمن هذه الأشجار المهملة التي يأكل جذوعها الشوك، ولمن هذا البستان الذي يبدو كأن أرضه كُنست بمكنسةٍ ربّة بيت لم تبق على حصاة أو وبرة، وتمايلت جدائل أشجاره الخضراء كأنّما الحليب كان شراب أمهاتها وليس الماء، ولمن ذلك الدغل المحصور بين مصطبتين، ولماذا سيكون أكثر فائدة شراء هاتيك النتفتين، وكم من أراضي أملاك الدولة محجوبة عن عينيه، ولمن هذه الحصة وتلك وتيك، وما طبع أصحابها وورثتها وما وضعها القانوني، وأين أملاك الوقف وأين أملاك المزار، ومَنْ مِنَ الأهلين يبيع بسهولة ومن بيعه أصعب من قلع الضرس، ومن لا يبيع ولا يقبل سماع كلمة واحدة عن إمكانية بيعه لأرضه. وسمع ذو الصباغ الأسود كلمات لم تعجبه:

– المعلّم، لا يقبل بيع أرضه بأي شكل من الأشكال!

-83-

هوب.. هوب! ومع سماع "أين كنت؟ أبوك مات!"، التفتَ من أمام قزّيطا إلى الخلف رأسُ العطّاسِ ذي الشاربين الحمراوين. كان علي جاد الصغير، قد شهق وغصّ بشهقته على غير إرادة منه حين سمع نبأ موت أبيه. كان العطّاس يحشو أنفه بالنشوق، فجعلته المفاجأة يعطس قبل الأوان. ولا بد أنّكم تقدّرون ماذا يعني أنّه لم يلحق أن يتدارك عطسته بالمنديل. كانت عينا علي جاد الصغير اللتان جاءهما من رذاذ العطاس ما جعلهما تزدادان حمرة على احمرارهما، كانتا مشدودتين إلى الجهة التي جاء منها الخبر.

- أبوك مات!

-84-

ومن أرضٍ ليست للبيع والشراء، ظهر تخم سنديان تختبئ خلفه فتحة مغارة. كان المعلّم لا يزال يحفر المغارة ويوسّعها، منذ زرع أوّل زيتونة، استعداداً لاحتلال الاسرائيليين هذه الأرض. لم ير المعلّم ما يبشّر إلا بمزيد من الاحتلال. ومن أجل ذلك، رأى أن الجبال قد تحمي أهلها يوم يأتي الغاصبون من جهة البحر. ولم يكن على استعداد لتقبّل فكرة أن يسمح لهم (الخضر) باحتلال أرضه. ومع ذلك فقد حفر المغارة تحت صحن المقام، ودعّم مدخلها وسقفها الواطئ، في بعض المواضع، بجذوع سنديان مأخوذة من أطراف الأخضر الذي رفعت عليه الدنيا بعناية وإتقان. رأى المعلّم أنّ أرضه والمقام يقومان على راحةَ يد مبسوطة، تبتسم كلّما سُئلت عمّا إذا كان يتعبها رفع الخضر والأخضر كل هذه الدهور.

وبين أصابع اليد البيضاء والطبق الأخضر المرفوع إلى السماء، راح المعلّم يحفر ملجأ لأهله. رأى المعلّم في ذلك فرصة نجاة إضافية إذا ما جاءت قذيفة إسرائيلية من مكان ما!

- المعلّم لا يقبل بيع أرضه! لا تحاولوا!

- هيّنة.. هيّنة بجاه الحبيب، ما فيه أحد إلا يبيع.. لكل واحد سعره وطريقته، والمعلّم ما هو إلا من البشر..

-85-

وذات قيلولة، ومع سماعهم هدير طائرات في سماء عين الغار، خرج الأولاد وراحوا يصيحون، فيما عيونهم تبحث عن مصدر الصوت:

- طيّارة طارت بالجو، فيها عسكر فيها ضو، فيها ابراهيم هنانو، راكب ع ضهر حصانو. واهتزّت الأرض وفرّت الحمائم عن الأسطحة وراحت تطير على غير هدى. وأصدرت الكلاب أصواتاً غريبة بين عواء ومواء وصوصأة ونباح. واهتزّ زجاج البيوت، قبل أن تغادر الطائرات

الإسرائيلية جبال الصنوبر والزيتون نحو الغرب، بعد أن اخترقت جدار الصوت فوق بيوت الأهلين. لم تقذف تلك المواسير الخضراء بيوض الأفاعي إلى السماء، استجابة لنداء زجاج البيوت.

-86-

وغير بعيد عن كهف المعلّم، كان تتزّل اسم (يا إلهي!)، على شجرة شامخة الرأس، ثخينة الجذع. هذه الزيتونة كان علي جاد الصغير قد أدرك أباه المعلّم وقد فرغ من تقليم فروعها واتجه إلى الرأس.

– اتركه، لا تقصّه الله يخلّيك! قال علي لأبيه وقد لمح ترددا في حركة يد المعلّم الممسكة بالمنشار..

وكان قد ارتسم أمام عيني علي جاد الصغير عنق علي بن الحجّار. وكان الأخير، يخرج بعنقه النحيل، كلَّ غروب، إلى حافة السفح متفحّصاً الدربَ المفضي إلى المقلع بانتظار أن تلوح قامة أبيه الجافة، في الجيب المنفتح على الضوء الآتي من جهة البحر، قبل أن تهبط العتمة وتبتلع الدروب. كان علي الحجّار يبكي إذا ما حلّت العتمة ولم ير أباه. تخيّل علي جاد ذلك الفرع الذي تمسك بعنقه قبضة المعلّم يستنجد به. وبعد الرجاء، انسل علي جاد من تحت ذراع أبيه، واتجه إلى المقام الذي يبعد بضع مئات تربو على الألف من خطواته الصغيرات، وهناك، شعر بدبيب في يديه يقودهما إلى الثوب الأخضر. فأخذ منه مزقة، ومن جيبٍ في الجدار استأذن أخذ حبتين من بخوّر، عقدهما في طرف (الخلعة). وخرج عائداً إلى البستان. وفي الطريق، قفزتْ قبّرةٌ، وانسلت أفعى مُخلية دربه باتجاه الدغل.

-87-

عاد علي جاد الصغير إلى البستان، بعد أن ابتسم للقبّرة وانتظر عبور الأفعى، وكان المعلّم قد انتقل إلى شجرة أخرى، فتسلّق الرأس الذي كانت قد خدشته شفرة المنشار، ومن هناك صاح (يا إلهي!)، وأحاط ذلك الجرح بضماده الأخضر. وبعدها، بعدها اشتد العنق وقوي الرأس، فراح علي جاد يتسلّقه، كل عام، ويرفع عنه وزر الزيت إلى أن هدر الحديد تحته وراحت تلتهمه ألسنة النار. وبقي كرسي علي جاد الصغير معلّقاً في الهواء.

-88-

وذات فجر بَزَغَ عن قطافٍ، قالت ابنة مريم:

– خلّونا نبدأ من زيتونة (يا إلهي)، من يقطف الرأس؟ – ونظرتْ نحو ابنها علي الصغير، أنْ اصعدْ ولا تنزل قبل أن تنجز عملك – يا إلهي بارك شغلنا! وكانت ابنة مريم تدعو في الفجر أن يكون الموسم وفيراً والعمل مثمراً، على غير ما تدعو في العصر، فكيف إذا حلّ الشفق وزال به الغسق! وكان راجي العائد من دوريّةٍ هنا ودوريّة هناك، يصعد ساعة العصر إلى بستان أخيه المعلّم، وهنك يشدّ من أزر المتعبين، ويقطف معهم من الحب ما لا يصعب إحصاؤه. وفي عصر ذلك اليوم، رأى الخلعة على رأس الشجرة، فابتسم لعلي جاد..

– هذا أنت يا علّوشي، ضيعانك يا ابن أخي! وكان يفرحهم مجيئه، ومع حلول العتمة، ينزلون، هم إلى دارهم وهو إلى خمّارة سلّوم.

–89–

وكان راجي قبلما قبضت يده على كأسٍ، رأى من خلال زجاجها المخضرّ عالماً لا يعود منه الناس، كان يجلس في حانة سلّوم لحظة انسدلت العتمة أمام عينيه، فنهض وطلب ألفيّة من عرق التين، وطلب، بنبرة لم يألفوها فيه من قبل، من أحد سمّاره أن يقف ويرفع الألفية بيديه فوق رأسه. بات على مسعود أن يمتثل للأمر. توجّس مسعود شراً في أمر راجي. كان مسعود بالأمس قد نعت راجي ب" مسطول يطعمنا على حسابه كل يوم!"، وكانت خالات راجي قد عيّرنه بما قال مسعود عنه، وكانت أمّه قد رمته بحذائها لحظة خروجه من البيت، فطار الحذاء الصغير العتيق صوب فتاة انتظر راجي مرورها وقطف وردة من أجلها. أصاب حذاء العجوز صدر الفتاة.

– قف وارفع الألفية فوق رأسك! وكان مسعود خلاف الآخرين الذين يصدف أن يتغيّبوا أمسية أو اثنتين في الأسبوع، لا يغيب عن مائدة راجي يوماً، وكان ينهض من تلقاء نفسه ويتساءل متلهّفاً

– حسب علمي، حلّ وقت شوي اللحم!؟ ويجترع كأساً ويضحك.

– ممتاز، إيّاك أن تتزحزح! قالها راجي محرراً المسدّس من حزامه. ودوّت رصاصة وتفجّرت الألفية واندلق ما فيها من عرق مع الزجاج على وجه مسعود وعينيه! ووقف الآخرون مذهولين، وحاولوا قول شيء ما، لكنّ راجي رفع يده، سادّاً الطريق أمام من اعتادوا الجلوس إلى مائدته، واجترع صامتاً كأساً ملآنة دفعة واحدة، ثم طلب أربع زجاجات من صنف براندي محلّي الصنع رخيص يحبّه أخوه سالم ساكن الدار. رجاه أصحابه كلمة، فقطع عليهم القول متوجّهاً إلى مسعود وعبره إليهم:

– العقه عن الأرض، راجع بعد دقائق، إيّاك أن تبقى قطرة واحدة على الأرض! وإلاّ فإني، وعزّة العرق، أحشو مؤخرتك بالبلّور المكسّر! وخرج دون أن يلتفت إلى الخلف، وخرج وراءه

صبي الحانة حاملاً الأربع الزجاجات على صدره، في كيس مصنوع من ورق الإسمنت الملصوق بالعجين.

-90-

وهناك، صدر صوت خبط أبواب، ولعنات تلاشت في ظلمات غرفة الخالات. وضع راجي الزجاجات الأربع متلاصقة على سور بيت أبيه الذي آل إلى أخيه، ومدّ مسدّسه نحو الصبي:

– تراجع ثلاث خطوات وقوصها..رصاصة لكل واحدة، يا الله يا بطل! كان خلف الزجاجات ثلاثة أرباع جدار غرفة خالاته الثلاث، وكان الربع الأخير للباب المفضي إلى بهو البيت، وكان على الرصاصات أن تترك أثرها هناك. وزمّ راجي عينيه ثم صعّر خده، ساخراً من صورة حبيبته ناهلة المرتسمة في ذهنه. كانت ناهلة قد نظرت نحوه نظرةً محيّرة فيها من العطف أكثر مما فيها من الحب، قائلة:" أنت رخو!"، ثم استماتت في الاعتذار. ذرفت كثيراً من الدمع، طالبةً الصفح عن كلمة لم تكن تقصدها. استحلفته تصدّيق أنّها أرادت أن تقول:" أنت طيّب أكثر من اللزوم!" فدفعها عنه ومضى عنها. قال راجي للصغير.

– امسكْ المسدّس بقوّة، باليدين، وإذا شعرت بثبات يدك، قوّص! الرصاص يجعلهم يحبّونك ويحترمونك، تعلّم إطلاق النار وتذكّر أنْ تنتقم من كل واحد يحتقرك، ولا تنس قوة النار.

-91-

وكان راجي يضع كرسيه في غرفة صف أخيه المعلّم بالقرب من السبّورة ويبتسم لنا، وكان يحب رسم الغزلان، وكان المعلّم يرجوه أن يرسمها لأجلنا في حالات اللعب والفرح والحزن والخوف والقيلولة، وكان لا يجلب مسدّسه معه إلى غرفة صفنا، بل يجلب آلة العود وينشد معنا الأناشيد. وكنّا في الصف الثالث، نقتسم الغرفة ونقتسم زمن الدرس مع تلاميذ الصف الخامس، وكنا جميعا نحلم بأن نصل إلى الصف السادس. " بالصف السادس بْ تطلع شواربكم!" قال لنا الأكبر منّا. وقالت البنات الأكبر للأصغر منهن شيئاً عن الأثداء. وقال المذياع لهاجري غرفة المعلّم شيئاً عن فلسطين. وخمّن علي جاد الصغير أنّ عيني عمّه راجي المغمضتين تقولان له:

– لا تفعل إذا طلب منك أحد ما أن تحب رائحة شحم السلاح والبارود، ولا تصدّق إذا قالوا لك إنّها أجمل من رائحة الورد. لو أننا زرعنا الورد لكنّا حرّرنا فلسطين! ولا تصدّقني أيضاً فأنا أهلوس هلوسات ما قبل الموت! وقل لأبيك أن لا يموت من أجل أرضه. فأنا الآن أدرك أن لا شيء يستحق أن تموت من أجله، كما لا شيء يستحق أن تعيش من أجله!

-92-

وذات مرّة، زَلَّ لسان المعلّم فقال لتلاميذه:

– كثيرون باعوا أراضيهم! ثم توّقف، وجاءنا شعاعان من عينين احمرّتا للتو عبر حاجبين خرج شعرهما نحو نافذة مفتوحة، التحق ثلاثة من أبنائها بالجيش بعد أن اختبر الأهلون معنى أن يكون المرء عسكرياً مقارنة بأن يكون منزوع السلاح.

– من يَبِعْ، يُصعَّب على غيره التماسكَ والبقاء، ومن يقبل بمال مقابل أرض، تصبح القضية بالنسبة له قضية مال أقل أو أكثر. فمن يدفع أكثر يكسب المنافسة مع من يدفع أقل. ولا يهم من يكون هذا الذي يدفع أكثر!

-93-

وبدا كأن أحداً لم يعد يشغله دخول سيارات الجند إلى عين الغار وتجوالهم في ساحاتها، إلى أن خرج الأولاد وراحوا يصيحون:

– دود دود دود دود.. الداخل ضيعتنا مفقود، والخارج منها مولود..

-94-

وراح محرّك سيارة زيل يصدر أصوات انفجارات متقطّعة. وراحت أخشابها تصارع البراغي الصدئة على جانبيها، فيما هي تنحدر من خربة علي جاد نحو " الباطوس ". وكان الراعي قد مات، تاركاً النعاج لأمّه العجوز. لم يكن بالسائق ومرافقه حاجة للمرور في هذا الطريق. كانت الرغبة في رؤية نساء عين الغار يكنسن دورهن في الصباح، دفعتهما إلى المرور. وكان عسكريٌّ التحق بالجيش نكاية بأبيه الشيخ وقف على باب الدار. كان الشيخ استحلفه بالإمام بأن يصبح طبيباً، ولمّا كان أراد أن يدرس الهندسة، لم يحلف. وتكاسل في دروسه. وكان في الصف الحادي عشر لا يزال.

قرّر غازي ابن الشيخ أن يرسب في البكالوريا أو ينال من العلامات أقلّها وراح يتظاهر بالدراسة ويصمم أسلحة أراد الهندسة من أجلها. كان مقتنعاً تماماً بأنّه لا بد من وجود طريقة لإلغاء الأكسيجين في منطقة ما، ولو لبضع دقائق، تكون كافية لقتل جميع الأحياء. وكان مؤمناً بأن الله خصّه بهذا السر، وأنّه واقع عليه لا محاله. ورسب في البكالوريا، وتعاقد مع الجيش. ومرّت سيّارة الزيل، وكان غازي يتمطّى على عتبة الدار، فيما مسدسه يكاد يسقط من جيب بيجامته. وأطال الجنديان النظر من السيارة إلى صحن الدار، حيث زوجته الشابة تنشر منشفة الحمّام في قميص النوم...والتفت (بوحرب)، هكذا كانوا يلقبّونه في عين الغار، التفت نحوهما، ثم بسرعة البرق إلى زوجته، وأخرج المسدّس من جيب بيجامته، وركض وراء الزيل حافياً، وراح

يطلق النار. لحسن حظ أحد ما، لم يكن المنعطف بعيداً فقدت اختفت السيارة وراء زاوية بيت أبيه الشيخ. فعاد مصمماً على أن يلقنهما درساً لو تجرآ على العودة إلى عين الغار. وعاد غيرهما وكان غير بوحرب بانتظارهما. كان بوحرب أخاً شقيقاً للشيخ عاكف الشاب أسود العينين الذي سيبلي بلاء حسناً، في مقتل بوجلال.

-95-

لم يذكر المعلّم للمحامي حين زاره شيئاً عن بيع الأراضي هناك، من حيث عاد والده الشيخ بحربة منزوعة عن بارودتها الأم. البارودة دون رصاص، عبء على جريحٍ جيشهُ مهزوم. ألقى الشيخ بالبندقية وعاد بالحربة من هناك. وبعد اندمال الثقب الذي خلّفته الرصاصة في عضلة الفخذ، وانفتاح أرض البيّارات على جرح نازف مديد، استبدل الشيخ بالحربة مسدّساً لامعاً وبزة شرطة، وشغل غرفة في حي الشيخضاهر، يدخلها الهواء القادم من فلسطين، عبر نافذة صغيرة لا يُرى منها سوى فلّة زرعت في علبة تنك وشتلتان من حبق. وآلت الحربة إلى ابنه.

-96-

وقف الشيخ على رِجله غير المصابة بانتظار رصاصة تحوّله إلى شهيد، بعد أن عجز عن الهروب وعجز عن القتال. لكن الرصاصة لم تأت. واليهود الذين قتلوا رفاقه وجرحوه، انكفأوا إلى غير مكان، خوفاً من القتلى الأحياء. كان المعلّم آنذاك يتعقّب تحوّل الزغب النامي أعلى شفتيه المكوّرتين إلى شعر أسود حقيقي. وكانت أمّه سكيبة تعضّ أصابع يديها لتوقف ارتجاف اليدين المصفرّتين، وتصلّي من أجل أن يعود المقاتل، ليس إليها هي التي هجرها منذ سنين، إنّما أن يعود حيّاً من الحرب. كانت على يقين من أنّه لن يعود إلى فراشها بعد ذلك الليل الذي سرقته فيه إلى جمراتها تلك السمراء الحَرِكة كمثل جنّية تخبّئ نارها تحت الجلد. فدخول ليل تلك الجنّية، كان يعني الخروج من ليلها هي المتورّمة المفاصل على صغر، السمينة على غير امتلاء. وكان يُعرف عن الشيخ قوة في ثلاثة أشياء: الشعر والأسنان والباه، إضافة إلى نظرة قِيل إنّها تسقط الطير من كبد السماء. وكان المعلّم يشبه أباه في كل شيء بما في ذلك حب السمراوات. وكانت ابنة مريم بيضاء، وكانت عيناها اللوزيتان بلون الفرح والحزن بين ماءين: السماء والبحر.

-97-

وفيما كان الشيخ يقرأ جرحَه، كانت جنّيته السمراء قد ألفت غيابه، وكانت أختاها ساكنتا دارها قد رأتا في ذلك أمراً لا يستوجب الحزن. فالرجل أدّى دوره وأنجبت منه أختهن صبيّين. لكنّ موته قبل نقل أملاكه لها ولولديها، سيعني أن تنال سكيبة وأولادها نصيباً من الإرث. وسيكون ذلك

موتاً على موت. وكان راجي لا يزال صغيراً، ولم يَكُن قد نال كرههن بعد.. وضحكن من حكمة القدر في أن يفقدن أزواجهن هن الثلاث الأخوات الملتحمات بوشائج أقوى مما تبدو عليه أيّة أخوّة في هذه الديار.. أن يترمّلن على أجساد تستصرخ الفحولة، لكن أينها واحسرتاه!!

تنادت الأختان وراحتا تندبان حظّ أختهن التي لم ترتو بعد، وتستحضران الدمع على ذكر الشيخ الشاب، الذي يجب أن يكون قد مات دون ما في ظهره من ماء لها، هي العاثرة الحظ كمثلهما.

– هنيئاً لك يا أرض فلسطين! قالتا معا بتوافق عجيب على غير انتظار. وانقلبتا من الضحك، وراحتا ترفسان أختهما الباكية التي سرعان ما غرقت في موجة الضحك معهما، إلى أن استوقفتهما:

– ما هو ميت! وراجع لي مثل الحصان، و.. أنا شعرانة بقرب رجوعه.

– وأنت يا أختي – قالت الأكبر بينهما– شعرانة برجوعه من فوق أم من تحت!؟

–98–

وحدها سكيبة صلّت من أجل عودة الشيخ من الحرب، وخرجت، من أجل ذلك، بالبخور إلى مقام (العجمي) القريب. فقد أمسك الوجع قدميها عن تسلّق طريق (الخضر) ساكن الجبال. ومن مقام العجمي، راحت تسأل الخضر شفاعةً وعوناً. وتستميح العجمي عذراً لثقتها بأنّه هو أيضاً يؤمن بتفوق الخضر عليه بالقوة والسلطان في السماء.

–99–

وكان الأولاد قد عادوا من الساقية، بعد أن خرّبوا من الأعشاش إثنين وثلاثين. كانت أفعى قد أعادتهم إلى دُور أهليهم قبل أن يأتوا على الثالث والثلاثين. رآها كبيرهم تبتلع آخر البيضات هناك، فانحدر عن شجرة الحور محطّماً في طريقه الفروع الصغيرة، ممزّقاً قميصه السماوي نحو جروح صغيرة نازفة. وفي علبة من الخشب كانت استُخدمت للفواكه المجفّفة، رقدت بيوض العصافير المخرَّبة أعشاشها. كانت علب الفواكه المجفّفة توزّع على أسر الأغنياء في الأعراس، وكانت المناشف والبشاكير توزّع على بيوت الأفقر فالأفقر. وعلى أبواب عين الغار، ندم الصغار على العودة بالبيوض. كانوا قبل هذا اليوم يتراشقون بالبيض ثم يغتسلون بماء الساقية. وكانوا يعلمون بمخبأ صابون زيت الزيتون المعطّر بالغار، الذي تستخدمه النساء للاغتسال هناك. وكانوا حين يختلسون النظر من وراء أجمات الرمان وأدغال القصب والدفلى، يعجبون لرؤية مثلثات سوداء أسفل بطون النساء. وبعد ذلك حين سألوا المعلّم عن الحاجة إلى الشعر هناك، أجابهم مبتسماً:

– حاجة جمالية!

-100-

وكان الطريق إلى العجمي لا يترك مجالاً لتتفادى سكيبة المرور أمام بيت ضرّتها. وكان احتمال أن تراها المرأة وأخواتها الثلاث ساكنات بيتها، الصبيّتان الأرملتان والثالثة البلهاء، كبيراً. ومع ذلك، خرجت سكيبة مخبّئة البخور في جيب فستانها الأبيض المزركش بزهرات صغيرة من ألوان باردة برودة يديها المرتجفتين. رأينها.

– رايحة لتبخّر العجمي وتدعو حتى يأخذنا الله وينجّيه! الله يأخذك ويأخده!! قالت ضرّتها.

– إذا أخذهن مع بعض، يا غبيّة، ممكن يتزوجها مرّة ثانية، أنت نفسك قلتي إنك شفتيه بالمنام وشعرت بأنّه نادم على تركها!! قالت الصغرى.

– لحظة.. لحظة! خلّوني أطلع معها، وأفسد لها دعواتها. قالت الكبرى، مبتسمة عن حيلة خطرت ببالها، ورمت بصوتها في الظهر المعرورق المزهر:

– مرحباً يا قريبتنا! إذا كنا لا نستحق السلام، على الأقل ردّي سلامنا. بالله أنا مثلك رايحة عالمزار..خلّنا نطلع سوا! يمكن البخوّر الذي معك يكفي دعواتي ودعواتك. ولم تفعل سكيبة شيئاً سوى أنّها أبطأت الخطو وقالت في سرّها:

– صاحب المقام، قدّس الله سرّه قادر على فصل دعواتي عن دعواتها، ويعرف الشر من الخير، وسيدنا العجمي يعرف الظالم من المظلوم.

-101-

وراحت عينا راجي الصغير الذي بدأ يشخبط على الحيطان، راسماً أسماكاً ودجاجات وثعابينَ وقططاً وكلاباً وغيوماً ومطراً.. ولم تكن الحيوانات تختلف عن بعضها إلا بعلامات سيقول لك لو سألته أين تكون، راحت عيناه تلتمعان كمثل قنديلين يعكسان ضوءاً سحرياً لولاهما ما رأته عين. مسّدت شعره سكيبة بحنان، ودعت له:

– حماك الله! وكان سالم يغفو في هذه الأثناء بين الخالات، يسيل من فمه اللعاب.

-102-

هوب.. هوب! وذات يوم، بدا كأنما بوسلطان سها عن ركاب كاترينا، واستسلم لصورةٍ رَسَمها الطريقُ الرمادي ذو الجسد اللمّاع المتلوّي..فخيّل إليه أنّ ثعباناً عظيماً يأتمر بأمره، وأنّه يركب رأس هذا الثعبان ويتجه به إلى المدينة. راح بوسلطان يضغط على دوّاسة الوقود فيصدر الثعبان فحيحا مروّعاً. وراح الثعبان يبتلع الطريق متلهّفاً إلى المزيد. أثار شَرَهُ الثعبانِ إلى الإسفلت خوفَ الركاب فصاح أحدهم:

– هوب.. هوب! واستفاق بوسلطان وضغط على الفرامل فجأة، وانقلبت سلّة بيض. وبعد ظهر ذلك اليوم خرج الأولاد يصيحون:

– يا عصفوري نط نط، انكسر بيض عيون القط! وفرح الأهلون ورأوا في ذلك انكسار الشر في العينين الزرقاوين.

-103-

وكان (عيون القط) يفضّل العجمي على الخضر. كان يصيح في وجه امرأته التي لا ترى مزاراً يستحق أن يزار بوجود الخضر، يصيح ممتعضاً:

– عدّي معي، كم دجاجة وكم زيغة؟ وخاروف! وما لبى لي شقفة طلب.. بينما سيّدنا العجمي، من أوّل جدي، شفى البنت من " الخشونة".. الطبيعي، أكرم الذي أكرمني. روحي يا أختي زوري حبيبك الخضر واتركي لي حبيبي العجمي. وكان خرج بدجاجة ليزول الاحمرار من عينيه.

-104-

وفي مقام العجمي، صلّت سكيبة وأخت ضرّتها، في ذلك اليوم، من أجل عودة الشيخ حيّاً من فلسطين. سكيبة من أجل أن تراه مرّة أخرى في حياتها، ومن أجل أن يعيش لا لأحد إنّما لنفسه. وأمّا فقرها والعوز الذي تعانيه مع أولادها الثلاثة، فكثيراً ما صلّت لله من أجل أن يجد لهم طريقة شريفة لقهره. وأمّا الثانية، فصلّت من أجل أن يعيده الله حيّاً فيعيش حتى يتمكن من نقل أرزاقه إلى أختها وأولاد هذه الأخت. وبعدها ليفعل به الله ما يشاء فهو أدرى. وفيما انطلقت سكيبة برجائها من حضرة العجمي إلى الخضر، قَصَرت الأخرى دعواتها على صاحب المقام معاتبةً إياه:

– كأنّك لم تسمع دعواتي! بحظّي، عمرك ما لبّيت لي دعوة...يا عجمي يا صاحب القدرة، إذا كانتْ دعوات سكيبة ضدي وضد أخواتي، اقلب دعواتها ضدها وضد أولادها، وإذا كانت دعواتها لنا فاسمع منها ولك منّي أحلى ثوب أخضر!

ولم يطمئن قلب المرأة. وغادرت المقام بعد أن التفتت نحوه بنظرة مرتابة وعاتبة. انصرفت إلى أخواتها، ليستقبلن معاً سكيبةَ بما يخطر على بالهن. وقد يدعينها للدخول ويسألنها عمّا إذا كانت ترجو عودته. وكن على معرفة جيّدة بأنّها لا تجيد الكذب، وأنّها سرعان ما ستظهر الحقيقة على وجهها. وسيسخرن من احمرار خدّيها اللذين نادرا ما يحمرّان، ومن ارتجاف أصابع يديها التي كثيرا ما ترتجف، فلا يستقر كأس الشاي في يدها. ومع ذلك فسيكون مسلّياً أن ينتظرن عودتها.

وكان ذلك من زمان، وأمّا بعد،

-105-

فرأى الأولاد، في ذلك اليوم الذي جاؤوا فيه ببيض العصافير، أن يعاقبوا آذن المدرسة (بوخشبة) كما يسمّونه، نسبة إلى عصا خاصة مضلّعة مكسوة بالإسمنت، ولا تخل من مسمار مطعوج. كان الآذن ينسل الخشبة من عدّة أخيه المعمار ليضرب بها التلاميذ. كان الآذن ينام في علّية على سطح بيته المحصور بين بيتين آيلين إلى الانهدام، بأمر الزمن الذي يمكن قراءته جيّداً في حجارة الجدران وفي أخشاب السقف. وكان التلاميذ يعلمون أن الآذن لا يشعل مصباحاً في العلّية. وهي لم يكن فيها مصباح حتى يشعله. وأنّه كان يأتي من الخمّارة إلى عتمتها.

وعلى إحدى بطانيتين رماديتين جاءه بهما ابنه الذي كان غادر المدرسة إلى سلاح البحرية، على الرغم من حلم أبيه بجعله مديراً للمدرسة نكاية بالمعلّم، فرش الصغار البيض. وانتظروا في عتمة دار جيران الآذن العتيقة، حيث تبيت بقرتان وحمارة، سماع صوت دخوله العلّية. لم يفكّر الأولاد بمصير زوجته المسكينة. ولم يتذكّروا وجودها إلاّ بعد أن خرج الجيران لنجدتها. كانت الخشبة ذات المسمار بيده، وكان صفار البيض وبياضه يسيلان من بيجامته. لسوء حظّ المرأة، بدا له أنّها تتوعّده عصر ذلك اليوم. هي فقط قالت "بْ يفرجها الله!" حين شتمها على مرأى من الناس. ومنذ الليل الذي أعقبه، قلب الصغار اسمه من (بوخشبة) إلى (قرقة).

-106-

وضاحكت زوجةُ العطّاس امرأةَ الآذن، ولم تكن الأخيرة قد أجهدت نفسها في إخفاء الكدمات عن جسدها، بل راحت ترفع فستانها، وتُري النساء آثار الضرب على ظهرها، ضاحكتها امرأة العطّاس:

– شو يا أختي، قالوا قعّدتم قرقة كبيرة.. لا تنسوا توزّعوا لحم الشلافين على الفقراء! وانعقدت حلقة ضحك أمام فرن شيبان. راحت النساء تتخيل كيف تخرج الصيصان من مؤخرة الرجل!

-107-

ويومها، ضحك راجي، وجعل على مائدته في حانة سلّوم البيض وحده دون اللحم:

– بيض مسلوق وبيض مقلي وعجّة وبيض بثوم و(جظ مظ)، يا سلّوم، والذي لا يعجبه قعّده على بيضاتك! وحاول جابر التهرّب. وكان من جلساء راجي، وكان أكثر من عناه جلال بتحذيره راجي من جلساء السوء، أثناء اتصاله به من الشام. كان أحد أقرباء جابر يخدم في الوحدة التي

يخدم فيها علي بن سلمان. وكان الأخير يتألم ويحكي لجلال وفيصل ما يُنقل على لسان جابر من استخفافه براجي والسخرية منه ونعته بالأهبل مرّة والطائش مرّة أخرى.

– هات بيضتين، يا سلّوم!– ووضعهما راجي على كرسي جابر، بعد أن أمره بالوقوف– اقعد، وبعدها انقلع لبيتك! ونهض الثلاثة الجلساء الآخرون وأجلسوا جابرة عنوة على البيضتين فانكسرتا تحت مؤخرته، فنهض يَشتم محاولاً إزالة الزلال الدبق عن مؤخرة سرواله الجديد.

– يا الله! صار فيك تنقلع لعند امرأتك، وخلّها تشطف لك طيزك.

وكان راجي من صغره يكره البيض. وكانت أمّه تجبره على أكل بيضة كلّ صباح. وكان راجي الصغير يحلم بعودة أبيه ليخلّصه من أكل البيض المقيت.

–108–

وعاد الشيخ، من الحرب، حيّاً. ولم يكن في حديث المحامي، الذي كان واثقاً من قدرته على إقناع المعلّم ببيع أرضه، محلاً لتلك الحرب التي لم تنته بعد. وقال الضيف المفوّه الذي أسف لإصرار المعلّم على عدم بيع أرضه، موحياً له بندم سيعانيه عمّا قريب:

– والله يا أستاذ، قلبي معك، وغير لائق أنصحك وأنت الذي ينصح الناس، إذا كان هذا قرارك، كان الله بعونك! وانصرف المحامي لتناول الغداء الذي انتظرته عليه خمسة النساء، خالات راجي الثلاث وأمّه وزوجة أخيه سالم. وكنّ قد أعددن من أطايب الطعام ما يليق بقريبهن الضيف، الذي ليس لأحد أن يتعالى عليه بفهم أو جاه أو حذاقة أو مال. وأعددن كل شيء للرجاء الذي سيزرعنه في نفسه دون الإفصاح عنه. فهو سيتحمّس لما يستنتجه بنفسه وما يظنّه بالتالي من بنات أفكاره أكثر من حماسته لما يمكن أن يطلب منه مباشرة، وما قد يوحي بتلقين أو يشي بصيغة أمر، وإن تكن كيّسة إلا أنّ أكثر الناس يمقتونها. النسوة يدركن ذلك بفطرة لا أحد يعلم من أين تأتي. أم أنّ الغريزة والفطرة والطبع، تنهزّم أمام الباحث في سِيَر البيوت المخبّأة خلف الأبواب الموصدة ولكن ليس دون السؤال.

–109–

وغير مرّة، اتصل جلال براجي من الشام، وكان يناديه بالخال، ورجاه أن ينقل تحياته وأشواقه لأمّه ولأخته ولأخيه الصغير نضال الذي كان المعلّم لاحظ النباهة لديه وراح يرعاه، وأن يلقي للكلب بقطعة من دجاجة تكاد تحضر على مائدة الخال كل مساء. ورجا جلال الخالَ راجي أن يسلّم على أهل علي، وخصوصاً على أخته شمّا، وأن يوصل تحيات فيصل لأهله ولأهل علي. وضحك راجي، فقد فهم أن شمّا هي المقصودة بالتحية الأخيرة. وكانت شمّا تتحسر لأن راجي يغازلها لا أكثر ولا أقل من الجميع. ولذلك كانت تناكده، وتتظاهر بعدم رغبتها في مدّ يدها حين

يدعوها لتناول وردة من يده. ولكنّها ما إن كانت تمدّ يدها حتى يمسك بها ويحتفظ بها ما سمحت اللباقة من وقت.

– والله يا خال، الكلب أحسن من إنسان ناكر للجميل، وأنت أدرى من أقصد! يا خال البشر الذين حولك، مثل القرّاد على جسم الدابة حاشاك، ولا يستحقون السلام حتى يستحقوا ضيافتك وحبّك..الله يسامحك! لا توآخذني يا خال على التطفل، لكن ألسنة قليلي الأصل أوسخ، حاشاك، من الخراء! والله يا خال، إذا كان الإنسان عايش من دون روح، فالكلب أحسن منه.. أحسن من كل واحد شكله شكل بشري وروحه روح جقل. لكن أرجوك لا تلوّث يدك بأحد، إن شاء الله أنا راجع وحسابهم عندي.

– اتركنا من الكلاب وتعال يا جلال.. تعال ولا تتأخر أنا بانتظارك إذا قدرت.

وشعر جلال بضيق وحنين غريب بعد إغلاق الهاتف. انتابه شعور بالقلق من كلمات راجي الأخيرة. ومما ضاعف قلقه رؤيته الملازم المسرّح محمود يجلس في مقهى الحجاز من خلال زجاج كابين الهاتف. كان جلال يشعر بالشؤم حين يصادف الملازم المسرّح محمود، وكان يجتنب لقاءه. كان جلال يخاف على البللور القابل للكسر في روح راجي، وكان راجي يخشى أن يتحوّل جلال إلى قفصٍ للوحش، يتحطم تحت تأثير البشر فيخرج منه الوحش الحبيس. وكان راجي تألّم كثيراً للإهانة التي تعرّض لها جلال على يد أبيه على مرأى من الناس.

– ما معنى شوفة هذا المحمود النحس؟! تساءل جلال، ولعن الشيطان قبل أن يخرج من الكابين الملاصق لمبنى مديرية الاتصالات، ويبصق على الرصيف وينعطف باتجاه وزارة العدل.

-110-

وخرج ثور هائج، ورأى الناس الملازم المُسرَّحَ محمود يفرّ أمامه مذعوراً. كان لدى امرأة محمود ثوران وخمس بقرات. لسببٍ ما، لم يَرُقْ صاحبُ الدار للثور الكبير. كان محمود يتأفف في حضرة الأبقار. وكان ينفر من رائحة " لولاها لما شبع الخبز ". هكذا يقولون في عين الغار. وفي الوقت الذي كان يتباهى فيه بفحولته في الخمّارة حين يسكر، تجده في الصباح يفر من غضب زوجته، محاولاً تعويضها بعضاً مما أصابها من إحباط ليل أمس، بعملٍ هنا تأمره بإنجازه وعمل هناك. ونظر الثور نحو محمود المتأفف واحمرت عيناه. وفي لحظة لم يضبطها الرجل جيّداً، خرج الثور واندفع وراء مالكه المرتد إلى باب الحظيرة ثم إلى الشارع. وصاحت أوّل امرأة رأته، وكانت تلك زوجة الحجّار:

– قريضة.. قريضة تقرضكم، ساعدوه يا ناس قبل ما يقتله الفدّان..

– اتركيه، بْ يستأهل، خلّه يعرف قيمة الثور من قيمة البقرة!

– قصدك من قيمة المرأة!

-111-

وسمع علي جاد الصغير صراخ امرأة الحجّار. وعلى الرغم من أنّه كان سمع كلمة (قريضة) مئات المرّات، إلاّ أن ذهنه لم يربط قبلا بين كلمة corrida التي تعني مصارعة الثيران بالإسبانية، وقريضة التي تستخدمها نساء عين الغار أكثر من الرجال. وقرّر البحث، في غده، عن العلاقة بين مصارعة الثيران في حلبات إسبانيا وخروج الثيران الهائجة في عين الغار، وقريضة النساء! كان علي جاد الصغير يتملّى الذعر في عيون الثيران الموثوقة قوائمها حين ترى سكين الذبح، وكان يتمنّى لو أمكنه تحريرها وتركها تفتك بذابحيها. لكنّه لم يهتد إلى طريقة تجعله في مأمن لو فعل.

-112-

وكان اسم (قريضة) تنزّل على زيتونة، لم تكن ابنة مريم تدري أنّه سيسبب لها كل ذلك الحزن. فقد حزنت ابنة مريم على الزيتونة كما نحزن على قريب عند مماته، ونؤاخذ أنفسنا لأننا آلمناه في حياته. أسفت ابنة مريم على لقبٍ قد يكون أغضب شجرة الزيتون. هذه الشجرة استعصت جذورها على شفرة الجرّافة، حين جاء الجند بالحديد. صاح سائق الجرّافة وكان من هذه الأنحاء:

– قريضة! وكان ذلك تعميدها الثاني بالاسم. وكانت ابنة مريم، لحظة تنزّل الاسم، قد هدّها التعب في نهاية يوم قطاف بدأ فجراً. فأُولى حبّات الزيتون تقطفها اليد قبل أن تراها العين. وكانوا قد عقدوا العزم على متابعة العمل حتى قطاف آخر حبّة. لا أحد يقطف آخر حبّة زيتون، فثمّة حبة أخرى وأخرى دائماً. وحلّ الظلام، وصاحت ابنة مريم:

– قريضة تقرضك! ولمن كل هذا الحب، يلعن الزيتون وشغل الزيتون! وغصّت باللعنة خوفاً من غضب المعلّم الذي كثيراً ما كان يردد بين شجرة وأخرى من أشجار البستان "والتين والزيتون..".

-113-

– وحَبّ الآس! الله يخلّيك يا أستاذ. صاح علّوشي راس التيس وكان غادر المدرسة باكراً إلى سلك الإشارة، وكان في طريق عودته من زيارة مقام الخضر – أنا روح قلبي حَب الآس. وضحك المعلّم يومها:

– تكرم يا علّوشي، أبعد الله برقياتك عنّا.

كان علّوشي رسول الموت إلى العسكر. كان يرسل برقيات يخبر فيها العسكر بقطاف أرواح أهلهم وذويهم. وكان أهالي عين الغار يجتنبون عينيه خوفاً من خبر موت مخبّأ فيهما. وراحت مخيّلة علّوشي تنشئ برقيات تخبر عن موت الزيتون.

-114-

وكانت أصوات الجرافات في جبل الصنوبر قد هدأت ساعة مرور إحدى سيارات الجند في عين الغار. لم تكن تشبة سيارة الزيل التي لاحقها غازي بوحرب حافي القدمين وراح يطلق عليها النار، فيما زوجته الصبيّة تزغرد في صحن الدار. وكان بعض الجند قد سكن عين الغار. وبات من الصعب رسم حدود فاصلة بينهم وبين السكان، حدود تصلح للمنازلة والقتال. ومع ذلك فقد كان هناك من رسم خطاً واضحا للنزال.

-115-

وكان أحدهم قد جاء بامرأة سمراء ذات مفاتن وأسكنها غرفة في دار يقطنها، مع ابنه الوحيد، الممرضُ العسكريُ عزّام، الأخُ الشقيق لعسكري البرقيات علّوشي راس التيس الذي يعرف كيف يكره ولا يعرف كيف يحب. كانت زوجة عزّام قد " شردت " مع مهرّب شاب يتاجر بملابس مهرّبة من تركيا. وعدها الشاب بأن يأخذها إلى تركيا ويعيش معها هناك. وكان أهداها ملابس داخلية لم تر مثلها من قبل. قالت له إنّها تخجل من لبسها أمام زوجها، وكانت احمر وجهها وضحكت حين رأتها. قال لها إن أقرباءه الميسوري الحال ينتظرون قدومه، وعملاً مريحاً ينتظر يديه. ورحلت إلى غير رجعة. ولم يسأل عنها عزّام بعد ذلك اليوم.

ما إن رأى الممرض الزوجة الشابة الغريبة، حتى راح يحلم بيوم آت قريب يغرز فيه إبرته في المؤخرة المكوّرة نحو امتلاء شهي. وافق الممرض عزّام على تأجير غرفة في داره للعروسين الشابين. وانحشر في الغرفة الثانية مع ابنه. وبقي المطبخ والحمّام المقامين قبالة الغرفتين مشتركين للجميع. وفيما كان الممرض يتملى المؤخرة، كان ابنهُ المراهق تمسح عيناه الجدار الفاصل بين المطبخ والحمّام، بحثاً عن مكان مناسب لإحداث ثقب.

-116-

– مبسوط بسيّارتك يا ابن الكلب، جايي تصطاد بناتنا، طيّب! قال شاب صغير لم تكن الرجولة فيه قد لفتت نظر أحد من قبل. كان ابن عمّ المعلّم، وكان من قرابة هجرت المدرسة إلى صيد الأسماك، ولكن بالديناميت. وكان، حين مرّت سيارة الضابط المتأنّق الشاب، يجالس أخاه الصغير على شرفة سطح البيت المطلّة على الشارع الرئيس في الحارة الفوقانية من عين الغار.

كانت أمّه قد قضت أثناء وضعها الصغير، وكان أخوه الأكبر قد طُرد من خدمته في المخابرات العسكرية برتبة رقيب. قيل إنّهم ضبطوه يأكل سندويشة قدّاحات. كان يخدم في مفرزة المرفأ، حين سرقت معدّات ثمينة من حمولة البواخر. وكانوا أجروا تفتيشاً، فوجدوا الرقيب يأكل سندويشة في طريقه للخروج من الباب. لكن السندويشة لم تكن تنتهي. اكتشفوا سارق البواخر، فطردوه. لم تكن القدّاحات الصينية تباع بليرتين آنذاك. كان علي يُعدّ الديناميت للنزول إلى البحر، حين مرّت سيّارة جيب مكشوفة فيها شاب من يراه يظن أنّ غيفارا جاء إلى عين الغار.

ومع الدورة الثانية في عين الغار، غرز علي الكبسولة في كتلة الديناميت، ودعا ربّه أن لا يعود غيفارا المتأنّق للدوران في متحلّق الضيعة الوحيد، المرتسم بالصدفة دون تدخّل المهندسين. لكنّ غيفارا عاد. ومع دنوه في دورته الثالثة، أشعل علي الفتيل وأسقط الديناميت، لكن حساب سرعة السيارة والزمن اللازم لبلوغ الديناميت لحظة الانفجار لم تكن دقيقة. انفجر الديناميت على بعد خطوة من مؤخرة السيارة..فاندفعت الأخيرة إلى غير رجعة من عين الغار. هل إلى غير رجعة حقاً!؟ ليس تماماً. فالحديد يأتي بالحديد، وتسقط الأشجار صرعى، ويتصلّب عود الصغار.

-117-

وكان غير بعيد عن زيتونة (قريضة)، تنزّل اسم (بقدرة الله!) على إحدى الزيتونات. كانت مكسورة الجناح ولكن ليس القلب. وكان المعلّم قد اعتلى غصناً منها، ودنا من نهايته الرفيعة محاولاً قطف حبّات زيتون، من غصن يعلوه، فقالت له ابنة مريم:

– انتبه، الفرع ضعيف لا يتحمّل وزنك! فأجابها واثقاً:

– " بقدرة الله"، يحملني ويحمل الأثقل منّي! لكن الغصن انكسر، وسقط المعلّم على ظهره وسط ضحكات الأولاد وولولة ابنة مريم.

– المشكلة باليقين، لوكان يقيني بلا ريبة ما كنت وقعت، إن شاء الله بْ يجي يوم أقف فيه على رأس الفرع مثل العصفور! قال المعلّم، نافضاً التراب عن ظهره ومؤخرته. ولم يفهم الأولاد آنذاك أكان أبوهم يمزح أم يقول ما يؤمن به فعلاً. فهو كثيراً ما كان يمازحهم، راسماً على وجهه صورة جدّية تبعث على الخوف. وما إن اطمأنت ابنة مريم إلى سلامة المعلّم حتى راحت تضحك:

– طمّني، صار فيه شيء للقلي؟ وكانت تعني هل انكسر البيض أم لا؟

-118-

وذات صباح ربيعي، تذكّر الأولاد بيض العصفور الدوري، وفكّروا بأن يأتوا به هذه المرّة إلى الدار المهجورة. كان أهلهم قد أخافوهم من العفاريت والجان ساكني الدار. قالوا لهم إنّ كل شيء

هناك يخدم الموت. والذي يتجرأ على الدار، سواء سكنها، أم أكثر من المجيء إليها إمّا يُميت أو يموت. ولم يكن المعلّم قد اقتاد حمارته إلى هناك بعد. بل لم يكن قد أهداه إياها المهرّب التائب. ورأى الصغار إمكانية أن يختبروا مخاوف الأهل بأنفسهم. رأوا أن يُجروا تجربةً على تأثير الجان في بيوض العصفور الدوري. جمعوا منْ كل عشٍ بلغته أيديهم منَ البيض خمساً إلى سبعٍ، بيضاءَ صغيرةً منمّشة بالبني. وفرحوا للجنى الوفير، ثم احتاروا في أمرهم، فمن سيجلس على البيض؟

– القرقة! قال أحدهم وكان يعني الآذن.

– الأحسن لنا، لو نجلب قرقة حقيقية.. يالله يا شباب؟ واتفقوا على أن يتفقّدوا تجربتهم كل يوم مرتين. لكنّهم لم يضطروا إلى ذلك. فما إن انفجر الصباح بعد ظلام دامس حتى وجدوا الدجاجة ميتة، ولم يكن هناك من البيض سوى بقايا قشور. هاجمت الجرذان عش الصغار وأتت على ما فيه. لكنّهم آمنوا بالأرواح الشريرة وبالجان والعفاريت.

ابتسم المعلّم وحدّثهم عن الجرذان، فأجابوه بابتسامات مرتابة، وشكره الكبار على محاولته طمأنة أولادهم ونزع الخوف من أرواحهم. وقال أحد الصغار:

– الشياطين يحبّون القريشة!

–119–

وكان الصغير قد رأى على شاطئ (أمّ الطيور) مجموعة من الشباب الملتحين يأكلون القريشة البيضاء وعلى أكتافهم بنادق سوداء. أمسك الصغير بيد أبيه خائفاً، واشتد ضغطه عليها حين طلب منه أبوه أنْ يُمعن النظر فيهم ويحفظ أشكالهم فهم قد يقتلونه في يوم من الأيام. وأخبر الأبُ ابنَه أنّهم في طريقهم إلى معسكرهم. وامتنع الصغير عن أكل القريش منذ ذلك المساء.

– من أين جاؤوا؟

– من عند الشيطان

– فيه منهم بضيعتنا؟

– لا!

– أكيد؟؟

–120–

هوب.. هوب! وكانت كاترينا، ذات عصر، توقّفت في وسط طريقها إلى اللاذقية، بعد سنتيمترات قليلة من التقاطها الممرض عزّام الساكن أطراف الضيعة وابنه. كان الولد دخل تحت

الحافلة لالتقاط كرة سقطت من يده وتدحرجت تحت الحافلة. كانت الأم قد وعدت ابنها برحلة إلى المدينة، واستحلفت رجلها اصطحابه. وكان يوم مجيء حبيبها المتّفق عليه. كانت الخطة تقضي بأن يبيع الملابس لنساء عين الغار، وبعد أن يأخذن ما يرضيهن، يُعرّج على دارها فتدخل حجرة الملابس في السيارة المغلقة، وينصرف بها. كان عزّام حاول إقناع امرأته بتعلّم الخياطة. قال لها إن الخياطة أكثر ربحاً من ضرب الإبر. وكان عزّام يغرز إبرته في مؤخرات النساء دون مقابل. وكانت امرأته تعلم ذلك. قال عزّام لزوجته ممازحاً:

– أنا بْ ريّحك من أخذ قياسات النسوان!

– أقرف من النسوان، ما قادرة على لمس جسم أي واحدة. كان الجواب قاطعاً.

سحب الأب ابنه من تحت الحافلة وصفعه ودفعه إلى الباب الحديد. واندفع بوسلطان بحافلته. يومها، لم يبك ابن عزّام، ولا هو يبكي اليوم. خشناً صوته صار، وبان زغب أسود على شاربيه.

–121–

– الأولاد يتألّمون. الأشجار لا تتألّم. الخميرة في الفرن تموت!

تذكّر علي جاد الصغير سخرية أبيه من الشِعر، وراح ينتش من رغيف خبز ويأكل. كان عليّ الصغير في طريقه من فرن شيبان إلى الدار. يتبارى المراهقون بخشونة أصواتهم في طريقهم إلى الفرن، ومنه. " الصوت الخشن مرغوب ومرهوب" قالوا لهم.

–122–

في الفرن، لم يعطس شيبان، كعادته، قبيل نزوله عن الشجرة إلى بيت النار. تخمّر العجين، لكنّ شيبان لم يعطس. ولم تمأمئ العنزة، في دار بربهان. العنزة شاميّة لا تأتي إلى الجبل. يؤتى بالجبل إليها. أولاد بربهان ينشرون أغصان الزرّود عن أمهاتها. ينشرون ويشربون ويضحكون. الزرّود لا يتألّم. يتحدّث المعلّم عن آلام الأشجار. يضحك التلاميذ. يتغامزون. ولكنهم حين يعودون إلى دُور أهليهم يتفحّصون جراح الورد.

– ليس من أجلنا تورق الأشجار وتزهر وتثمر!– يقول المعلّم– إنّما تفعل ذلك من أجل حياتها ومن أجل أنّها حيّة، ومن أجل الحياة يورق التين والزيتون، ويثمر. لا تقطعوا عنق شجرة، من أجل أن ذلك يعني الموت!

يخرج شيبان من بيت النار. يعطس. تستعد النسوة للذهاب إلى الفرن. ليس كلّهن يفعلن. بائع الخبز الجوّال سيلقي بأكياس الخبز في دورهن بعد سويعة وكثير من دقّات القلب.

-123-

وفي المساء، يضحك راجي لأصوات الرحى في حناجر المراهقين ويتوقّف عن العزف على العود." الصوت أوّل بيوت الوحش، والعينان!" يقول راجي.

-124-

وفي يوم آخر عجز عن ضحك كان يلجأ إليه ساعة يعجز عن البكاء. توقفت سيّارة النجدة، وترجل منها راجي وناهلة. صامتين ترجلا. ومن أمام عيني راجي فرّت أمّه وخالاته. وخرج المعلّم من سقيفة أبيه لملاقاة أخيه. عانقه، وسلّم على ناهلة، محاولاً سبر أغوار العتمة في عينيها، فأفلت راجي من عناق أخيه، وقال في طريقه إلى حجرته:

– الرقّة ما عادت تعجب البشر، اللطف ضعف، اللعنة على ابن آدم أسوأ المخلوقات! هدر راجي مشيراً نحو أمّه وخالاته، واندفع إلى حجرته وأخرج آلة العود. بدا العود في يده أشبه بعصا، رفعها ليهوي بها على الورد، لكنّ المعلّم اعترض طريقه وأمسك بالآلة المشدودة الأوتار...

– لا تكمل! الرقة عمرها ما كانت من ضعف، الصلف والغلظة والخشونة والقسوة هي الضعف.. من السهل أن يكون الواحد منّا على طبيعته، على فطرته.. طبيعتنا وفطرتنا هي القاسية، هي الوحشية، ولباقتنا وإنسانيتنا شغل يدنا، إنجاز من إنجازاتنا، ومحط فخرنا!! من خلاّك تفكّر بهذه الطريقة؟ امش معي إلى بيتنا. خلّ السيارة هنا وامش لنشرب كأس عرق.

-125-

وتوقّفت امرأة قبالة باب الدار، وأنزلت عن رأسها صينية خبز لتوّه غادر التنور، ومدّتها صوب راجي وأخيه المعلّم فيما عيناها تعاينان المرأة الحزينة:

– تفضّلوا كلوا.. بالله تاكلوا!

وابتسم المعلّم بحزن صامت ومد يده، فناولته المرأة ثلاث أرغفة. فشكرها بابتسامة أخرى أكثر أسىً من سابقتها، وقال في نفسه:" آن أوان الشرب حتى الثمالة!". كان المعلّم يفعل ذلك بين حين وحين. يفعل ذلك حين يشعر بالكون غولاً عملاقاً يريد التهامه هو الكائن الصغير الضعيف. شعر المعلّم بأنفاس الغول تدفع بالريح ساخنة من السموات السبع، فمشى دون أن يلتفت إلى الخلف باتجاه البيت، ظاناً أنّ راجي وناهلة معه يخطوان. لم يكن ظنّه في محلّه.

-126-

هوب.. هوب! الصغار ينتظرون الأرغفة الساخنة وحبّات الزيتون. لا أحد يحصي حبّات الزيتون على الأشجار. السجناء وحدهم يحصونها بعدما يلتهمون أخضرها وأسودها. يجعلون من بذورها سبّحات. سبحان خالق التين والزيتون وفاتق السماء والأرض بعد أن كانتا رتقا، وفاطرهما، ومرسي الجبال وباسط السهول ومفجّر الينابيع ونافخ الريح...

يتذكّر المعلّم الدجاجتين، اللتين جاء بهما ابنه علي جاد الصغير، راكب كاترينا، وجعل لهما مسكناً في داره، من دارٍ غادرتْ إليها تلميذته الصغيرة ولم تعد من حيث امتلأ ثدياها بالحليب. كثيراً ما ناولها عليّ الصغير الممحاة، ولامست أصابعُ يده أصابعَ يدها، في غفلة من عيني أبيه المعلّم. كثيراً ما أطرقتْ. الحياء لونه أحمر عند الصغار وعديم اللون عند الكبار.

يبتسم المعلّم. دافئةً يدها دائماً كانت. يمسح ريشة القلم. يغلق دواة الحبر الصيني. ينتظر رغيفاً ساخناً، سابقت رائحته طلّته البهيّة إلى داره وبلغته لحظة غادرت يدا الرجل المبتسم الماء البارد. " الماء يكون بارداً إذ يكون، ويصير إلى شيء آخر إذا ألمّ به الدفء!- يقول المعلّم، ماسحاً وجهه براحتي يديه- مع دفئه تكون بداية موته. لا أحد يتعمّد بالموت. بارداً اجعلوه على جسدي حين أموت- يمسح المعلّم عنقه وصدره- أخضرَ جئتني في قلب الأزرق فإنّي مطمئن!" يكمل المعلّم ثم يتناولَ الرغيف، ويناولني إياه، متطلّعاً إلى عينيّ، أنا الذي عايشت هذه الأحداث وذرفت الدمع، فرحاً وحزناً، وما بينهما تأمّلت عينيه، فشكرت الله وشكرته.

-127-

هوب.. هوب! مع إعلان صوت الحجار عن الموت، لم يعد يعني لي رذاذ العطّاس الذي ملأ وجه علي جاد الصغير شيئاً. شغلني ابن الميت، وأذهلني أنني لم أعرفه. وحين أمعنت النظر فيه، رأيت ذبولَ الغربة وقسوة البعد عن الأهل. وانصرف قلبي عن الحجّار وعن العطّاس وعن نفسي.

-128-

كان (الحجار) يسكن غير بعيد عن دار المعلّم في غرفة وحيدة وأولاده السبعة وزوجته السمينة. فيما كان (العطّاس) يسكن عند ساحة الأعراس القديمة، قبلما تنتقل الأعراس إلى باحة المدرسة الأرحب. كان الحجّار يقتطع من الصخر صفائح خاصّة من أجل القبور. وذات مرّة خطر بباله أن يجعل من صفائح الحجر مقعدين لعريس وعروس في باحة المدرسة. فاستأذن المعلّم فِعْلَ ذلك، وأذن له، وأقام المقعدين. وثبّت عليهما السقّاء ألواحاً من خشب السنديان، جاعلاً لهما مسندين. حفرت يد المعلّم على واحد منهما شمراخاً لنبات اللوف وعلى ثانيهما زهرة

لوتس. وبعد زمن غير طويل، استند على الفطر واللوتس صافي بن بارود وعروسه منى بنت علي هناك.

-129-

وكان العطّاس يأتي بجذوع ضخمة يرصّها ويثبّت عليها بمسامير كبيرة أسلاكاً شائكة، يجيء بها من مكان ما، حول جدران بيته الذي تنفتح نوافذه على الشارع مباشرة، كأنّما يصنع متاريساً استعداداً لحرب قادمة. وكان المراهقون يرون في ذلك طريقة لمنعهم من لصق أنوفهم بزجاج النوافذ نحو ابنتيه لمياء وجيداء.

أفادت الجذوع في منع الصغار من الجلوس تحت نوافذ بيته الثلاث. وأفادت كذلك في واحد من البيانات العملية على قتال الإسرائيليين. لم تكن لتجد أحداً هنا يشك في أن الإسرائيليين قادمون بالتأكيد. لبسوا الخاكي من أجل لقائهم وخلت بيوتهم من الكتب التي قد تصطبغ بحبرها الساقية فيسودّ ماؤها أربعين يوما.

-130-

وكان الحبر يُطبخ في مكان ما في عين الغار كما يُطبخ الديناميت. كان نقّاش الحجر يملك سرّ الحبر. كان للحجّار أخ شقيق أصغر منه، يحفر أسماء الموتى وتاريخين وشيئاً من القرآن على حجارة القبور. وكان يتقن إلى جانب ذلك صناعة العطور. العطور التي يُركّبها ليست للموتى إنّما للأحياء. وفي دكانه، تجد زجاجات العطر الصغيرة والحجارة المصقولة بانتظار الإعلان عن الموت. لكن من سيطلب حجراً لسلمان الملقّب بالساموك؟ سيتجه سقّاء المدرسة، ابن عمّة المعلّم، الذي لا فضل للساموك بالفقر عليه إلاّ قليلاً، إلى حانوت (بوريحة)، كما يلقّبونه في عين الغار، ويرجوه حجراً خاصاً لا تأتي على الكلس الذي فيه الأيام، وسيبتسم النقّاش:

- تشكر على المبادرة، التابوت على حسابي أنا!
- ابن حلال! وحين ما أموت، اعمل تابوتي على حسابك يا ابن الحلال!
- مُت والباقي عليّ.
- طمّنتني! وضحك السقاء، وكانا رفيقيّ كأس.

-131-

كثيراً ما كان السقاء يعرّج على دكان صديقه جاثم النقّاش، ويحفران معاً تاريخ الولادة والموت، ساخرين من قيمة الأرقام، ويشربان ساخرين من الحياة وفكرة الحياة. وكان السقّاء يعرف

أنّ صديقه جاثم عاشق لشمّا ابنة الساموك، وأنّه ركّب من أجلها زجاجة عطر لم تأخذها إلى اليوم. فهي لا نقود لديها ولم تقبلها هدية منه. وفي لحظة حزن، قال جاثم النقّاش للسقاء:

– أظنني سأحتفظ بها حتى تموت وأرشّها على قبرها! فأجابه

– وحضرتك متأكد من أنّها ميتة قبلك! الأحسن لو ترشّها على جثمان أبيها، حتى تتذكّرك كلّ العمر.

-132-

وكان المعلّم حلق ذقنه، ووضع من عطر النقّاش قطرتين خلف أذنيه، واثنتين على جانبي أرنبة أنفه، وواحدة على نحره، وخرج من العلّية. وإذا به قُبيل تجاوزه الخشبة المربوط إليها جذع الدالية التي تظلل مقدّمة العلّية، يتناهى إلى سمعه صوت بكاء مكبوت. كأنّما الذين يبكون هناك كانوا يخشون إيقاظ النيام. أو كان يخجلهم إقلاق راحة الأحياء بموت رجل البيت العليل.

أنصت المعلّم قليلا إلى الصوت الآتي من بعيد. وتبيّن في البكاء ما يستوجب الانطلاق صوب بيت (الساموك) دون إبطاء. وكان عقد العزم على الخروج إلى الجبل، وتفقّدِ فسائل صغيرة خادع من أجل حمايتها العيون، جاعلاً لها مهداً بين الطيون والبلان، بعد أن فصلها عن أمهاتها، قبل أن يرحل الأخضر عنها، واضعاً نسغها بين يدي علي جاد الصغير.

كان الصوت الآتي من جهة بيت الساموك، أقرب إلى النشيج. لا نواح ولا زعيق. ورأى المعلّم أن يخرج إلى جبل الصنوبر، ليس عبر طريقه المألوف، إنّما عبر طريق طويل يخترق عين الغار ويخرج إلى المقابر وينحدر من هناك إلى وادي الجراد ليعود ويلتحم مع طريق الجب المفضي إلى الجبل. وهناك تأكّد من موت (الساموك) المشلول.

-133-

كان يكفي كي لا يشل أن يقف واحد أو اثنان معه تحت السقيفة التي راحت تهوي، أو أن تدفع امرأته بالبرميل مسافة نصف المتر، كما رجاها، حين أدرك أن جسده لم يعد يقوى على الصمود تحت ثقل السقيفة، مع انكسار عمودها الثاني بعد الأوّل. لكن المرأة سارعت لإنقاذ العنزة، وراح الجيران يهرجون ويمرجون حوله، ويزعقون في وجهه:

– اطلع من تحتها، اهرب قبل ما تهبط عليك! وكان واضحاً أنّه لو تزحزح ستنهار عليه.. صرخ في وجوههم:

– ادفشوا البرميل تحتها، هاتوا خشبه، اسندوها يا أولاد الكلب! وشعر بصاعقة تقصم ظهره، ورفعوا أذرعهم قربه ولكن بعد فوات الأوان.

-134-

وما كان المتسائلون، بأسىً، عن طريقة لإخبار ابنه علي، يعلمون أنّ الأخير في طريقه إلى الدار. كان علّوشي راس التيس أرسل برقية، من تلقاء نفسه، تخبر عليّ بموت أبيه. وعند وصول المعلّم، رأى ابن الساموك الثانيَ الذي لم تغادر صفرة اليرقان وجهه مذ خُلق، رآه جالساً يداعب عنق عنزة سمراء، غير تلك التي أنقذتها أمّه، ويبكي مقرّباً وجهه من وجهها. ومن داخل البيت الطيني المعتم، انسل نواحٌ على الفقيد يقول بأنّه كان أقوى من الحديد لكن القدر كان له بالمرصاد، فشلّه ثلاث سنوات قبل أن يقتله. واستغربت النسوة. فالناس، عادة، يشلّون سبعاً قبل الموت.

ولبّى المعلّم نداءَ النواح فصعد الجبل، عاقداً العزم على إحضار الريحان من غابة المزار، وبخّوراً من حضرة مقام الخضر، مباركة لروح سلمان المسكين.

-135-

ولم يكن المعلّم قد انقطع عن زيارة المقام، بعدما رفعت مواسير خضراء بدل جذوع أشجاره، ونُصبت خيام رمادية محلّ تيجانها التي ترمّدت وسافتها الريح. وكان ثمّة ثلاث فسائل، فصلها عن قرم أمهاتها وزرعها في السفح، جاعلاً الدغل مخبأ لها، حين أدرك أنّه أعجز من أن يقاوم الحديد. واحدة من زيتونة " الله أعلم "، وثانية من " بقدرة الله "، وثالثة من زيتونة " راجي ". وكان اسم راجي تَنزّل على الزيتونة التي طالما غنّى تحتها واستراح.

خرج المعلّم إلى الجبل لكنّه لم يف بوعده، فقد انقطع طريقه عند صخرة (المضلّة)، فرجا ابنةَ مريم، حين صحا على الوعد الذي أضمره، أن تأتي بالبخور والريحان من هناك، وأن تُصلّي على روح سلمان على طريقتها.

-136-

لم يكن سلمان رجلاً غريباً على المعلّم. فكثيراً ما قصد المعلّمَ وابنة مريم في وجع مُمضّ. وجع الروح كان يجيء به إلى هنا. فهنا، في بيت المعلّم، كان بإمكان هذا الرجل أن يتوجّع دون خوف من استغلال ضعفه وفقره أو شماتة فيما أصابه من بنات عمّه. كان سلمان ابن عم النساء المقيمات على كتف راجي الأيسر، يمينه للورد ولبابٍ نحو الناس.

-137-

جاء سلمان من أبٍ مات قبل أبيه ملاّك الأراضي الكبير. فلم يرث شيئاً من أراض تمتد على ثلاث ضياع. وكان للنساء الثلاث ساكنات دار الشيخ العائد من حرب فلسطين ثلاث أخوات أخريات؛ إحداهن، هُجرت، عن فتاة وصبي، ولم تكن قد بلغت الثانية والعشرين بعد؛ وثانيتهما،

أنذرها زوجها بأن مجيئهن إليها معادل لرواحها إليهن دون رجعة فأغلقت مع زوجها الموظّف الصغير الباب دون أخواتها؛ وثالثة، لا يتغيّر الطقس على وجهها سواء أمطرت أم أشمست، فثمّة ابتسامة دائمة على فم ممطوط يندلق منه لسان، ويسيل لعاب على عنقها الملوي نحو اليسار حين تستخدم يمناها ونحو اليمين حين تستخدم يسراها في أمر مهم. هذه الخالة، تبصم مهتاجة على أوراق لا تسأل عن محتواها. فملامسة إصبعها للحبر وخطوط سوداء تشبه دروب النمل تخلّفها الإصبع على الورق، كانت تشعرها بالقيمة والسعادة، فتضحك ويتراقص ثدياها الكبيران، وتخبئ يدها الملوّثة بالحبر تحت إبطها، خشية أن يجبروها على مسح الحبر عنها، وتهرب بها إلى مكان تخاله بعيداً عن متناول أيديهم. هذه كانت تجلس تحت شجرة التين المفتوحة عليها نافذة سقيفة الشيخ أبي راجي. وتناديه بصوتها الدامع الضاحك من هناك، راجية إياه النزول إليها.

وكان للخالات الثلاث، أخ وحيدٌ تزوّج عن حبّ من امرأة بيضاء الوجه خضراء العينين لمياء الشفتين، وافرة النهدين والردفين. ولم تنجب امرأته لعلّة فيه. فتبهلل إلى أن مات تاركاً زوجته مع بضع عشرات من ليرات ذهبية. هذا الأخ، وجد حيلة للهروب من أخواته إلى نفسه. تخلّى عن الإرث لمصلحتهن. ومنذ تلك اللحظة التي وضع فيها التراب بين أيديهن، لم يعد يعنيهن في شيء. لم يحتج البهلول مضي أكثر من أسبوع كي يُنسى.

-138-

وذات، مرّة جاء سلمان الساموك يسأل عن المعلّم. وكان المعلّم خرج من المدرسة إلى مكان ما زلتُ أجهله إلى اليوم. رجا علي جاد الصغير الرجلَ البائس الجلوس، قائلا في نفسه:" أفعلُ ما يفعله أبي عادة ". واتجهَ إلى دمجانة عرق التين. وأخذ كأسا كبيرة، ملأ أكثر من نصفها بالسائل العابق برائحة اليانسون. وسكب لنفسه نصف كأس شاي صغيرة. وملأ طبقاً صغيراً بالزيتون المخلل. رشّ عليه مسحوق السمّاق، وزّينه بخصلات من الزعتر الأخضر. وكان المعلّم قطف الزعتر في الصباح. وأحضر قطعة من ذيل سمكة سكمبري مقلي، كانت قد بقيت من الغداء. وجاء بصينية القش المزركشة بالأحمر والأخضر إلى ضيفه، ورجاه أن يتقبل ضيافته ريثما يعود والداه.

– تسلم يدك يا حبيبي، أنا لا أشرب!؟

– كيف لا تشرب؟ قصدي إن شاء الله السبب خير..!

– الناس يشربون من فقرهم، وأنا يا بني من فقري لا أشرب.. رجّع الصينية الله يخلّيك.

-139-

وقبل أن يَكسر ترابٌ يحجبُ السماءَ ظهرَه، لم يكن الساموك قد زار المدينة منذ أكثر من سبع سنين. وكان يُجيب حين يُسأل عن الأمر:

– إذا كنت أعجز عن شراء أي شيء، لماذا أعذّب نفسي.. أشوف وأتحسّر!

– طيّب، رُح وارجع، بكاترينا على الأقل. لا تنزل منها. روّح عن نفسك، المشوار بكاترينا حلو!

-140-

هوب.. هوب! الحافلة كاترينا التي يقودها بوسلطان له ولأخويه. ولدى الثلاثة الأخوة ستة عشر شاباً. خمسة منهم كانوا عاطلين عن العمل. فالتحق ثلاثة منهم بسرايا الدفاع، وتعاقد رابع مع المخابرات العسكرية، وبقي الخامس يجيب حين يُسأل عن عمله " أعمال حرّة". هذا كان أخطر الجميع. فقد كان الضجر يدفعه لذبح القطط والكلاب. وكان أولاد العم يتناوبون العمل على جرّافة صغيرة وعلى جرّار ينقل الرمل من شاطئ البحر إلى ورشات البناء. وانفرد بوسلطان بقيادة الحافلة. وكان الأخوة شركاء في كل ما يملكون، بما في ذلك أحد الفرنين الصغيرين في عين الغار.

هذا الذي " أعمال حرّة" اسمه شمال، وقد نزلت عليه ثروة من السماء كما يقولون. كان ذلك كلّه بفضل المزارات. ولا تسيؤوا الظن، فهو لم يفرغ حصالات المقامات في جيبه. المال جاءه بطريقة أخرى. وكان الأب قد أطلق على أربعة من أبنائه أسماء أربع الجهات.

-141-

كان شمال، لضجرٍ يتآكله، يتردد على مجلس شيخٍ شابّ ارتدى العباءة منذ عهد قريب. كان أصل عائلة الشيخ يتيح له القيام بهذه النقلة المفاجئة من طالب في الرياضيات أمضى سبع سنين حتى بلغ سنته الثالثة إلى شيخ دخل منزل أهله بقميصٍ تكاد أزراره تتشلع لضيقه، وسروال جينز وخرج منه بعباءة ولفّة على الرأس تشبه العمامة. كان الشيخ الشاب عاكف أخاً شقيقاً لمصمم الأسلحة غازي بوحرب، الباحث عن طريقة لإلغاء الأكسيجين. تحوّل الطالب إلى شيخ بعد أن خدم إلزاميته، أو لنقل تحوّل هناك. فالعسكر من أكثر المنشغلين بالأئمة وحقوق الخلافة. وكان عاكف قد اشتاق إلى لحيته السوداء المشذّبة التي تميّز بها في الجامعة وكانت مصدر جاذبية. هكذا كنّ يقلن.

-142-

وفي واحدة من صباحاته، حكى الشيخ عاكف لجُلسائه، وكان معظمهم من أبناء صفّه الذين غادروا المدرسة، بعضهم إلى مُنازلة البحر وبعضهم إلى منازلة آبائهم، عن أنّ المزارات التي يزورونها ليست أكثر من قبور رومانية. وأنّ المقامات التي يُلبسونها الأخضر ثم يتبرّكون بأخضرها ليست إلا مدافن فرسان.. وفيما تابع الشيخ حديثه، شرد شمالُ نحو الشمال ونحو الشرق، حيث المزارات التي تخرج إليها أمّه، داعيةً له بالعقل وبهداية من الله وبعمل يبعده عن فعل السوء وأبناء السوء.. ثم ابتسم شمال لفكرة خطرت بباله. وكان شمال وقف ذات يوم للفصل في أمر خاتم أسطواني من عهدٍ قديم.

-143-

فعلى كومة من الرمل جاء بها جرّار لبناء بوّابة المدرسة، وقف ابن قزّيطا وابن السقّاء وراحا يتبادلان اللكم. لم يكن ذلك شجاراً بينهما، إنّما كان مباراة في الملاكمة. وكان شمال حكماً في تلك المباراة. ولمّا لم يكن لدى أيّ منهما قفّاز، ولمّا كان شمال يدّعي المعرفة بأصول اللعبة، قفز إلى جدار المدرسة وأنزل من هناك يافطة كانت تحيي ثورة آذار. وبخفّة عجيبة، مزق شمال اليافطة إلى أربع قطع لأربع الأيدي التي ستتبادل اللكم. بدا الملاكمان كمثل جريحي حرب انفجر لغم معدّ لقتل الدجاج في أيديهما.

كان النزال على خاتم أسطواني عثرا عليه في لحظة واحدة في الدار المهجورة. كان الخاتم يصوّر رجلا يضاجع امرأة وقربها عنزة تدير له مؤخرتها بانتظار أن يأتيها. وكان لا بد من مبارزة لحسم الفائز باللقيا. كانا يتلاكمان على الرسم المثير، وليس على قيمة الخاتم. وبعد أن أدمى كل منهما الآخر وهدّهما التعب، حكم شمال بالخاتم لنفسه. وعدهما بأن يأخذه اليوم ليعرضه على تاجر آثار ويعيده لهما غداً بعد أن يعرف ثمنه. فإن وافقا باعه من أجلهما. ترك شمال لكل منهما طبعة من الخاتم على معجونة كان يستخدمها الصغار في دروس الأشغال اليدوية، وانصرف. وبعد يومين بحث عنهما شمال، ونقدَ كلاً منهما ثلاثمائة وخمسين ليرة. كان ذلك مبلغاً عظيماً لم يتوقّعاه. شرب ابن قزّيطا سبع زجاجات سينالكو حمراء، واشترى ابن السقّاء لأمّه قماشاً لتخيط لنفسها فستاناً. خاطته لها ابنة مريم، وجعلت فتحة الصدر واسعة، من أجل رضيع دهسه الجرار بعد ذلك بثلاثة أعوام.

-144-

رأى شمال أن يعود إلى أمّه، معلناً توبته عن قتل القطط والكلاب وسرقة ثمن علبة سجائر وبطحة عرق من جيب أبيه، وعن ضربه هذا وذاك في الشارع لسبب ومن غير سبب. ورأى أن يرجوها مساعدته في استعطاف الأولياء الراقدين هناك، ليعفوا عنه وليكفّوا عن إغلاق أبواب الرزق أمامه. وقبل ذلك، دخل غرفة راجي، ثم لحق بالمعلّم إلى طريق الجبل.

-145-

– سمعت من الشيخ عاكف أنّك تنوي التوبة – قال راجي لشمال، مبتسماً– ممتاز! التوبة جيّدة. تصوّر.. يمكن للواحد أن يتوب ألف مرّة.. يتوب وبعدها يرتكب المزيد من الذنوب، ثم يتوب، ثم ذنوب، أعجبتني فكرة التوبة.. أنا أمزح معك، لا تزعل!

-146-

وأمّا المعلّم فقال لشمال، ولم يكن منادي الضيعة قد صاح معلناً توبة الأخير بعد:

– أنت بغنى عن التوبة، فالله لا يؤاخذ من عمره تحت الأربعين! لا يمكن أن يؤاخذه على تصرفاته! معي حق أم لا يا شمال! وضحك المعلّم.

-147-

وذات صباح، أعلنت الأم أنّ ابنها سيُكفّر عن طيش شبابه، وأنّه سيخدم المزارات. كان من المتعذّر عليها أن تخفي طيش ابنها الذي يعرفه كل من في عين الغار. ظنّ شمال في البداية أنّ وجوده في المزار ساعة في اليوم، بعدما يكون الزوار قد غادروا عتمة الدغل إلى فوانيس منازلهم، ستكون كافية. لكنّه اكتشف أنّ الأمر أعقد من ذلك، ويحتاج إلى وقت أطول. فأعلن لأمّه، في الجولة الثانية من استرضائها، عن حاجته إلى فعل كبير لتشمله رعاية الأولياء. ورجاها إقناع أبيه بالتبرّع ببعض المال لبناء حجرات للمزارات. ووعدها بأن يجعل مال أبيه دَيناً في عنقه. وأنّ يوفي الدين، بعون أصحاب المقامات في وقتٍ قريب.

-148-

أعلن شمال لأمّه أنّه رأى نفسه في منامه مهدود الحيل، وشعر ببرد شديد وخوف وجوع. وإذا بيدٍ تمتد نحوه وتلقي بوشاح أخضر على كتفيه. وإذا به يشعر بالدفء والشبع وبنعيم لم يشعر به من قبل. وإذا به يغفو بعمق. وإذا به يستفيق على صوت عظيم يخرج من الحجارة إليه:

– ابن لي بيتاً جديداً يا بني، لا تتركني هكذا في بيتي الضيّق العتيق! فصاحت الأم فرحة واغرورقت عيناها بالدموع:

– الحمد لك يا الله، الشكر لك يا الله، المجد لك يا الله! ووعدت ابنها بأن تعطيه، خفية عن أبيه، القروش البيضاء التي خبّأتها ليوم أسود أبعده الله عن كل محبّ. وكان شمال يعرف أنّ ما لديها يكفيه لبناء غرفة لكل مزار. كان يختلس بعض نقود أمّه من مخبئها، والحق يقال إنّه كان يعيد بعض ما يختلس، حين يتدبر أمر الحصول على بعض المال من عمل عابر. وكان يُقبّل النقود قبل أن يودعها محشرها، داعياً الله أن يسامحه.

ودعت أمّ سلطان الله أن يوفّقها في إقناع رجلها بأن يسمح لابنه شمال بأخذ الجرافة. كان شمال قد رسم الحزن والانشغال على وجهه، بمهارة أعانته على هزيمة الفرح الذي تراقص له قلبه، مبدياً أسفه من أنّ مواضع المزارات كلّها صخر، وأنّه لِحفر قواعد للأعمدة وأسسٍ للجدران بالفأس سيحتاج إلى وقت طويل. ووافق الأب.

–149–

وأعلن منادي الضيعة، عن سطح حاووظ الماء، أنّ شمال بن بوسلطان، قَبِل الله توبته فأعاده إلى رشده وأثابه، سيقوم ببناء مزارات الضيعة، وأنّه سيضطر آسفا إلى إغلاق كلٍّ منها أسبوعين إلى ثلاثة، ريثما يفك قالب الخشب من تحت سطح البيتون المسلّح الجديد.

– ادعوا له ليوفّقه الله! صاح المنادي، فدعا له الأهلون. وخرج شمال بالجرّافة بعد أن كسرت أمّه بيضتين علّقت قشرتيهما على أسنان شفرة الجرّافة، واحدة للمبغضين وأخرى للحسّاد. وأشعلت رزمة من الميرميةِ طاردةِ الأرواح الشريرة في قعر الشفرة. وأذنت له بالخروج، مشفوعاً بلعناتها على كل من لا يحبه ويتناوله بلسان السوء ولا يتمنى له الخير. وفي طريقه إلى هناك، راح شمال يتذكّر الشيخ عاكف ويدعو له بطول البقاء، واعداً إياه بعباءة شتوية من وبر الإبل مطرّزة بالذهب، وبأخرى صيفية من الحرير الطبيعي، إذا وفّقه الله. وتذكّر شمالُ المعلّمَ وابتسم لصورته المرتسمة أمامه على طريق جبل الصنوبر.. وأضمر وعداً بمكافأته بدرّاجة نارية قوّية، سبق شمال أن فكّر بشرائها لنفسه، بدلاً من الحمارة الرمادية التي تثير سخرية تلاميذه الصغار. وابتسم لراجي في مخيلته ولم يدر بماذا يعده.

–150–

هوب.. هوب! وتوقّفت كاترينا، يومذاك، وأطفأ بوسلطان محرّكها ليسمع جميع الركاب صوت المنادي ويفهموا فحوى الإعلان. وخرج الصغار، وراحوا يهتفون:

– من الشمال للجنوب، بوبرنيطة ناوي يتوب، أوع تصدّق يا مجذوب! وكان شمال يعتمر قبّعة إفرنجية كثيراً ما تمنّى الصغار إسقاطها عن رأسه. وفي صباح اليوم التالي، قرأ ركاب كاترينا على ورقة لصقت على زجاج الباب "ممنوع ركوب بوفيصل".

-151-

علامَ أراد شمالُ شكر المعلّم ومكافأته؟ أمر لم يدركه المعلّم حتى حين جِيء بالدرّاجة إلى داره، واستمات ابنه بإبقائها أمام ابتسامة أبيه الشاكرة والمعتذرة وغير الفاهمة في آن.

– أنت معلمي وهذا كاف يا أستاذ، الله يخلّيك لا تخجلني ولا تحرجني بالأسئلة.

– كيف أنا معلّمك!؟ ضحك المعلّم بمودة، فقد كان شمال غادر المدرسة في الصف السادس..

– معلّمي وأكثر، والذي أعطيتني إياه أهم من الشهادات بكثير! لم يفهم المعلّم سبب انفعال شمال، ومع ذلك رجاه قبول الاعتذار، وخرج معه إلى باب الدار. وكان الأولاد قد التموا هناك حول الدرّاجة الجديدة، وراحوا يسألون ابن المعلّم عن سعرها وعمّا إذا كان (موتوره) أسرع من (موتورات) الشرطة أم لا.

– أبوك، يا أخي، غاوي بهدلة! قال شمال وهو يستلم الدرّاجة من ابن المعلّم.

-152-

وقبل يومين من اعتذار المعلّم عن قبول الدرّاجة من شمال، كان صافي بن بارود الضابط الذي رفضته ابنة المعلّم حين طلب ودّها، وكان شقاره الزائد نحو الاحمرار وانسلاخ جلد أنفه ومحيط فمه يثير قرفها، كان أوقف سيارته اللبنانية المسروقة ذات اللوحة العسكرية المزوّرة، قاطعاً الطريق على حمارة المعلّم وناداه مستهزئاً:

– ما رأيك لو نتبادل!؟

– أغنانا الله عن سياراتكم يا سيادة الملازم أوّل – قالها المعلّم مشدداً على رتبة الشاب الذي تقدّم إلى البكالوريا في واحدة من غرف الامتحانات التي كان يُجْمَعُ فيها الراغبون في الانتساب إلى الكليات العسكرية. وكانت الأسئلة تحلّ في الخارج وتنقل إلى ضباط المستقبل– الحمير أحسن!

-153-

وكان ابن أخت المعلّم، الذي جاء بالكباب هديّة إلى ابنة خاله لاستمالة قلبها، كان رقيباً في سرية يترأسها صافي بن بارود. وكان الرقيب عرف بمحاولة الملازم الأول سرقة حبيبته منه،

فراح يتحيّن الفرصة لكسر أنف غريمه، كَسْرِه بالمعنى المباشر وليس المجازي. وراح يخطط لفعل ذلك هناك في السرية. كان الرقيب يبحث عن طريقة للتسريح من الجيش. ولم يكن يعنيه كثيراً أن يُطرد أولا يطرد. كان البحر هاجسه. وكان كثيراً ما يحلم باصطياد أسماك عملاقة. وحين كانوا يقولون له إن السمكة في المنام رزق، يفرح وينتظر الثروة التي ستهبط عليه من كل بد. وذات صباح، عرف كيف يوجّه لكمة قوية إلى أنف الملازم الأوّل، باليد نفسها التي وضعت الكباب بين يدي ابنة خاله. وحيّاه رفاقه في السرية وصخبوا، منتزعين المسدّس من يد الملازم الأول ذي الأنف الراعف.

– وحش!– صرخوا تحية لقبضة رفيقهم– ثم التزموا الصمت وعبسوا، بناء على أمر عسكري من قائد الكتيبة.

–154–

هوب.. هوب! ومع مجيء الرقيب إلى بستان خاله بالكباب، تنزّل على الزيتونة التي كانت البُنيّة تحتها اسم (زيتونة الكباب). وكان الرقيب، في محاولته لإيقاع ابنة خاله في حُبّه، لم يجد طريقة أفضل من الهرب من معسكره في سرايا الدفاع بالقرب من دمشق، والسفر إلى اللاذقية، وشراء الكباب، وصعود الجبل بما يحمل لوضعه بين يدي البُنيّة التي كانت تضحك عند رؤيته ثم تبكي على فقره وقلّة عقله بعد أن يغادر.

الفقر يبدو من جهة الظهر أكثر مما يبدو من الوجه. كثير من البشر حين نراهم من خلف يبدون مثيرين للشفقة! ربما لأننا نحزن على الراحلين أيا كانوا.

رأته ابنة مريم يتعثر بحجارة التخم ويحمل بيده شيئاً ما فأعدّت نفسها لملاقاته وأخفى أولادها ضحكة عجزوا عن إمساكها فيما بعد:

– أهلاً وسهلاً يا خيي! جايي من الشام، الله يعطيك العافية، حتى تجلب لنا الكباب، رُح خُذ الكباب لأمّك المسكينة..يا الله ياعيني.. ياالله، الله معك، عجّل قبل ما يبرد!

وبكت ابنة خاله حزناً عليه. فقد راعها الفقر المرتسم على ظهر بزته التي أتت على لونها الشمس. وذات يوم، اجتاحت الحمّى جسد البنيّة. وكان المعلّم، ساعتذاك، على سطح بيته يُصلّي، عاتباً على السماء التي تتلقى الدخان بذاك الهدوء، متابعاً النار المندلعة في بستانه.

–155–

وكان راجي يزور بيت أخته، ويجالس هناك زوجها علي. كان سقف البيت واطئاً يتكئ على ساموك صُنع من جذع سنديانة كبيرة. وكان السقف أسود كما لا يكون السواد داخل البيوت. كان ذلك بفعل الدخان. كان علي يُقطّر العرق تحت هذا السقف. وكان علي وراجي يملآن كأسيهما

من العرق الساخن الخارج من (الكلكة) للتو. وما إن يجترع علي الكأس الثانية، حتى يقترح على راجي القيام بثورة:

– ثورة صغيرة، بضيعة واحدة! نحرق كل بساتين الشيخ، ورثة ما لنا فيها حبة تراب، وندلق الزيت ونكسر الخوابي، ونحرق البيت ومن فيه، وحتى الشيخ نريحه من حياته الذليلة!

– ونحرق الخمّارة.

– الخمّارة، لا!

– والمدرسة!

– ونطلع، ونعوي في الجبال.

– يا الله، ما أحلاها الثورة! لكن اليوم تأخر الوقت. وتضحك ابنتا أخته المشلولتان. ويفكّر الرقيب بطريقة أخرى تنتهي إلى العواء. ويقف على العتبة بانتظار سيّارة عسكرية ليغادر مع سائقها إلى الشام حيث يقف في مواجهة العَلَم كل صباح.

–156–

لكَمْ يريع الأحياء أن يروا ذلك السؤال الصعب في عيون الموتى فيغلقونها! وجاءت سيارة عسكريّة بجثّة نُور بِكر عليّ. وتحجّرت عيناه، وارتسمت نصف ابتسامة على وجه راجي، وعلقت في مكانها ممسكةً بسؤالٍ على النصف الثاني من وجهه المتطاول. وعولت الأم وراحت تمزّق الحصير العتيقة بأسنانها، ثم ترفع رأسها إلى السماء:

– يا الله، على هذه الفقيرة، عليّ أنا، قوتك!! وغادرت العربة العسكرية إلى الشام، بعد أن قالوا لعلي:

– ابنك، ضاق نفسه، وفجأة مات! وضحك الرقيب.. ضحك بقوّة، وراح ينطح أخشاب الباب قبل أن ينهار على الأرض، مجهشاً بالبكاء.

–157–

وبعد ذلك ببعض عام، هدرت عربتان في شوارع عين الغار، إحداهما رمادية والأخرى مستنقعية اللون. لم يكن آمراهما قد اتفقا على المجيء معاً. ولم يكن أحدهما يعرف الآخر، ومع ذلك فقد تبادلا ضغطة على الزمّور، تحيةً عند زاوية بيت المعلّم. وتابعت إحداهما قهقهاتها نحو ساحة الضيعة، فيما انعطفت الأخرى نحو اليسار، قاصدةً باحة المدرسة حيث المعلّم في غرفة الصف يرسم بالطباشير وجهين أحدهما حزين وآخر فرح.

-158-

ويفرح المعلّم لدروس الرسم ويقول فيها ما يقوله في دروس التربية الدينية والقراءة. القراءة لا تعني إجادة اللفظ بل وقراءة معاني الأصوات، مستقلة ومندغمة أحدها بالآخر. كل قراءة حالة من التناغم، وكل لوحة يجب أن تكون كذلك. في القراءة ألوان وأصوات، تشكيل وموسيقا، وللكلمات معان خارج حروفها أو ما فوق حروفها.. ويبتسم المعلّم. والفرق بين الحزن والفرح اتجاه القوس، فأنت حيث توجّه قوسك يتّجه النشّاب. فتصيب أو لا تصيب وتفرح أو تحزن أو تراهم عليك محزونين. وتتصبغ أصابعه، تارة بطباشير الحزن، وأخرى بطباشير الفرح.

يرسم المعلّم ويقول بصوت خافت يقارب الهمس، كأنما هو يخاطب الوجوه التي يرسمها والطباشير.. ويرسم التلاميذ صامتين..

– مات المعلّم!! يقول ساهماً، راسماً خطاً مستقيماً بالأبيض يتوسط السبّورة! المستقيم خط الموت، وليس لأن راسم نبض القلب الكهربائي ينتهي مع توقفه إلى ذلك! يرفع التلاميذ عيونهم عن دفاتر الرسم ويصيحون:

– يعيش المعلّم! ويبتسم المعلّم، ويعود إلى خطّه المستقيم. وبيده طبشورة بيضاء، وعيناه تمسحان الخط الذي يمتد، خارجاً عن إرادة يده، إلى الجدار، ومنه إلى الباب، ثم إلى شجرات السرو، ومن هناك عبر الكروم إلى مكانٍ ما.. لو كان سهماً!؟

-159-

– وإذا صوّبتم سهمكم على شجرة زيتون، فإلى أي جزء منها تصوّبون؟

– إلى عنقود ناضج!– يصيح التلاميذ– من أجل أن يقطر الزيت.

-160-

وكان تنزّل اسم (المفتوق) على زيتونة في وسط بستان المعلّم! كانت رغبة علي جاد الصغير في استكشاف العوالم الغريبة أقوى من سلطة المعلّم وابنة مريم على إخضاعه. وكان يسعى إلى دخول دوائر الممنوع. عائلات الممنوع في بيت المعلّم وابنة مريم، كانت محددة بدقة. فثمّة من لا يجوز مصاحبة أولادهم. وهؤلاء الأولاد بالذات، صَعُبَ على علي جاد الصغير مقاومة الرغبة في استكشاف عوالمهم. لكنّ انضمامه إليهم، لم يكن باليسر الذي يتصوره الكبار. كان هناك ولاء يجب إثباته. ولم يكن ذلك هيّناً على من يُجبَرُ على غسل يديه وقدميه بالصابون مرّات عدّة باليوم..إثبات الانتماء إلى من لا يغتسلون بالماء إلاّ ما ندر، تأكيداً على الانتماء إلى التراب.

-161-

راحت المزابل المقامة على أطراف الضيعة، وما يُلقى فيها من نفايات وأشياء لم تعد قابلة للتدوير، تعلو يوماً بعد يوم، مكوِّنة تخماً بين المدرسة ووادي الجراد المفضي إلى البحر، من حيث كان الأهالي ينتظرون قدوم الإسرائيليين. وكانت هذه المزابل مكاناً لترويض علي جاد الخارج من الماء إلى التراب وما يُطمر فيه. وكانت الأقدام، في بيت المعلّم، تغسل ثلاث مرّات، في اليوم، بالماء والصابون. كان الخبز يضعه على أقدامهم من تحلّق منهم حول صينية القش لتناول الطعام على الأرض.

-162-

نظر رئيس العصابة إلى علي جاد الصغير نظرةً فاحصة مستهزئة، وطلب منه الدوران حول نفسه ثم طلب من أخيه الأصغر، الذي كان فرداً في العصابة مقرّباً إليه بحكم الأخوّة، إحضار بصلة يابسة.

– نقّيها زرقا! وكان يعني زرقاء اللون، أي ذات طعم حريف. جِيءَ بالبصلة الحادة، وأُمر ابن المعلّم بالتهامها دون أن ترمش عيناه. قضم علي جاد البصلة من جهة جذورها وبصق كتلة الجذور، مع حبيبات التراب على أرض الدار. نظر المُعلّم – المعلّم هذه المرّة هو رئيس العصابة– نظر إلى المكان الذي استقرّ فيه مبصوق البصلة، وهمّ بإعطاء أمر لكنّ أمّه أوقفته. كانت علاقة القربى التي تربط المرأة بابنة مريم قد أوجبت عليها قولاً، غالباً ما كانت تسكت عن مثله في حالات ليست أقل ضرورة:

– لا ترد عليه، روحي فداك، كُل البصلة ولا ترد عليه، كلها عين خالتك!. لم تبتسم المرأة حين دعت علي الصغير إلى التهام البصلة متمنيّة له الصحة.

– ألف صحة على قلبك! ولم تزد على أن نظرت بأسى صوب ابنها الذي انضم بعد ذلك بسنوات إلى عصابة تهريب. وهناك رأى أنّ عضلاته تتعرّض للإهانة من شباب صغيري القد. لم يتقبّل أن يعاملوه بكل ذلك الصلف والاستخفاف، فرأى أن يعمل لحسابه الشخصي. مرّت عمليته الأولى بسلام، وعاد من الثانية بعظمة فخذ مفتتة برشقة كلاشينكوف. عادوه في بيت أمّه وقدّمو له هديّة وتمنّوا له رجاحة العقل.

-163-

كانت الهدية التي تلقّاها رئيس العصابة الجريح حماراً. وجدوا الحمار عند أطراف الضيعة فخطر لأحد القادمين الثلاثة، اقتياده إلى بيت رفيقهم المارق. وراقت الفكرة للثاني، فاتجه الثالث نحو الحمار الذي لم يفهم لماذا ينظر إليه هؤلاء الغرباء السود الثياب بهذه الطريقة. ظنّ أحداً ما

أرسل في طلبه، لشغل وظيفة مرموقة في مزرعته، لكنّ ظنّه خاب. لم تكن لحمار (حارة المدرسة) في عين الغار نباهة بنيامين في (مزرعة الحيوان). فسرعان ما فُكّ حبله عن جذع شجرة التوت وجِيء به إلى الجريح.

رَبطَ المقاتل الصامتُ رسنَ الحمار بمقبض الباب المفتوح على سرير الجريح، ودخل عقب رفيقيه. ظنّهم الجريح في البداية جاؤوه راكبين حماراً بدلاً من سيارة الجيب السوداء التي اضطروا إلى إبقائها في مدخل زاروب ضاق دونها.

بالطبع، ما إن رحلوا حتى فكّت أم المهرّب الرسن، فعادت الهدية من تلقاء نفسها إلى شجرة التوت، وحكّت عنقها الطويل بالجذع الخشن ونهقت ثلاثاً هذه المرّة على غير عادتها.

في طريق عودته، أخرج الحمار غرموله، وراح يهزّه يمنة ويسرة، معلّماً طريقه بسائل لزج، لم تفلح في قطع خيطه عن أصله حجارة الطريق. ولعلّ الحمار، كان يعبّر عن بهجته بهذه الطريقة. ومن يدري، فربما كان الجريح قد تباهى يوماً باعتلاء ظهور أفراد عصابته الصغار.

-164-

بعد البصلة اليابسة، كان على ابن المعلّم أن يحمل معلّمه الجديد، الكبير القد، الغليظ العظم، الطويل القامة، إلى حيث يشاء. كان ذلك شرط الانتماء إلى الجماعة. ومرّة بعد مرّة، ذَكّرَ وزنُه الثقيل بنفسه في جسد علي جاد الصغير، فانفتق نسيج جسده في أضعف مواضعه. وتلك الزيتونة التي انكشف سرّ الفتق تحتها، تنزّل عليها اسم (زيتونة المفتوق).

-165-

ولم تهدأ الانفجارات مذ جاؤوا. بات للديناميت معان أخرى، واكتسبت الحجارة في أيدي الأولاد معنى للصلابة لم يكن لها من قبل. وذات عصر، فُجّ رأسٌ وانحدر إلى معسكره جريح، واهتزّ الجبل عن انفجارات عميقة تنادي حمم الأرض. وكان هدير الجرافات لا يزال يأتي من بستان المعلّم في جبل الصنوبر.

-166-

تذكّر المعلّم بستانه، وهتافات ثلة من الأولاد عصوا أمره بدخول المدرسة، وظلّوا يدورون حول غرف الصفوف ويهتفون:

– زيتوناته ماتت ماتت، والطابة ب(گوله) فاتت، والعسكر أشطر بكتير والباشق ما عاد يطير..! وارتسمت على وجه المعلّم أقواسٌ مكسّرةٌ، قبلما يعيده من شروده إلى تلاميذه اللاهين عنه بثرثراتهم في غرفة الصف، زمّورُ عربةٍ تدخل باحة المدرسة.

لم يكن المعلّم بانتظار هذه العربة، خلاف الأخرى التي وقف بانتظارها رجال خاصّون في ساحة الضيعة. كانت العربتان قد اضطرتا إلى السير ببطء شديد قبل وصولهما إلى حيث افترقتا، واحدة نحو الساحة وأخرى نحو الباحة. وكانت القهقهات تنتشر منهما.

-167-

كان عزّوز المجنون قد رأى العربتين تنعطفان من إسفلت المنتجع صوب دار أهله، حيث العجوز تقوقئ حولها الدجاجات وعجوزها يترقّب، متجهّماً، هطول المطر ويناقل مع جاره حصيات المنقلة، بانتظار أن يتقوّس الغيم ويرسل أولى القطرات.

ركب عزّوز قصبته، قاطعاً الطريق على العربتين العسكريتين. وراح يقفز على فرسه، ممسكاً لجامَها بيد، مشيراً إلى السائقين أن يلحقا به باليد الأخرى. كان لدى عزوز من الجنون، ما يمنعه من رؤية الخطر في حديدٍ يكاد يسحق ذيل فرسه. ومن بواكير الغضب، انتقل آمر العربة الأولى إلى الضحك، حين رأى الفارس يشدّ لجام فرسه ويستدير نحوه. وبدأت الفرس بالرقص على قائمتيها الخلفيتين، وصهلت قبلما تنطلق خبباً. كان عزوز يحتفي على طريقته بالقادمين، وكان يعرف من يكونون.

لم تكن تلك المرّة الأولى التي يرى عزّوز فيها راكبي الحديد يأخذون أقرباءه إلى أمكنة بعيدة يعودون منها بآلات سوداء كبيرة تملأ الزواريب بسميرة توفيق. كان خالاه قد ذهبا في موسم سابق ومعهما أحد أعمامه، وكان أخواه قد رحلا في الموسم الماضي، وكان عزّوز قد أفرحه ذلك. فأحدهما كان يوجعه ضرباً كلما رآه راكباً قصبته خارجاً بها إلى المدرسة، وكان الثاني قد وعده بأن يشتري من أجله آلة تسجيل ويتركها في دار أهله.

ظنّ عزوز أن العربتين جاءتا بآلة التسجيل الموعودة، لكنّ أمله خاب حين تبيّن نيتهما متابعة السير متجاوزتين دار أهله.

عند الدار، دارت فرسه حول نفسها وأشارت يد الفارس إليهم بالنزول ضيوفاً على أهله. لكن الضحك، وأمراً بمتابعة السير، وأيدٍ امتدت من نوافذ العربة تأمر بالتقدّم، جعلته يخبّ بفرسه، فتخبّ به القصبة إلى زاوية بيت المعلّم، دون أن ينتبه إلى أن العربة الأولى، مع شدِّهِ لجامَ الفرس نحو المدرسة، خلّفته إلى يسارها، متابعةً قهقهاتها نحو الساحة حيث المختار، وطاولة وأربعة كراس من خشب التوت.

-168-

طلب الآمر من المعلّم، بابتسامة قتالية ودودة ونبرة واثقة، إخراج طاولة الإدارة إلى باحة المدرسة، كما فعل في المرتين السابقتين. وأوعز بنظرة صارمة إلى مقاتليه المرقّطين حمْلها إلى

هناك، قبل أن تُفلت كمّاشةُ يده راحةَ يد المعلّم التي غوفلت فتداخلت سلامياتها على وجعٍ كما لا يليق بيد تزرع الأبجدية في النسغ كل صباح. وقنأ وجه المعلّم. وقبل أن تحرر الكمّاشة يده، تمنّى الآمر، مطبطباً هذه المرّة باليد الأخرى على كتف (ابن العم)، كما راح يسمّيه، تمنّى على المعلّم إرسال شياطينه إلى البيوت لإعلام الجميع بقدوم لجنة التطويع في سرايا الدفاع. لم يضطر المعلّم إلى النطق بأية كلمة، فها هو الآذن يقرع جرس المدرسة، إيذاناً ببدء الاستراحة بين درسين.

ومع سماع صوت الجرس، خرج التلاميذ وراح صبيان الصف السادس الذي وضعت الطاولة على مقربة من باب غرفته يتقافزون حول المرقطين، متطلعين بحسد إلى المسدسات اللامعة التي تمنطقوا بها.

– يا الله يا شياطين، كم سنة وتلعبون بمسدسات مثلها.. أروني شطارتكم ونادوا الشباب. قال كبير العسكر.

-169-

– هوب.. هوب! وتوقّفت كاترينا، ذات صباح. كان أحدهم يلوّح بيديه كلتيهما عن سطح بيتٍ في بستانٍ متاخم للطريق، لاحظه أحد الركاب فصاح "هووووب هوب". وكان لا يندر أن تخرج امرأة إلى شرفة بيتها بقميص النوم، وتصيح، راجية السائق أن يتوقّف ريثما ينتهي زوجها من ارتداء ملابسه. وتتوقف الحافلة. وتلتفت الرؤوس نحو المرأة التي لا تغادر مكانها قبل أن يصعد زوجها الحافلة، شعوراً منها بأنّ عليها أن تسلّي الركاب وتخفف عنهم عبء الانتظار. ثم تلوّح بيدها، مع انصراف الحافلة، فيما جندي غريب يسرق نظرة إلى امرأة لم ير مثلها حيث يعيش، قبل أن تسدل عيون رجال الضيعة المحمرّة ستائر الخوف أمام عينيه.

-170-

كان بعض الشباب قد تجمّع في الساحة أمام باب المستودع الذي شغلته لجنة التطويع في المخابرات العسكرية. وكان، في داخله، رئيس الجمعية الفلاحية مع المختار، ومساعد سابق في المخابرات إياها، ومعلّم خدم إلزاميته هناك وترك التعليم وتفرّغ للعمل في شعبة الحزب. وكانت هناك طاولة حديد عليها ميزان، وغير بعيد عنها قبّان.

تراهن المساعد مع رفيقيه المسلّحين، خلافه، ببنادق آلية، على أن رئيس الجمعية نَحُل عن المرّة السابقة التي التقوه فيها، وراهن المختارُ المساعدَ على أنّ شاربيه استطالا عن آخر مرّة رآه فيها، وأنّ مزيداً من الشعر في صدره شاب، غامزاً إلى ما قد يكون شاب في غير مكان. وبدأ

دخول الشباب الراغبين في التطوّع. وبعد تبادل بعض النكات البذيئة، قطع المساعد قهقهته فجأة، إيذاناً ببدء استقبال الشباب.

-171-

– استح يا ولد! صاح المعلّم مؤنّباً واحداً من تلاميذه السابقين، لم يفلح في تجاوز حاجز الصفّ التاسع عن ثالث محاولة. وندم المعلّم لأنه خرج عن طوره. كان الولد في طريقه إلى اللجنة يشتم، واضعاً إحليله الصغير في المقررات المدرسية جميعها:

– ...في الرياضيات...في الفيزياء....في الكيمياء...في اللغة...وكانوا هناك يضحكون، وفهم أنّه يجب أن يكرّر شتم مقرّرات ويسكت عن أخرى، وختمها:

– وفي المدرسة وفي الأساتذة! وفي صباح اليوم التالي وجد المعلّم نفسه يتحدّث عن معنى العيب وعن قيمة الخجل!

ووجم راجي حين سمع شتائم الشاب الصغير، وتذكّر حديثه مع زوج أخته علي، فقال في نفسه:

– لا يكفي يا صديقي علّوشي أن نحرق بساتين الشيخ والخمّارة والمدرسة.. علينا أن نحرق كل شيء ليخرج من الرماد بشر غير هؤلاء! وكان أولادٌ جددٌ انضموا إلى أولاء، وراحوا يجوبون شوارع عين الغار وهم يرددون:

– ...في الرياضيات...في الفيزياء...في الكيمياء..

-172-

وكانت، ذات صباح، حاولت الاتكاء على ذراعها الأيمن فكسره الحديد. وعلا ظهرُها فسحقه الجنزير. فهمدت جثة زيتونة (يا عيبو) وجُرّت إلى النار. وكان في بستان المعلّم الذي قُدّ زيتونه من حلم بعيد، كلما محته يد الشك أعادته إلى الأفق أصابع اليقين، كان تنزّل اسم (يا عيبو!) على إحدى الزيتونات. وكان علي جاد الصغير قد تربّع تحتها مصالباً قدميه على التراب، في بيجامة من الفانيلا لم يجد الأهلون أفضل منها لباس عمل للزراعة مريحاً. وكانت بيجامته قد انفكّت خيطانها في منطقة السرج فبان منه ما يجدر ستره. وفجأة جاءت ابنة (الضبابي) الصغيرة التي تكبر بنات صفّها بثلاث سنوات. جاءت تحمل دلواً من القمح المتبّل باللبن. طعام رائع ساعة الحرّ والعطش والجوع، ولحموضته في آخر النهار فعل مثير للبهجة. فالحموضّة المخرّشة تصعد إلى الرأس الفارغ إلاّ من طنين أسراب ذبابة ثمار زيتونٍ تحط على الوجوه والأيدي والعيون. جاءت البُنَيّة يحمل لسانُها تحيّةً من أبيها للمعلّم، وتحمل يمناها الدلو البارد، ويسراها رقعاً سمراء شبيهة بأرغفة شهيّة من خبز التنّور.

-173-

كانت زوجة الضبابي على عداء مع الأشكال المنتظمة. وكثيراً ما كانت تحطّم شكل الرغيف المنتظم فيخرج من تحت يديها بلا شكل، على الرغم من (الكارة) الدائرية التي يُمدُّ عليها الرغيف قبلما يدخل التنّور. لم يسألها أحد عن أسباب ذلك التشوّه المقرمش اللذيذ! ربما كانت تفعل ذلك نكاية بعيني زوجها الدائريتين، أو لعلّها كانت تخبز هكذا أرغفة خصيصاً للمعلم الذي لا بد أن تكون الدائرة والخط المستقيم عماد مدرسته. لم يخرج من أفواه أولاد المعلّم المشرعة على رائحة الخبز الشهي أي سؤال سوى السؤال عن اللحظة التي يوضع فيها الخبز بين أيديهم. ووضع الخبز على التراب.

-174-

وبعد يومين، جاء الرجل المدوّر العينين، راجياً المعلّم إبقاء ابنته في صفّها سنة أخرى. لم يكن الأب يريد لابنته الرسوب، لكنه لم يجد طريقة لإبقائها تحت رعاية المعلّم إلاّه. أراد تجنيبها الانتقال إلى المدرسة الاعدادية البعيدة عن الضيعة بضعة من مئات الأمتار تضاف إلى جبلين وثلاثة وديان تفصل ضيعتها عن عين الغار:

– الله يحمي أولادك يا أستاذ.. يا آدمي يا ابن الأوادم، اترك البنت عندك! حصل ذلك في الصف الرابع والخامس وها هو الرجاء يتكرر في الصف السادس.

– حرام، لا يجوز، البنت ذكيّة ومجتهدة! يقول المعلّم، فيجيبه أبوها مستغرباً:

– اتركها بمدرستك، الله يرفع من شأنك، حتى يفرجها الله.. الله يفرّج الكرب عنك!

-175-

لو رأى الرجل سرج بيجامة علي جاد في تلك الوضعية التي رأتها البُنَيّة، لما طلب إبقاءها في عهدة المعلّم. نظرتْ البنيّة، التي كانت قد دعيت إلى الجلوس قبالة علي جاد ولبّت الدعوة، إلى ما بدا هناك خجولاً، ثم مستكشفاً. واحمرّ وجهها، وراحت كلما حاولت الهروب بعينيها إلى حبّات الزيتون أو الذبابات الطائرة تقودانها إلى ذلك المكان بالذات. وسرعان ما اكتشفت ابنة مريم سرّ اضطراب البنيّة، فدار علي جاد في مكانه، طاحناً التراب تحت مؤخرته، ونهض إلى شجرة أخرى. وما إن ابتعدت الضيفة خطوات كافية لتشتت الضحكات، حتى تنزّل اسم (يا عيبو) على زيتونة انكشف تحتها ما يجدر ستره.

-176-

– أهلا.. أهلا بابن أخي الذي ما ولدته أمّي! امتدح المختار أوّلَ الداخلين، مؤكّداً أنّه من عائلة شبابها لا يضيّعون وقتهم بالكلام الفارغ، وأنّ الجميع هنا يهابونهم فهم يعرفون كيف ينتقمون من أعدائهم، وأنّ هذا الواقف أمامه إذا لزم الأمر:

– وأنتم سيّد العارفين، يذبح البقرة مثل ما تقطع أنت حبّة البندورة ولا يرفّ له جفن! وهم أناس إذا أحبّوا لا يبخلون بأرواحهم في سبيل الذي يحبّونه، ولكن ما فيه بعين الغار واحد يستحق مثل هذا الحب!

– فيه فيه!! – اعترض المساعد، وكانت عائلة أمّه من عين الغار. وكان قد كُلّف بمهمّة تقديم ترشيحات من ضيعة أمّه. ونجح في اختياره مرتين، فجاءت ثالثة فُوّض فيها بأخذ البصمات هنا دون الرجوع إلى أسياده– ولماذا البقرة!!؟ ضحك المساعد.

– لعيونك! بقرة، فدّان.. كلب.. ابن شرموطة.. الذي تريده يا معلّم! صاح الأسمر الممزق الحاجب دون أن تغادر عيناه حديد الرشاشين الموضوعين على الطاولة.

-177-

ومع دخول المتقدّم الثاني، عاجله المعلّمُ السابقُ:

– أهلا بابن المثقفين..!– وراح يمتدح مكتبة أخيه الأكبر الذي أُسيئ الظن به نتيجة بعض الكتب التي كان يقرؤها، فقد تاب عنها بإذن الله– لكن، والله، والله هذا الشاب أفهم من أخيه ويعرف مصلحته أكثر منه على الرغم من أنّه يقرأ أقل منه..

– بلى يا قبضاي؟ الشغل معنا لا يحتمل لعب، وما فيه أخ وأب.. وإذا تحمّل الرفيق مسؤوليتك فمن واجبك أن تكون على قدر المسؤولية.. مستعد حتى أرشّحك؟!

– مستعد.. مستعد!! أجاب الرفيق عنه، وهمس مع خروجه للمساعد بأنّه رفيقهم، وأنّهم لولاه لما عرفوا بوجود كتب ممنوعة في مكتبة أخيه.

-178-

وراح تلاميذ المعلّم بعد خروجهم من غرفة الصف، مع انتهاء درسٍ عن اكتشاف العرب للصفر، راحوا يقطعون المسافة أمام لجنتي التطويع جيئةً وذهاباً، وهم يصيحون، متأهّبين للهرب:

– ...بالحديد المقرقع... بالبارود المفرقع... بِ أم السطّيحة، بِ أم البطيخة! يا موتى قوموا قوموا.. والحديد جاء يومو..

لماذا البطيخة؟ لا أحد يعلم! أهو منطق الصغار في فهم الأشياء، أم العلّة في الشاعر بوفيصل؟ كان الصغار قد تعلّموا كيف ينظمون الهتافات. وكان أحدهم قد كتب على جسد كاترينا تحت جنح الظلام "عربة نقل الموتى ".

-179-

هوب.. هوب! استفاق علي جاد الصغير من صدمته على يد العطّاس تمسح الرذاذ البّني عن وجهه. وكانت عطسة مشبَعة بالنشوق قد عبرت وجهَه المنكوب. التفت الركاب صوبه، وقال واحد ما غير قاطع الحجارة

– ما أبوك، الله يطوّل عمر المعلّم، الذي مات أبو هذا العاطل! من سنتين ونصف ما زار بيت أهله!

ونظرتُ، وكان العطّاس قد انتهى من تنظيف وجه علي جاد الصغير بمنديله، فرأيت عسكرياً نحيلاً في بدلة خاكي رمادية ترتسم هالتان سوداوان حول عينيه الغائرتين يرسل نظرة ميتة إلى مكانٍ ما، عابراً رؤوس الركاب في المقاعد الأربعة التي تتقدمه.

– لعنة الله على هذه الخلفة!! تابع الرجل. مع اللعنة، تزحزح العسكري النحيل من مكانه، فضغط جاره في المقعد كتفه إلى أسفل ونهض آخر إلى الممر سادّاً الطريق أمامه.

وببرودة تحاكي موت عينيه، أزاح العسكري النحيل يدَ جاره ونهض. انكمش مرسل اللعنة في مقعده وتلاشى عنقه الذي بدا من لحظات بطول ذراع. وتأهّب الواقف في الممر لسدّ الطريق أمام العسكري. لكنّ توتيره لذراعيه كان غير ذي فائدة. فقد أدار العسكري له ظهره واتجه صوب باب الحافلة الخلفي. وهناك خبط على الحديد ثلاث خبطات متتالية. فهِم السائق أنّ عليه التوقف. وكان يفصله عن مفترق ينسلّ منه درب ترابي صاعد صوب تلٍّ تسكنه ثلاث عائلات تزاول تقطير العرق وتخمير النبيذ، تسع وثلاثون خشبة سياج وعشر بيضات مفقوءات، عُلّقت قشورها عند طرفي السياج وفي وسطه. كان السياج يحمي بستان حمضيات اقتطع من بقية غابة تُرك شريط منها لفقء العيون.

-180-

تحت قشور البيض وقف شيخان صغيرا القد بانتظار الحافلة. بدا واضحاً أنّهما يقصدان دار الميت. كانت سمات الواجب ترتسم على وجهيهما. لاحظ العسكري النحيل، ولم يكن قبل ذلك قد ألقى بالاً إلى المفرق القريب، أنّ السائق ينوي ترك الحافلة تتهادى إلى هناك، فخبط بقوّة أكبر على الحديد، ولكنه لم يصرخ ولا أحد سمع صوته. ضغط السائق على المكابح بقوة كادت تُسقط حارس الممر، الذي لم يفهم شيئاً مما يجري إلى أن صاح به جاره:

– اقعد، قبل ما تفقد محلّك يا فهيم! بدا جاره حريصاً على عودته إلى مكانه قبل صعود الشيخين، فآخر ما كان يريده أن يجلس أحدهما بجواره.

-181-

وكان تلاميذ المعلّم، قبل ولادة خمسة من طوابق شجرة الأروكاريا الوحيدة في عين الغار، المنتصبة أمام حجرة راجي، خرجوا يصيحون، وخرجت ابنة مريم إلى السطح لا تعرف أتضحك أم تبكي:

– فقست بيضات القاقي.. ودّع ودّع لا تلاقي..

-182-

سبعة من الشبّان رحلوا، هذه المرّة. وكانت باءت زيارات المعلّم المتكرّرة إلى أهاليهم بالخسران. وفشلت كل حيل المشايخ والمعلّمين التي يتقن بَسْطَها لغةً تجعل القبول بما توحي به حلواً هيّناً على القلب. ولم ير المعلّم معنىً لمحاولة إقناعهم بأن المستقبل لمن يمتلك الحرف، طالما منتسب جديد إلى سرايا الدفاع يحصل على مرتّب أعلى من مرتبه هو المعلّم القديم، ناهيك بمهمّة لبنان وبفائدة من هنا وهناك. وأمّا من يتعاقدون مع المخابرات، فمن العدم إلى السلطة، من عدمية الحبر إلى سلطة العنف. كانوا يبتسمون له بلباقة، ويستحلفونه شرب كأس الشاي الثانية، ويقارنون بين داره ودار من لم يضيّعوا وقتهم ومال أهلهم في الدراسة وينصحونه بالبحث عن سبل توسيع رزقه.

-183-

– الحياة يا معلّمنا وابن شيخنا ما عادت تحتمل مثاليات.. والحكي ما عاد له نفع، طالما الفعل بالواقع أقوى من الحكي النظري بكثير.

– طيّب! ادرسوا وصيروا من الضباط الآمرين بدل العساكر المأمورين. عند ذلك يصفن الكبار ويتأمّلون الحكمة في قول المعلّم، لكن الصغار يستعجلون حمل السلاح وآلات التسجيل وعلب السجائر والعودة بخطوات تتوعد خصومهم بتصفية الحسابات معهم بطريقة جديدة. وللمراهقين العاشقين، في ذلك طريق قصير إلى بيوت حبيباتهم الصغيرات. أمّا المدرسة،

– المدرسة طريقها طويلة.. طويلة يا معلّمنا، ونحن بحاجة لمساعدة من أولادنا الكبار حتى نقدر على تدريس أخوتهم الأصغر منهم. أنت أدرى بفقرنا وضيق حالنا!! وينصرف المعلّم حين يؤكّدون له ما بات على يقين منه وهو أنّ كلمة عريف في المخابرات باتت مسموعة أكثر من كلمته هو المعلّم الذي أفنى عمره مع الطباشير. ومع ذلك كان يخرج مبتسماً، عاقداً العزم على

خوض معركته حتى النهاية، معزّياً نفسه بشرف المحاولة بعيداً عن النتائج التي لا يبدو في الواقع ما يبشّر بطيّب منها.

– وها أنت يا معلّمنا، بالله لو فكّرت مثل ما فكّر غيرك، ولبست الذي لبسوه وحطّوا عليه النجوم، لكنت ملكت الجبل كلّه وما كنت خسرت زيتوناتك..كنت أنت الذي يأمر فيطاع! الزمن تغيّر يا ابن شيخنا، لا تزعل منّا ولا تحمّلها أكثر ما تحتمل.

-184-

راح صغار عين الغار ينسلخون إلى ما يشبه الرجال قبل أوانهم، هم الشراغف البشرية الخارجة من برك الماء، بعضهم نحو سطوة البارود وآخرون لحماية النساء والصغار والعجّز من قوم يطلقون النار وقت يشاؤون. أودعوا طفولتهم الماء وغادروها إلى غير رجعة. راحت النساء تلد كائنات مشبعة بالبارود.

-185-

وهبت ريحٌ، جعلت إحدى البطانيات الرمادية الثلاث على سطح بيت بارود تلتف على حبل الغسيل. والثانية تنخلع من مكانها وتعلق بهوائي التلفاز الموجّه صوب قبرص حيث كان الأثير يأتي بنساء يخلعن ملابسهن على مرأى من الجميع. فيما قاومت البطانية الثالثة الموثوقة بخمسة ملاقط الريحَ وراحت ترفرف كعلم ثقيل. أم أنّها لم تنشلع، خلاف رفيقتيها، لأنها كانت فتحت صفحتيها الرماديتين إلى الشمال والجنوب، تاركةً الريح الشرقية العاتية تنزلق عن جانبيها، آخذةً الغبار إلى البحر.

كان أسمر بن بارود قد نصب البطانيات جدراناً ثلاثةً، تاركاً الجدار الرابع مفتوحاً على ابنة الجيران. كان يترقب صعودها إلى السطح وما إن تفعل حتى يدخل مستطيل الصوف ويصدر فحيحا مشيراً إلى سرواله المنتفخ، يده على أهبة إخراج الثعبان.

-186-

وكانت يدا أسمر تغطّي أصابعهما الثآليل. وكانت قرنفل، المرأة التي تقطع الثآليل في عين الغار، قالت له إنّ علّة ثآليله في روحه. وإنّها عاجزة عن قطعها بالقمح والصلاة والثوم. وابتسمت قرنفل فما كان أسهل عليها أن يصحو على أصابع ملساء.

– مجنونة، خرفانة! صاح أسمر، خارجاً من بيتها المنفتح على الحظيرة، وركل شاةً في الطريق، فهاجمه الكلب وأمسكت أنيابه بحذائه الهارب. ومع صيحة من قرنفل لتهدئة الكلب، كان

أسمر قد غادر دارها تاركاً فردة الحذاء في فم الكلب. ألقت بها قرنفل في نار كانت أشعلتها لطرد الشياطين. كان ذلك قبل أن يلتحق أسمر بعمله الجديد في المخابرات.

-187-

وكان اسم (التالول) تنزّل على زيتونة بسببٍ من رجل يهاب الأهلون عينيه ليس أقلّ مما يهابون عيون المخبرين. كان (عيون القط) الابن الثاني لامرأة وقف قط أزرق العينين في الشبّاك يوم طارحها زوجها لتحبل بالصبي. فعلَ الرجلُ ذلك نهاراً على غير عادة الأهلين. ولسببٍ مجهول، لم يلو انشغالهُ بعيني القط ذَكَرَه، بل جعل ماءه يأتيها مرتين دون انقطاع. ولولا دفعته عنها، لجاءها ثالثة. فيما راح لهاثه وأنينها يتماهيان مع مواء أزرق العينين.

– متل الحبق، يا عيني يا عيني!

– قل ما شاء الله!

– ما شاء الله، ما شاء الله! قلتها بقلبي قبل ما تسمعيها، لا تخافي يا أختي! قال عيون القط لابنة مريم، وكان معروفاً عنه أنّه يصيب بالعين. كانوا يقولون إنّه يكفي أن ينظر إلى رمّانة وينوي على إسقاطها حتى تسقط في الحال. وكانت النساء المرضعات يخفين عنه أثداءهن خوفاً من عينيه.

– يا عيني على هالفرع مثل الحبق! – قال عيون القط، وأخرج مقصّاً من جيبه، وراح يقطع الأفرع الصغيرة التي حاولت الخروج من قبعة الأم.

– يا معلّمنا، هذا الفرع زائد، وأمّا الباقي فيا عيني مثل الند! وينتقل إلى فرع آخر. وفي هذه الأثناء تلجأ ابنة مريم إلى عود يابس فتكسره لكسر الشر، قائلة في نفسها:

– العمى عماك، قل ما شاء الله! فيما عينا المعلّم تطلقان قول الجلالة كالرصاص:

– " قل أعوذ برب الفلق*من شر ما خلق*ومن شر غاسق إذا وقب*ومن شر النفاثات في العقد* ومن شر حاسد إذا حسد".

-188-

وما إن حل الربيع وبدأ النسغ يسري حتى بدأت التآليل تخرج، من هنا وهناك، على فروع الشجرة، التي كانت إلى ذلك الحين ملساء. ومرّ عيسي بالمكان، وسأل ابنة مريم:

– بالله عليك يا أختي ويا ابنة شيخنا قولي لي الحق، مرّ عيون القط من هنا!؟

– نعم مرّ.

– وحضرة المهندس الزراعي الفهلوي مصرّ على أن سبب (التالول) بكتريا، وأن المرض اسمه سل الزيتون..بالله الأصح تسميته سل عيون القط. لو سأل الفهلوي نفسه ما سبب انتقال

المرض بمقص هذا الابن الحرام، وليس بمقص غيره، ما كان حكى عن بكتريا وخرافات ما لها علاقة بالعلم.

كادت ابنة مريم تطلق على الزيتونة اسم (الله يقلعها)، لكنها خشيت أن يخلط الله بين الزيتونة والعين، فيقلع الزيتونة بدل العين.. وحينها تنزّل اسم (زيتونة التالول). وراح عيسي يؤكّد أن شر عيون القط دخل الشجرة ولن يخرج منها إلا بالنار. ونصح عيسي ابنة مريم والمعلّم بحرق الشجرة، وتكفّل هو بذر رمادها في عيني عيون القط. ولم يكن يدري أنّ فأل الحرق سيتحقق، لكنّ الشر لن يحترق مع احتراق الزيتونة الخضراء المرفوعة جذورها العارية نحو السماء.

-189-

هوب.. هوب! وكان لعيون القط أخ شقيق أسموه جمعة لأنّه ولد فجر الجمعة. زرع جمعة، وكان أسود العينين خلاف أخيه، في الحاكورة التي ورثها عن أمّه، على حافّة الوادي صفّاً من أشجار التوت. ليس من أجل دودة القز ولا من أجل حب التوت اللذيذ، إنّما من أجل العصافير. وذات ظهيرة، جاءه أمر بإخلاء البيت، استعداداً لهدمه. خاف جمعة على عصافيره، وراح يغمغم بشيء ما حولها، لكنّهم ضحكوا من قلّة عقله، وطمأنوه إلى أنّ العصافير لا علاقة لها بالأمر. أبلغوه أن بيته يطلّ على مكان ممنوع. وأنّه واحد من خمسة بيوت ستهدم. وضحك جمعة ضحكة خرقاء. وراح يكرر رقم خمسة، ولسببٍ مجهول، خطر بباله أن المرأة تُؤبَّن في الخامس، خلاف رجل يؤبّن في السابع.

-190-

وخرج جمعة إلى حاكورته عصر ذلك اليوم، فوجد أمّه ممدة تحت شجرة توت، تنقر العصافير أصابع يديها. واحمرت عينا عيون القط، ولعن أخاه، ظنّاً منه أنّ تمسّكه بالبقاء هو السبب في انفتاح عيني الأم على البحر. نظرت العينان الميتتان نحو المكان الذي جاء منه الأمر، ولم تطاوعا أصابع جمعة حين حاولت إغلاقهما.

-191-

كان أسمر بارود، خرج من مستودع التطويع، رافعاً بصمات أصابع يديه العشرة الزرق في وجوه أقرانه، فاتحاً فمه، من شحمة الأذن إلى شحمة الأذن، على ضحكة تحدٍ. وكان أسمر يضحك كثيراً، قبلما سرق دراجة معلّمه قطعة فقطعة، وبعدما فعل. في خروجه الأوّل إلى دار معلّمه، كانت الريح قد أنشبت وسافت الترابَ، وكان المعلّم يفكّر بطريقة لقطع صفير الريح من

النافذة التي ترقد تحتها ابنة مريم على خوان السقّاء. الدرّاجة ليست لاعتلاء قمّة جبل الصنوبر. الدرّاجة لغير دروب. فلا مكان في الطريق الوعرة للعَجلات النحيلات. وأمّا العِجلات فـ" لهن " مطارح في دور الأهلين تصبو إليها العيون. لطريق جبل الصنوبر، حمارة جِيء بها إلى دار المعلّم ومنها إلى الدار المهجورة التي كان يقطنها الساموك، لتعيش حتى يُفكّ رسنها وتجرّ في الليل إلى مكان مجهول.

-192-

كانت الدار قد هجرت عن ثالث قتيل. وكان المحكومون بالموت، يموتون هناك في الليل بهدوء. ثلاثة رجال تتالوا على سكناها، ماتوا في الليل. ماتوا، بعدما مات باني الدار وزوجته العجوز وبقرته وعنزته وكلبه، وقبلما يجرّب بوعلي سلمان سكناها، ساخراً من مخاوف الناس. وكانت الدار بنيت على أساس من حجارة عهيدة، وقيل إن تحتها خربات. في الدار، بئر عتيقة كان يشرب منها قاطنوها، رُدمت بعدما هجر الشاربون ما حولها من تراب. ردمت بلذّة واشتهاء. فثمة في انزلاق حجر إلى باطن الماء متعة لمن يدفع به إليها، فكيف بمن يتلذذ بالرذاذ الخارج إليه..وثمّة من يمتعه رجم الشياطين الملتجئة إلى الرطب، تخاضعه ويخاضعها، تنعم تارة بضفافه وطوراً بباطنه، وينعم بامتلائه بها. ويضحك مَن بيده الصخر لأنين الماء تخضخض فيه الدلاء!؟ بئر ناضحة بمائها إلى جذور شجرةِ دبقٍ من جهة الحجارة الرملية المرصوصة جدراناً وقناطر يعلوها سقف جُبلت طينته منذ سنين.

-193-

وسكن بو علي سلمان الدار. وعزّل البئر. ولم يجد من يعينه على رفع الحجارة منها سوى ابنه البكر علي وابنته شمّا، وكانا لا يزالان صغيرين. نزل سلمان إلى البئر وراح يضع الحجارة في الدلو ليرفعها الصغيران. وانفتح جدار البئر على دهليز. وخشي سلمان أن يدخله فينغلق عليه. وشهدت شمّا بلوغها في الدار. وكانت سبقت بنات جيلها إليه. ولم تكن قد بلغت الثانية عشرة، حين هرعت إلى أمّها خائفة من الدم. وجاءت بنات عمّ سلمان، ورجونه الخروج والإصغاء إليهن. وعلى جانبي عتبة الدار، وقفن ووقف. وكرّرن على مسمعه ما كان حفظه عن ظهر قلب. وأضفن أنّ أصواتَ حفْرٍ كانت تأتي في الليالي من تحت المبنى العتيق. كأنّ الجان كانوا يحفرون هناك. ابتسم سلمان لبنات عمّه ولله في آن، ودعاهن إلى الدخول، فجفلن وانصرفن. وبعد وقت غير طويل، قَدَّ لِبيتهِ ذلك المكانَ من السفح. وأعانه الحجّار في بناء أوضتين وسقيفة. وخرج بعد أن أعاد ردم البئر.

-194-

وذات يوم، فكّر راجي بهجر غرفة جدّه الميت، والسكن في الدار المهجورة نكاية بأمّه وخالاته اللواتي فعلن كل ما من شأنه أن يخرجه من غرفته في بيت أهله الذي تحوّل إلى أخيه سالم. كان خطر بباله أن يحوّل الدار المهجورة إلى بيت له، ويجعل من صحنها ملتقىً لأصدقائه. لكنّ ما جعله يعدل عن فكرته رؤيته الواضحة لما سيتم: سيقول الناس إن سكره وولهه بالموسيقى والنساء، وخروجه من بزة الشرطة، الأمر الذي راح يراوده مؤخّراً وخيبة أمله بناهلة...أن ذلك كلّه وكل ما يمكن أن يحصل سينسب إلى الجان المساكين، وليس إلى أشرار مرئيين. فقرّر البقاء في غرفة الجد. ولكن، بعد أن اتجه إلى بيت بوعلي سلمان، بيده زجاجة من عرق التين، وجاءت شمّا، وقال لها راجي:

– الحياة غول يا شمّا وأنت ابنة ناس، انتبهي وإلاّ أكلك الغول.. وأنا لازم قوصه قبل ما يأكلني يا شمّا.

-195-

هوب.. هوب! فتح العسكري النحيل باب كاترينا الخلفي ونزل بهدوء إلى هامش الطريق. وكانت صدمته بما سمع من المساعد قتلت شعوره بواجب تقبّل العزاء من أبناء ضيعته. فقد خمّن عليّ أن كثيرين في عين الغار لا يختلفون عن المساعد بوعلي. وأنّه سيضطر أمام العيون المستطلعة لمصافحتهم، وشكرهم على تعزيتهم الصادقة له. وفي الحافلة نفسها، سمع مَن لم يشغل اهتمامهم نبأ موت أبيه يتحدّثون عن استعداداتهم لعرس صافي بن بارود من منى بنت علي هناك. سمعهم يتحدّثون عن الملابس التي سيرتدونها وعن لهفتهم إلى الرقص.

-196-

وكانت رائحة حموضة وزنخ لحم مسلوق تفوح من الشيخين الواقفين تحت قشور البيض، رائحة يصعب تحمّلها صيفاً، ويمكن السكوت عنها شتاء. وكان الشيخان سارا في ملاقاة كاترينا، وسارت هي في ملاقاتهما. وحين توقّفتْ وصعدا إليها، ملقيين سلام الله ورحمته وبركاته على جميع من فيها، تلفّتُ إلى الخلف فرأيت ترعةً تخرج من سروال العسكري إلى سياج البستان. صحت بالسائق، وكان قد أفرحني أن رجلاً آخر هو الذي مات وليس المعلّم:

– على مهلك، على مهلك، خلّ الرجل يرجع، قضى حاجته وخلص! ولم أكن قد فطنت بعد إلى أنّ هذا العسكري هو أخو شمّا. كان قد نحل كثيراً وبدا كأنّه أكبر مما أعرفه بعشر سنين. وكنت رأيته ينظر نحوي ونحو علي جاد الصغير، وتلتقي عيوننا، ثم يشيح بعينيه عنّا. كان علي ظنّنا عرفناه وتجاهلناه، ما زاد ألمه ألماً.

وعند نزول علي بن سلمان على الطريق، مرّت بقربه سيارة جيب عسكرية مسرعة نحو عين الغار. لم تكن من سيارات العسكر المرابطين عند خليج جبّور. خمّن ركّاب كاترينا حين تجاوزتهم، أنّ من فيها جاؤوا لحضور عرس ابن بارود.

-197-

هوب.. هوب! وفي طريق المعلّم إلى الدار المهجورة، جارّاً الحمارة الهدية، بدا كأن الطبيعة سكنت والبشر ناموا. وحتى الأولاد الذين يخرجون لكل أمر، لازموا حيطان الدُور وراحوا ينظرون نحو معلّمهم. بعضهم، يخفي ضحكة انفعال مبهم ومعظمهم حزين. وخرجت النساء إلى بوابات بيوتهن. وبادره بالتحيّة رجالٌ مرَّ بجوارهم، يلعبون المنقلة هنا ويتبادلون الحديث في شأن ما هناك. لم يفهم المعلّم ما الذي حدث ولا هم فهموا. ولولا امرأة حيّته وأكبرت فيه روحه، لبدا الأمر مشهداً في فيلم سينمائي: بيوت رمادية، وأشجار ساكنة لا تحرّكها الريح، ووجوه تجمّدت فيها العيون على نظرة إلى شيء ما غير مرئي، ودرب تضيع ملامحه مع كل خطوة، ثم يختفي المعلّم في جوف الرمادي البعيد القريب، وفجأة يعود الصخب، تصدح الأغاني وتزغرد زمامير السيارات ويعبث الهواء برؤوس الأشجار، وتطير العصافير، وتكتسي البيوت ألواناً زاهية.

-198-

وكان مهرّبٌ صغيرٌ يعيش مع أبناء عمّه الثلاثة في خربة منزوية في فالق عند أطراف عين الغار من جهة الشرق، رغب في إهداء المعلّم قطعة جوخ ليخيط لنفسه طقماً بدلا من الطقم الذي لم يعد يفيد الفحم الذي تختاره ابنة مريم من الأثفية في إخفاء اهتراءاته هنا وهناك. لكنّ المعلّم اعتذر عن أخذها دون دفع ثمنها، وآثر شكر حاملها على نيته الطيّبة، راجياً إياه عدم تكرار عرضه. ابتسم الرجل الذي كثيراً ما كان يأتي على حمارته، حاملاً ولديه إلى المدرسة، ابتسم ووعد المعلّم بهديّة أخرى لا يمكنه أن يرفضها.

-199-

ومضت شهور قليلة، وكانت شمسُ الصيف قد غالبت ثيابَ الرجال فغلبتها نحو شَعر الصدور، بعدما أخرجت الزواحف إلى الدروب، وجاءت الهدية أتاناً لم تخذل صاحبها في نقل الحمولة من البحر إلى الجبال، طوال الأيام التي كان فيها تهريب الأشياء النافعة ممكناً ومجدياً. لم يكن الرجل المتخذ أتانه رفيقةَ ليلٍ يدري من أين تأتي حمولة هذه الفلوكة الصغيرة من الأشياء التي يتقاسمها مع رجال آخرين، بعضهم على درّاجات وبعضهم على أُتُن تتخذ من لون الليل لباساً، إلى أن جاء ليل، قرّر فيه الرجل التخلّص من أتانه. في البداية، فكّر الرجل بفك رسنها

وتركها تختار الطريق التي تريد. ثم فكّر ببيعها. ثم أفرحته فكرة أن يقدّمها هديّة للمعلم. لن يرفضها! قال في نفسه. لم يعد الرجل بحاجة لأتانه، فقد تملّص من قبول عرض قدّم له بالمشاركة في تهريب أشياء أكثر نفعاً كما قيل له. وحين فهم من أين يأتي النفع الذي يتحدّثون عنه، اعتذر. وكان يعلم علم اليقين أنّ ذلك سيكون آخر يوم له في طريق الوادي إلى المرفأ المهجور. وأنّه سيكون عليه أن يبحث عن طريقة أخرى للعيش.

– أنا رجل بصدري دين، ولا أعمل أي شيء ضد يقيني وضميري وإيماني..مالي بشغلكم محل!

– أصلا هالجحشة كثيرة عليك! قال الأوّل.

– اتركه مع جحشته، استأتن الأفندي عن جدّ– قال الثاني، مضيفاً عند عتبة باب الدار– لا تزعل يا خال! نحن نمزح معك.. ما لنا حاجة بواحد جبان وماسك الإيمان من ذَنَبه مثلك! المهم لا يكون إيمانك ثرثاراً.. مفهوم يا خال!!؟

–200–

– ممتازة لطريق جبل الصنوبر! – قال المهرّب المهزوم للمعلّم، وكان قد قرر السعي في طريق آخر–رجّعها إذا أزعجتك!

– بارك الله بك، وسامحك! هذه هي الهدية التي لا ترد! ضحك المعلّم.

– أتاني يا معلّمنا وابن شيخنا اليوم علامة توبتي. أنا رايح بلا رجعة. وما لي غرض غير تصدّقني، وأنت لا قادر تنفعني ولا تضرني!

–201–

ويوم اعتلى المعلّم ظهر الأتان أوّل مرّة وساقها عبر عين الغار إلى طريق الجبّ ثم إلى أعلى الجبل، أخفى الأولاد ضحكاتهم، وشعروا بالخجل من رؤية معلّمهم يعتلي ظهر حمارة ويلوّح بيديه يميناً ويساراً، ملقياً التحية على من يصادفه في الطريق، وعلى أهالي الدُور التي يطلّ على صحونها من مكانه.. راح المعلّم يحيّي بصورة خاصّة تلاميذه، الذين كانوا قبل ذلك يدخلون داره نهاراً دون استئذان، ويأخذون درّاجته الهوائية ويعيدونها إلى مكانها بهدوء، مقدّرين أن موعد إعادتها حان. حيّت النسوة المعلّمَ وباركن رحلته إلى الجبل، على الرغم من أنّهن عجزن عن إخفاء ضحكاتهن المستغربة والمعجبة في آن:

– الله ييسّر لك دربك! آخ على هالزمان، المعلّم ابن الشيخ يركب على الجحشة والجهّال والحراميّة يركبون سيارات!! الله يحيي أصلك، ربنا والخضر معك. وراح المعلّم يبتسم، فهو لم يكن يشعر بأي حرج من سلوكه. ولم يكن قد فكّر بردود فعل الأهلين. فطالما هم يستخدمون

الحمير في حياتهم فلماذا يمتنع هو عن ذلك. الشيء الوحيد الذي لم يكن قد فكّر به بعد، هو كيف سيعتني بالحمارة، وأين سيكون مأواها!؟ هذه الأسئلة طرحتها عليه ابنة مريم، وكانت قد رأت في انضمام هذا الكائن الجديد إلى أسرتها، عبئاً إضافياً عليها. فسيكون عليها أن تتدبر أمر علفها وتنظيفها ومكان نومها. فاجأها المعلّم بابتسامته التي سبقت كلمات لم تقلها:

– الدار المهجورة تتسع لحمارة. ألم تكن تتسع لبقرتين وحمارة قبل أن يرحل عنها بوعلي سلمان وعائلته؟

– لكن الدار المهجورة تقطع الرزق وما فيه أحد من الناس يربط فيها دابته.

– لا تقطع شيئاً، لا تخافي!

–202–

ومع عودته الأولى، راكباً الأتان، من جبل الصنوبر، جاء المعلّم بفسيلة خارجة من قرمة زيتونةٍ لم يكن قد تنزّل عليها الاسم بعد، سمّاها زيتونة (ابنة مريم)، وزرعها في طريق عودته عند طرف المقبرة، بعد أن أضمر في نفسه أمنية " أن يُدفن في ظلّها، إذا ما كبرت وبات لها ظلٌّ قبل أن يموت". وكان زرع في داره شجرة تين ثانية. قالوا له إنّ التين لا يصلح لتزيين حدائق البيوت، فاكتفى بابتسامة.

–203–

ومن أجل ناهلة التي اكتشف فجأة أنّه يحبّها، كان راجي زرع ست شجيرات جديدة من الورد. كان يريد أن يزرع سبعاً، لكنّه تردد حيال السابعة، حين علم بأنّها تحب الأرقام المزدوجة. كلَّ صباح، كانت إحدى شجيرات الورد تمدّ نحوه هديّةً معطّرةً، ينزع عنها الشوك من أجل يدين تمسحان على الجروح في مبنىً عابقٍ برائحة اليود والكحول والدواء الخارج إلى الجرحى ومنهم. كان شرطي النجدة قد تعرّف على ناهلة في قسم الاسعاف، وكان أحبَّ لهفتها وخوفها على الجرحى وحركةَ أصابعها الذكية الحنونة.. قبل أن يحبّها.

–204–

وكانت شجيرات الورد التي زرعها من أجل ناهلة قد تجاوزت عامها الثاني ومدّت أذرعها نحو ربيع الثالث حين ألقى راجي، على عتبة ظلام غرفته التي ادلهمّ هواؤها، نظرة أخيرة على وروده. تملّاها جميعاً، ولم يُصلِّ من أجلها، ولم يعدها بشيء أو يوصها بشيء. وابتسم ابتسامة

محيّرة حين تذكّر أنّه لم يزر أياً من المقامات في حياته الواعية. كانت أمّه وخالاته قد أخذنه إلى هناك، ثم مع قدرته على القول، راح يتملّص من الذهاب.

-205-

وفي اليوم الخامس من هروب الضوء، طلب راجي من علي جاد الصغير أن يفعل شيئاً لأجله:

– موت ورداتي قريب، يا علي، خذ وازرع منها!

– أين؟

– بجنيّنة المقام. وارتسمت على شفتي راجي الجافتين ابتسامة من حجر.

-206-

وكان المعلّم يحب التين. وكان في عين الغار بائعات تين صغيرات ينادين على تينهن في الصباح " بريغلي.. بريغلي.. خضيري.. صفيري.. جبيلي.. شامي!" كان المعلّم يشتري البريغلي من البائعات الصغيرات. ولكن، لم يمض وقت طويل حتى راحت سلالهن تفرغ قبل بلوغ بيت المعلّم. ابتسم المعلّم وقال:

– لا تحزنّ، حياتكن أهم من التين بكثير! وكان في الوادي المفضي إلى البحر كثير من التين، لكنّه بات عصياً على الصغار والصغيرات، وأمّا الكبار فأفادت خبرتهم بأن من الأسلم لهم أن لا يقربوا أماكن الجند.

-207-

وكانوا ما إن نصبوا خيامهم على مقربة منه، حتى لم يعد طريق الوادي إلى البحر آمناً. واحد من الجند راح ينصب قضيبه بانتظار الصغار قرب نبع (كور بينار)، حيث فرصة الأولاد الأخيرة لملء بطونهم بالماء العذب، قبل ارتياد الملح. لم تكن (مطرات) العسكر قد غزت المدارس بعد. كان عسكري صغير القد، ضامر الجسد، قاتم اللون، ذو نظرة مستكينة وغدّارة في آن، يشبه صورة العربي التي وضعت في موسوعة شعوب العالم، كان يتلطى خلف جذع شجرة غار هناك. لم يقل الأولاد لأهلهم شيئاً عنه، خوفاً من أن تغدو ليس فقط زيارة بساتين الوادي ممنوعة عليهم، بل وفكرة السباحة نفسها ممنوعة. وكان على الصغار وحدهم تدبّر أمرهم معه. راحوا يرسمون الخطط لدفعه إلى الانسحاب من الوادي. وكان صافي بن بارود يذهب إلى هناك، ولست أدري إن كان سارق درّاجة المعلّم يفعل.

-208-

وفي الليل الذي فكّت فيه عجلة الدرّاجة الأمامية وأُخرجت من دار المعلّم إلى دار غير بعيدة عن داره، في ذلك الليل فُكَ رسن الأتان، واقتيدت إلى مكان قضى المعلّم دون معرفته، على الرغم من تأكيد مقدِّمها أنّه يعرف جميع زعران عين الغار ولن يمضي نهار الغد حتى يكون قد كشف سارقها.

وفُكّت العجلة. وكان هيكل الدراجة يرُبط، ليلاً، بسلسلة حديد إلى جذع شجرة التين الكبيرة التي كانت تطلق ثمارها خلف البيت نداءً للعصافير، ولم تكن يد أحد تمتد إلى العصافير التي تلجأ إلى دار المعلّم، قبل انتشار بنادق الصيد مع المسدسات في عين الغار. راح كثيرون يبادلون بحواكيرهم الصغيرة على سفوح الجبال، بنادق صيد آلية ودرّاجات نارية. فكّت عجلة درّاجة المعلّم بيد لا تخشى خروج المعلّم إليها. ونشأ سؤالٌ عمّن تراه بحاجة لعجلةٍ واحدة ولماذا درّاجة المعلّم بالذات!؟ وسرعان ما فكّت العجلة الأخرى، وتبعها المقود. وفي الصباح الذي تلا ذلك الليل، وضع المعلّم جسد الدراجة المنزوعة الأطراف في الشارع عند باب داره. أسندها إلى الجدار.

في البداية، كَتب على ورقة مقوّاة بخط عريض " شكرا لأنّك لم تقطع شجرة التين، يا تلميذي النجيب!"، لكن ابنة مريم نصحته بأن يمزّق الورقة لأن ما كتبه قد يحرّض السارق على قطع الشجرة. نزع المعلّم الورقة ومزّقها.

-209-

هوب.. هوب! وراحت المشكلة التي أثارها تدخّل المساعد بوعلي في شأن علي بن سلمان تتفاعل في كاترينا. كان علي بن سلمان يمضي عامه الخامس في إلزامية لا تبدو لها نهاية. كان ثمّة ما يطيل الزمن هناك. ضغط بوسلطان على الزمور مستحثاً علي النحيل على الإسراع في العودة. لكن الرجل أشاح بيده وأدار ظهره للحافلة، وقطع الطريق إلى الجهة الأخرى، بانتظار حافلة قادمة تعيده من حيث أتى. صاح الحجّار، محملقاً في المساعد الذي عاد إلى الانكماش مع انتظار الحافلة للعسكري:

– يا إلهي، ما أكبر معلاقك. المشكلة بين الرجل وأهله، يجيء.. يروح.. ما علاقتك أنت حتى تحرمه شوفة أهله واستقبال المعزّين بوفاة والده؟! يعني لو كسر لك بوزك كنت رضيت حضرتك؟!

– يكسر بوز واحد قليل الأصل من أمثاله، ما أبواز الأوادم.. بعدين، يا أخي ما حكينا شي!– قالها متلفّتا نحو بقية الركاب، وكان تأكّد من عدم عودة علي.

فرح قزّيطا! كانت كلمة مؤلّفة من ثلاثة حروف بالأمس قد استعصت عليه، ونام مغموماً لأنّها لم تخطر بباله، وكان قد جرّب الكلمات التالية: خشم، خطم، أنف.. وإذا به يسمعها الآن: مقدّمة رأس الحيوان، بوز.. لم يميّزوا في الجريدة بين رأس الحيوان ورأس الانسان. وتابع المساعد بوعلي:

– يا إلهي على هذا الزمان.. صار واجب الواحد منا السكوت عن انعدام القيم!

– لا تبعنا أخلاق وقيم، الله يخليك– اعترض الحجّار – فوراً عملت لنا الرجل بلا قيم! وكأنك بقلبه، وكأنّك متأكد من أنّه كان معه أجرة سيارة حتى يسافر من الشام للضيعة.. كأنّك لا تعرف الظلم الذي تعرض له أبوه وكيف حرم من الورثة.. ثم يا سيادة المساعد، الله يلعن الشيطان ورجال الشيطان، أنت تعرف أنّه يخدم إلزاميته.. وتعرف ماذا يعني إلزامية يا سيادة المساعد! فحضرتك عملت بيتك قصراً من وراء العسكرية.. فمن أين واحد مثله قادر على زيارة أهله، لا تظن الناس مثلك؟

– أخذت من مالك ليرة واحدة؟ اكسر يدي إذا أخذت. بعدين، تفضّل وقل لي من أين الرز والعدس والحمّص والسكر والسمن ببيتكم، اسأل امرأتك، واسأل ابنتك نورا كم مرّة لبّستها بنتي ثيابها!؟

– أي واحدة من بناتك؟ التي شردت مع الحلبي، وشغلها مربح، ما شاء الله، اليوم بحلب! أم الثانية الواقفة طوال النهار بين البطانيات على السطح مقابل ابن بارود الوسخ؟

–210–

واضطربت البطانيات الرمادية المنشورة على سطح بيت المساعد بوعلي. ولم تفهم امرأته سبب ذلك الاضطراب. فلا ريح تنكش ريش عصافير الدوري الواقفة على سور السطح، وابنها علي ليس هناك. أتكون البُنَيّة قد حشرت نفسها وسط البطانيات، وراحت من هناك تغازل أسمر بن بارود، غير آبهة بما يدور في كاترينا بين الرجال؟

–211–

وكان جميع مَن في عين الغار يعلمون أن درّاجة المعلّم تسرق قطعة إثر أخرى. لكنّ أياً منهم لم يقل للمعلّم من يكون السارق، وكان المعلّم نفسه يعلم أيضاً من يكون. كان قد رآه من على سطح البيت. وفكّر في البداية بأن يصرخ في وجهه ويطرده. لكنّه فضّل مراقبة حركاته. رآها فرصة لمتابعة ما يصعب تصديقه عن قرب.

لم يصدّق المعلّم أن تلميذه أسمر، الذي غادر المدرسة على عتبة الصف السادس من ثلاث سنوات، بعد تسعٍ أمضاها فيها، يمتلك تلك الوقاحة كلّها. في البداية، ظنّ المعلّم أنّ الغضب

سيأخذ بـه. وكـان قـد احتـدم عنـدما خـرج إلـى درّاجتـه فرآهـا دون العجلـة الأماميـة. وقـرر كشـف السـارق ومعاقبتـه. ولكنّـه، حـين رآه يـدخل داره بهـدوء وثقـة ويخـرج المفكّـات مـن جيبـه ويبـدأ بفـكّ العجلة الثانية، أعاد الحجر الذي أسند به عمود الدالية على السطح إلى مكانه. وكان المعلّم قد رفع الحجر استعداداً لإسقاطه بالقرب من السارق. أراد إفهام السارق بأنّ الحجر يمكن أن يسقط على رأسه لو أعاد الكَرّة. خشي المعلّم أن يقوم تلميذه بحركة مفاجئة فيأتي الحجر على رأسه، فأبعد الحجر عن متناول اليد الغاضبة! ورأى أن يقذف تلميذه بحصاة صغيرة ليفهم الأخير أنّه تحت مرمى يد معلّمه وليس فقط نظره. ولكن، ما الحكمة في ذلك؟ فكّر المعلّم وعدل عن الحصاة. رمي الحصاة سيوجب عليه القيام بخطوة أخرى، سيوجب عليه أن يقبض على السارق أو يصيح ليأتي أحدٌ ما من الجيران فيساعده بالقبض عليه، أو يشهد بأنّه السارق. وسيكون عليه حضور جلسة محاكمة من نوعٍ ما، إن لم يكن في العدلية أو في مخفر الشرطة ففي ساحة الضيعة ومن سيكون الحاكم فيها ؟

-212-

هوب.. هوب! وتلفّت قزّيطا متسائلاً:

– يا جماعة، اهدأوا حتى أفهم، الله يكبّر عقولكم. العقرب هي التي تقتل نفسها أم الأفعى؟ الكلمة من 4 حروف!

– عقرب يا ابن الأوادم! " جنب العقرب لا تقرب وجنب الحيّة افرش ونَم!" أغاثه الشيخ الصغير القدّ.

– لو كان عيسي هنا لزعل منك يا شيخ! قال قزّيطا ضاحكاً وبدأ بملء المربّعات ع ق ر ب.

-213-

وكان عيسي بعد أن حكى، في بستان المعلّم، حكايته عن ابتراده وأصحابه بلسعات العقارب، نهض متحسساً علبة الكبريت في جيب سرواله، ووعد المعلّم بالصلاة من أجله وأجل ابنة مريم والأولاد.

– نعم، يا ابن شيخنا– قال عيسي للمعلّم– صدقني الخضر عليه السلام يقبل دعوات العوام ليس أقل من دعوات المشايخ! وأكّد عيسي للمعلّم ولابنة مريم أنّه اغتسل بماء الجب في طريقه إلى المقام، وأنّه صافي النية، وأنّه عليه السلام ليس لديه حجّة لردّه خائباً. وسأل المعلّم إن كان يرجوا شيئاً لنفسه أو لعائلته من حضرة الأخضر. وفي حين ابتسم المعلّم ولم يقل شيئاً، جاء صوت ابنة مريم:

– قل له، دخيل قدرته– نظر المعلّم صوبها مستشعراً قولا قد لا يرضي المقام– يخفف عنّا هذا الشوب، ويدبّر لنا طريقة لقطف الزيتون بدل هذا الموت الأحمر!

– تكرمي يا ابنة شيخنا، ويعصر حبّات الزيتون، ويصب الزيت بالخابية! وضحكت ابنة مريم، وضحك الأولاد، وعقد المعلّم حاجبيه، وصلّى كلٌّ على طريقته في سبيل أن يتقبل، عليه السلام، المزاح ولا يأخذ به الغضب إلى فعلٍ ما يهلك جيرانه المتعبين.

–214–

وخرج الأولاد، وقد علموا بسرقة درّاجة المعلّم. خرجوا، كما لا يخرجون إلاّ حين تشرد فتاة من فتيات عين الغار مع رجل غريب. خرجوا حاملين صفائح تنك فارغة ربطوها كالطبول وعلّقوها على أعناقهم، وراحوا يقرعون عليها بالعصي ويصيحون:

– دم دم دم دم.. لا فيه ميّة ولا فيه دم...توت توت توت توت والحرامي بدو يموت..بسكليتة المدير سرقها حرامي صغير.. دم دم دم دم.

–215–

وكان المعلّم فكّر للحظات، بعد أن ترك الحجر وتخلّى عن فكرة الحصاة، بأن يهبط درجات السلّم بهدوء ويقبض بيديه القويتين على الشاب الذي لم يقو عوده بعد. لكنّه المعلّم ولا يعقل أن يشتبك بالأيدي مع تلميذه. كان لا يزال يرى في الوجه الأسمر والشعر المائل للحمرة من كثرة ما تعرّض لملح البحر وأشعة الشمس، وجهَ وشعرَ تلميذٍ كثيراً ما ابتسم له محاولاً جعل المدرسة مكاناً محبباً لديه. " لن أفعل!!" فكّر المعلّم، وراح يراقب الأسمر آسفاً على ضياع مئات الساعات التي لم تُفض إلى شيء سوى إلى هذا الذي يراه على مسافة مائة ورقة تين من يديه القويتين.

وضعت يدا المعلّم الحصاة بعد الحجر، ووضع قلبه الوزر على كف الريح، تبدده كيف تشاء، ورأى أن يجعل من ذلك قصّة يسردها على تلاميذه ويرى ردود فعلهم عليها، ويترك لهم أن يقولوا فيها قولهم، العارف منهم بشخصية السارق والمكتفي منهم برمزيتها، ونزل درجات السلّم بهدوء كي لا يزعج السارق. وبعد ساعات لم تطل من إسناد المعلّم لجذع الدراجة الأحمر على جدار داره الرمادي، دُقّ باب بيته:

– بْ تسمح لي بِ هالحديدة يا أستاذ؟ فرح المعلّم لطلب تلميذه، ورأى فيه فأل خير وبداية طيّبة.

– خذها، ولكن انتبه! العجلة الورّانية تركيبها صعب، ولا بد من عزقة ثانية من جهة اليسار حتى تتوازن!

-216-

وسخرت ابنة مريم من طيبة قلب المعلّم، وتوقّعت أن يؤدي تسامحه إلى تمادي تلميذه العاق في عقوقه..

– ومع ذلك، فمن يطلب الإذن يكون الخير ما زال فيه..

– إذا كانت هذه قناعتك فأنت على حق.. لكن، خايفة من تطاوله عليك هو وأمثاله أكثر..

– لا تخافي، ستجمعه الحياة بواحد يوقفه عند حدّه ويربيّه! وإذا الحياة بعظمتها لم تتكفّل بتربيته، فألف معلّم مثلي عاجزون عن تغيير ذرّة فيه.. ثم، يا ابنة شيخنا، حسب ظنّي، ما تبوّغ الشر بعد.. وللأسف، فعل (تبوّغ) صحيح.. فالشر ينتشر مثلما تنتشر أبواغ الفطر! قالها المعلّم مبتسماً. وكان قد حكى لها عن أبواغ الفطور التي يستخدمها التلاميذ لاستعجال ظهور شوارب الرجولة. واليوم يفعلونها لاقناع العسكر بأنهم رجال بما يكفي لترك المدرسة وارتداء الخاكي وحمل السلاح.

-217-

سار الصغار على دروب أخوتهم الذين سبقوهم إلى مغادرة مقاعد، لم تبرد فيها مسامير السقّاء بعد، إلى الرمادي والمرقّط. وذات مساء، سقط الرجل ذو الوجه المتطاول المنمّش العابق برائحة اليانسون على ظهره، سقط في ساحة عين الغار، وبدلاً من التوجّع، راح السقّاء يبتسم لشيء ما بدا كأنّما كان يراه في السماء. ثم مسح عينيه. ولمّا كان كفر بالمكان، أغمضهما من جديد وهمد، فظنّه الناسُ مات.

-218-

وكانت درّاجة المعلّم للبحر وللساقية، حيث حفيف أوراق الحور ذاكرة الريح، ينبسط معها الرجل الخارج من صراخ تلاميذه، مستسلماً لكل صوت غير بشرّي آتٍ من الأزرق والأخضر إليه. وتنفكّ أمراسُ يديه وعنقه وكتفيه، فيستلقي على مرجٍ من العشب الأخضر يتاخم مرجاً من الحصى الأبيض، كأنّما دغدغته ريح دروج فتراقص ثم رقد حيث شاءت يد الريح، ريح نمنمت على مسافة يدٍ من أزرق الماء رمالَ الضفة، قبلما تصفف شعر المرج. ويغفو المعلّم ويأتيه في الحلم أنّه يطير فوق بيوت عين الغار.

-219-

هوب.. هوب! وأقعى كلب بارود ناظراً بقلق إلى البندقية في يد صاحبه. حين خرج الخردق، كان بوسلطان يجلس على شرفة بيته دافعاً بأسفل حذائه باتجاه عينيّ بارود، مشيّعاً قشور

(البزر) الخارجة من فمه ببعض البُصاق. وحين حُشرتْ السبطانة في فمه، ابتسم الكلب ابتسامةً صفراء، مستفسراً عن طعم الحديد. جاءته الطلقة جوابا فخرّ صريعاً، على بعد خطوة من المختار المشغول بِعد حصيّات (المنقلة).

– لا يا بوصافي!" صاح بوسلطان. لم يقل بارود شيئاً. عيناه الحمراوان وحدهما طارتا صوب تلاميذ المعلّم الذين وجدوا أنفسهم، على غير إرادة منهم، يتابعون مشهد إعدام الكلب. وفرح عيون القط. فهو كثيراً ما راودته فكرة قتل كلب بارود، لا لشيء إلا لأن الكلب يشبه صاحبه. ولم يدر علّوشي راس التيس أيفرح أم يحزن.

–220–

ولجأ عيون القط إلى أم علي القشّاشة، بعدما تثأللت الزيتونة واحمرت عيناه. وكانت أم علي قد اكتسبت اسمها من احترافها إخراج القش من العيون. ولم تكن قد رأت عينين لهما هذا اللون. لم يكن منديل القشّاشة يكتفي بإخراج القش من العيون. بل كانت تخرج من هناك أشياء كثيرة. وكنت أُعجَب لقدرة العين على احتواء كل تلك الأشياء التي تعلق بالمنديل. وكثيراً ما كنت أختلس النظر إليها حين تقوم بعملها، متوقعاً بين لحظة وأخرى أن تخرج من عين أحدٍ ما الخمس والعشرين الليرة الورقية التي سلبتني إيّاها الريح. كانت أم علي تطوي طرف المنديل. تبلله بلعابها، وتحشره تحت الجفن. ثم تذهب به يدها الخفيفة في رحلة حول كرة العين.

حين جاء عيون القط، كانت عيناه قد التهبتا، فخشيت أم علي المس بهما، ورجته أن يسرع إلى طبيبٍ في المدينة.

–221–

كان عيون القط لجأ إلى أم علي، في اليوم الذي تلا اعتلاء عيسي سطح بيته. وكان عيسي تسلّق سطح بيت عيون القط في العتمة، حاملاً معجونة مجبولة من رماد (زيتونة التالول) ب(بول الجِمال). ووضع معجونته في خزان ماء الرجل. وهناك تأكّد من إذابتها جيّداً بماء الخزّان. وهبط منشرح الصدر، متأكّدا من أنّ شر الرجل سيتدهور ويتراجع إلى الخلف مثل بول الجمال. ولم يكن إحضار البول سهلا عليه.

–222–

هوب.. هوب! شعرتُ أنّ الملاسنة في كاترينا التي بدت كأنما الطريق إلى عين الغار أجهدها، ستنتهي إلى التحام بالأيدي. ورأيت علي جاد الصغير ينهض من مكانه، ويتجه للإمساك بالمساعد ريثما يكيل له الحجّار ضربةً، أردتها أن تأتي على وجهه كضربة المخل في

الحجر. ولكنّ المساعد ما إن رأى ابن المعلّم يغادر مقعده ويتجه صوبه، حتى صاح ساخراً مقهقهاً:

– نعم يا ابن المعلم، يا مثقّف! عندك اعتراض على كلامي مثل غيرك!! ما شاء الله.. ما شاء الله! صارت المدرسة تعلّم الناس قلّة احترام الأهل.. اسأل أهلك! مقبول الواحد يهجر أهله، مقبول الواحد يلبط النعمة ويشتم الذي يقدم له لقمة.. أم واجب عليه شكر ولي نعمته!؟ بئس الزمان هذا الزمان المقلوب!.. انقلبت الأخلاق والقيم، ما عاد أحد يعترف بالفضل، ما عاد فيه قيمة لأحد. إذا الواحد رَزَقه الله ليرتين يأكلونه من الحسد. ما عاد أحد يتمنى الخير لأحد؟ حبينا لفت نظر الأخ الضال لقدسية بيت أهله، برأيك كفرنا يا ابن الأستاذ!

–223–

هوب.. هوب!

– اترك صهري المعلّم وابنه بحالهم– صاح العطّاس– اتركهم، لا تلوّثهم بلسانك. وإلا، وعزّته لا إله إلا هو، أقطع لسانك من قرمته مثل ما أقطع قرمة الشجرة بالمنشار! كان العطّاس مستخدماً في مصلحة الحراج بمديرية الزراعة والإصلاح الزراعي باللاذقية، وكان بين أولئك الأبناء عم الذين اعترضوا على إجراءات الإصلاح الزراعي فتلقى ضربة على رأسه جاءت بالعطاس إلى أنفه.. فقد نصحه أحدهم بمعالجة الصداع المزمن الذي أصابه بعدها بالعطاس أو (النشوق) كما يسمّيه أهالي عين الغار. وما انفك يعالج صداعه بهذه الطريقة حتى مات دون الشفاء منه.

– يا عديم الحياء، تسمي السرقة نعمة ورزقة، وناطر من المعلّم موافقة! وسحب الجابي سلمان بن بوسلطان السكيّن من جيبه بانتظار ما سيؤول إليه الحديث.

–224–

هوب.. هوب! وكان بوجلال الملقّب بالوحش لا يزال يسكن عين الغار، وكانت ابنته أُخرجت من الزريبة على غير إرادة منه. كان حميدان قد اكتشف حبسها.

– سمّ بالرحمن يا جار!

– هي ابنتي وأنا أربيها على طريقتي، ما علاقتكم بيني وبين ابنتي!! صرخ غاضباً في وجوه جيرانه، حين اكتشفوا أنّه يحبس ابنته مع البقرة منذ ستة أشهر. كانوا قد تساءلوا عن سبب غيابها، فأجابهم بأنّها عند خالها في الشام. وحين رآها حميدان ابن الجيران من شق بين خشبات الباب، مربوطة بجنزير إلى وتد في الزريبة، وأخبر أمّه، طار صواب بوجلال. وهدد بذبح الصغير. رحّلوا الصغير إلى خاله الذي تطوّع منذ عامين في سرايا الدفاع. وراح بوجلال يصرخ بأنّها ابنته وهو حر بأن يفعل بها ما يشاء، وبأنّهم يتدخلون بشؤونه الخاصّة، وبأنّه سيذبحها لو

تدخّلوا مرّة ثانية. ولم يمض وقت طويل حتى قُتل الرجلُ ودُفن واقفاً، في ذلك المكان من الجبل الذي خشي الأهلون مقاربته بسبب سكناه. ولم تخرج البُنيّة بعد ذلك من بيت أمّها. أقعدها الخجل عن الخروج. خيّل إليها أنّ رائحة الروث ستفوح منها ما دامت حيّة، وأنّها لن تقدر على التخلص من تلك الرائحة أبداً. وخشيت البنيّة الألفاظ التي قد يطلقها عليها الأولاد لو خطر ببالهم أن يخرجوا. لكن الشاعر بوفيصل كان يحبّها ويخبّئ في جيبه بعض السكاكر من أجلها.

-225-

وعلى زيتونة جذعها أشبه برِجلي فتاة لفّهما الخجل من العرّي، تنزّل اسم زيتونة (البنت الخجلانة). شكّلت رجلا الزيتونة، عند التقائهما من خلف، مؤخرة صغيرة. وكان علي جاد الصغير يمسح بيده على تلك المؤخرة، وينظّفها مما علق عليها من غبار، ويهاجم السحالي التي تلجأ إلى طيتها. لاحظ المعلّم انشغال ابنه بذلك الجذع فأمعن النظر وابتسم، وشاركته ابنة مريم ابتسامته.

– مثل البنت الخجلانة! قالت ابنة مريم، وبكت حين روى لها المعلّم كيف رأى (البنت الخجلانة) تتلوى في قلب النار.

-226-

لم يكن حميدان الصغير حين اكتشف أختَ جلال المحبوسة يلاحق كرة الخيطان كمثل إيڤان. لم يكن قد أحرق جلد الضفدعة ليحتفظ لنفسه بڤاسيليسا الجميلة الحكيمة إلى الأبد. ولم يكن عليه مواجهة العجوز الشريرة (بابا ييغا)، قبل قتل الوحش المتحكّم بقدر فاسيليسا. ولم يكن حميدان في طريقه إلى منازلة المينوطور في المتاهة من أجل عيني أريادنا. كانت طائرة حميدان الورقية قد انقطع خيطها وعلقت بشجرة التوت في دار بوجلال. لم يكن حميدان يسعى إلى قتل الوحش، ومع ذلك فقد دخل وجره دون أن يدري. ولما كان لم يسمع بقرةً تتكلّم لغةً بشرية قبل يومه ذاك، لجأ إلى الشق، فرآها. أفلت الخيط من يده. في البيت أسقته أمُّه (طاسةَ الرَعْبَة)، ورحّلته إلى الشام.

-227-

وذات فجر، صعد علي جاد الصغير إلى جبل الصنوبر، متوهّماً أن تكون الأشجار عادت من تلقاء نفسها إلى البستان، وراحت تبحث عن أسمائها، لكنّ الحديد المطلي بالأخضر كان لا يزال سيد المكان. واستوقفته عبارة (منطقة عسكرية! ممنوع الاقتراب والتصوير)

– يا سيادة القاضي، طالما دخولنا ممنوع، تفضّل لو سمحت واحكم لنا بخروج أرضنا! قال علي جاد الصغير، ساخراً، تاركاً القاضي وراء القوس يقول شيئاً ما. وفي مثل ذلك اليوم، وعند باب المحكمة الذي يدخل منه الناس ويخرجون وجوههم رمادية تكسوها أسئلة كأداء، رأى علي جاد الصغير صديقه عبّودي متأبّطاً (تاجر البندقية). جاء عبّودي إلى المحكمة لاستعادة نصف أوقية من اللحم اقتطعت من مؤخرته، وإحدى خصيتيه.

-228-

نصف أوقية اللحم خسرها عبّودي من إليته حين قذفته درّاجته النارية في الهواء، وشيء ما هشم إحدى خصيتيه حين انزلق على الأرض كطائرة خرجت عن مهبطها. اصطادت الأسلاكُ الشائكة درّاجةَ عبّودي، وطار في الهواء قبل أن يحط على أرض ممنوعة. دخل المنطقة المحظورة كقذيفة منجنيق. لم يُحدث لحمُه حفرةً في الإسمنت.

– أمس، ما كانت الأسلاك الشائكة موجودة! صاح عبّودي، وكان فرحاً ببقائه على قيد الحياة، ولم يكن قد أدرك بعد حجم خسارته. وحين فهم، قرر إقامة دعوى قضائية.

– ضد الأسلاك الشائكة؟ سأله المحامي مبتسماً.

– ضد الدولة!

– ممثلة بمن؟!

-229-

قبل مجيء الجند، كان صغار عين الغار في الأوّل من تمّوز من كل عام، حفاةً، يتدحرجون على السفح، ممسكين بفرع ريحان هنا وفرع زرّود هناك، في طريقهم إلى جغرافيا الماء. كان الأوّل من تموّز وفق التقويم الشرقي، يومَ نزولهم الثالث إلى الماء. كان النزول الأوّل يتم في ليل التاسع عشر إلى العشرين من كانون الثاني. وكان النزول الثاني، يتمّ في ليل أربعاء أيّوب وفجر الخميس الذي يليه. وقبل ذلك، كثيراً ما كان الأولاد يغافلون أمهاتهم إلى الماء. وأمّا الأمهات فكنّ يتظاهرهن بعدم معرفتهن بما يدور حولهن. وكان الآباء دائماً مشغولين عن الصغار بأشياء وأشياء ليس آخرها تحصيل اللقمة.

-230-

صباح اليوم الأوّل من تموّز، يكون قطاف الأيدي الصغيرة الأوّل للرمان. مُرّاً لا يزال. تصطبغ أكفّهم بصفرته القابضة. يلقون به في الماء، وببضع خيارات خضراوات صغيرات. يقضمونها. يدفعون بها، ثم ينقضّون عليها. ويتراشقون بالماء. ويتسابقون إلى الغوص لاصطياد الحصيات البيضاء. وبعضهم يصطاد أسماكاً صغيرة ترقّع عنها الصيادون الكبار. يأتون إلى البحر صاخبين في هذا اليوم بالذات. وفي مثل هذا اليوم، ينزل راجي إلى البحر، وهناك يجلس متكئاً على صخرة بيضاء، ويصطاد موسيقاه.

-231-

وذات ربيع من ذلك الزمان، وما كانوا قد احتلوا بعد التراب والماء وشرفات القبور المطلّة على الأحياء، جاء راعداً ذلك الصوت الجديد الغريب:

– اجمع تلاميذك! أمر مديرُ المدرسة الجديد المعلّمَ بجمع تلاميذه في الباحة. وقف المدير الجديد أمامنا صامتاً وراح يتفحّص التلاميذ المرتعدين بنظرته المتوعّدة:

– من منكم سبح ليخرج من الصف إلى اليمين!

اكتشف التلاميذ في تلك الظهيرة أنّ البحر بات ممنوعاً عليهم وأنّ بينهم وشاة. لم يكن يبدو على المعلّم أنّه يفهم ما يدور حوله. فقد حوّل نظره عن المدير إلى تلاميذه، بحثاً عن عيني الواشي بين العيون الخائفة. كان المدير الجديد قد تعهّد بقتال أعداء الثورة في الجبال والمغاور والوديان. تعهّد بذلك أمام تلاميذ المدرسة الابتدائية. وصفّق له السقّاء قبل أن ينهي قَسَمه. ورنّ الآذن الجرس تأييداً. ثم اضطر للاعتذار حين حدجه المدير بنظرة متوعّدة. وخرج بعض التلاميذ عن صفوفهم لسماعهم صوتاً يُؤْذِنُ بالانصراف. وابتسم المعلّم لتلاميذه في الصفين الثالث والخامس.

– ما سبح منهم أحد يا أستاذ! حاول المعلّم إخراج تلاميذه من محنتهم.

– بلى سبحوا يا أستاذ، ما شاء الله تارك لهم الحبل على الغارب..!! على كُلٍّ، لي حديث ثانٍ معك بعدين! أجاب المدير مستهزئاً بالمعلّم الذي يكبره بعشرين عاماً من الطباشير.

– نعم، أستاذ، سبحوا! صاح أسمر بن بارود، وكان أوّل من ركض إلى الماء.

– أحسنت! – قال له المدير الجديد، وسحبه من الصف ليقف إلى جانبه– ثم للمعلّم: قلت لك تارك لهم الحبل..

– والله، أنت الذي تركوا لك الحبل أطول من اللازم– ثم أضاف المعلّم في نفسه– زمانك وزمن أمثالك! وافتر ثغره عن ابتسامة تشجيع لتلاميذه.

وبعد لحظات ساط فيها المدير الجديد عنق جزمته بعصا من الخيزران، جاء بها مترفعاً عن قضبان الرمان، بادر التلاميذ بما لم يكن بالحسبان. أمرهم المدير الجديد بالتقدّم صوبه واحداً واحداً، وراح يلحس شعر كل منهم. فمن كان شعره مالحاً تلقى صفعتين عنيفتين في طريقه إلى غرفة الصف. تلقّى المالح الأوّل صفعتين وركلة في الظهر، فقنأ وجه المعلّم وتوتّر ساعداه وتطاير الشرر من عينيه. ومع صفعة أولى تلقّاها المالح الثاني، أمسكت قبضة يد المعلّم القوية بذراع المدير الجديد، وسحبته بعيداً عن التلميذ الباكي.

حدّق المعلّم في عيني المدير، وناب صريرُ أسنانِه عن أيّ قولٍ في الوجه الأصفر المذهول. وصاح المعلّم بتلاميذه بصوت واثق ونبرة واعدة بالأمان.

– الجميع إلى غرف الصف!!

-232-

في تلك الظهيرة، انتهى ارتيادنا الرسمي للبحر، من كان منّا لا يزال يتعلّم في المدرسة ومن تخرّج فيها. وتغيّرت حياة المعلّم.

– إياك أن تدخل غرفة صفي،– قال المعلّم بقسوة هادئة، قبل أن يعود إلى صفّه صافقاً باب غرفة الإدارة بقوة – أكسر رجلك لو دخلت! سقطت كلمات المعلّم الثقيلة في يدي المدير الجديد المشغولتين بتعليق صورة جديدة لنجل الرئيس قبالة خارطة سوريا.

-233-

كان المعلّم يتحدّث، في تلك النزهة، عن البحر الأبيض المتوسط وعن الكنعانيين، وعن فوائد السباحة وركوب البحر. وحين سمعتْ ابنة مريم بما حدث لتلاميذ المعلّم امتلأتْ غضباً، وباركت يد المعلّم وقبّلتها، راجية إياه أن لا يبخل، في المرّة القادمة، بلكمة تكسر أنف ذاك المخبر المتغطرس الذي امتلأت بأمثاله المدراس.

– لا تنتظري مرّة قادمة، لا تقلقي...سوف يصرفونني من الخدمة. هذه هيّنة عليهم!

-234-

وعند البحر، وعلى حصى الخليج الذي سبح فيه تلاميذ المعلّم، كان جسد راجي همد بلا حراك. سحب سلّومُ صديقه، جاعلاً له من جسده عكّازاً ومن علي جاد الصغير عكّازاً آخر. لكنّ راجي رفض النهوض. تمنى لو يأخذه البحر دون رجعة إلى بشر يفهمون معنى أن لا يكون المرء قاتلاً، بشر يُنشؤون أولادَهم على أنّ الحب هو القوة وما عداه ضعف.

ومع الموج، مع صفير الريح في القواقع المثقوبة وفي مغاور يتناوب دخول أبوابها الماء والهواء، أُنهضَ الشرطي، وَوُضع على ظهر حمارة سلّوم. كانت تلك محاولة من سلّوم لإعادة راجي من طريق الموت.

وعن الحصى، رفَع علي جاد الصغير مسدس الشرطي الفارغ. ومن الخليج إلى عين الغار، سلكوا طريق كور بينار. وتحت شجرة دلب كبيرة قرب النبع، حطّوا الرحال. لم يشأ سلّوم ولا علي جاد الصغير أن يرى الناس انهيار راجي. اغتسل الشرطي بماء النبع البارد واغتسلا، واستلقوا حتى مغيب الشمس. ومن هناك، تسلّقوا السفح نحو منبسط (البقجة) المزروع بالقمح. وكانت السنابل أحنت رؤوسها إلاّ الفارغات. وترفّعت عن الانحناء سنابل مليئة بهبابِ رجولةٍ تزول بالغسيل.

-235-

– إلى (البقجة)، يا الله يا شباب!! صاح عريف الصف السادس، بأبناء صفّه الراكضين نحو صباغ الشوارب، المتعجّلين رجولة يَحسِدون على بوادرها الراحلين منهم إلى الإعدادية وليس كلّهم فاعلون. وشتمهم الآذن، وضحك السقّاء. وقهقه أبناء الصفين الثامن والتاسع، متباهين بزغب أسود يوحي باتساخ دائم فوق الشفة العليا، وبخشونة في أصواتهم تشدّ أيديهم إلى سراويلهم في غرف الصف. باليمنى يكتبون، فيما يسراهم مشغولة بما يدب هناك. لليمين مجده.

-236-

– ادخل بقدمك اليمنى، بجنبك الأيمن. الق التحية باليمنى. تسلّم كتابك باليمنى وسلّمه باليمنى. كل باليمنى واكتب باليمنى.. ابدأ الأفعال كلّها باليمين! يقول المعلّم مبتسماً ابتسامة غامضة. وكان التلاميذ عرفوا أن المعلّم رجل يُتيمّن برأيه. وعلى ذلك سألوه:

– فإذن، لماذا خلق الله اليسرى؟

– احتياط – صاح أحد ما من المقاعد الخلفية– إذا قُطعت اليمنى يكون لدينا بديل!

– معناها، لدينا عين احتياط ويجب أن نستخدم عيناً واحدة، ورِجل احتياط ويجب أن نقفز بدلاً من أن نمشي!! يفرح لاكتشافه طويلٌ، يجلس قرب النافذة. ومن هناك تمدّ له أخته (قضوضة) زيت مملّحة، فيمد يده اليسرى عبر حديد النافذة لاستلامها من الصغيرة المختبئة تحتها. الأمّهات يصنعن زعتراً لذيذاً في البيوت. لكنّ صاحب اكتشاف الأعضاء الاحتياط كان قد أوصى أخته بالزيت وحده، فللزعتر رائحته الفاضحة.

– ولكننا لا نستطيع بيد واحدة أن نصفّق! يعترض بدهاء تلميذ صغير القد، مداعباً ببريق عينيه عيني المعلّم. يبتسم الأخير.

– إذن، من أجل التصفيق خلقت اليد الثانية؟ تتحول ابتسامة المعلّم إلى سؤال يلقيه على عيون تلاميذه المتسائلة.

-237-

لا يطلب المعلّم من تلاميذه مسح الهباب الأسود عن شواربهم. ويغلق الباب دون الآذن الذي يتعقب الرجولة فيهم.

– ما رأيكم أن تلوّنوا نصف شارب وتتركوا النصف الثاني؟!

– نلوّن النصف الأيسر أم الأيمن؟– ردد أحدهم ما قالته رفيقته التي تشاركه المقعد بهمسٍ، وأجاب بنفسه– الأيمن.

– فكّروا أكثر يا أولاد! ابتسم المعلّم وأذن للبنات برسم الشوارب التي تعجبهن على وجوه رفاقهن.

– لتذهب البنات هذه المرّة ولتحضرن صباغ الشوارب، وأمّا أنتم فلتغسلوا شواربكم (المجلغمة). الجلغمة شغل اليسرى، أمّا المرسومة باعتناء فشغل اليمنى! هيّا أيتها الفتيات إلى (البقجة) لا تتأخرن. وأنتم بسرعة إلى برميل الماء! وفيما اتجهت الفتيات إلى (البقجة)، اتجه الفتيان إلى السقّاء

– جئتم بوقتكم!– قال السقّاء مهللاً– ساعدوني بمسح الخشبة! وكان السقّاء يشذّب الأخشاب التي ساعدوه بإحضارها لصنع الخوان لابنة مريم. وأضاف، بعدما رجاه الأولاد جواباً عن ضرورة اليد اليسرى:

– اسألوني عن شيء أعرفه. عن الفرق، مثلاً، بين جذع شجرة برّية وخشبة في خوان.

-238-

وعادت البنات من حيث كان الصباغ بانتظارهن، على مسافة ألف سنبلة مشدودة، سفا الواحدة منها إلى عنق الأخرى. فمن كان حبيبها أسمر جاءت ب(اليوستيلاغو القمحي). ومن كان حبيبها أشقر، جاءت ب(التيليتيا الهندية). اثنتان فقط جاءتا بالأخير. لم ينه المعلّم تلاميذه عن فعل ذلك. فهو نفسه كان في زمنٍ لم تمت أبواغه بعد، ولم يكن الشر قد تبوّغ فيه إلى هذه الدرجة بعد، كان قد استبكر رجولته بالأبواغ السوداء. كانت ملايين كثيرة من الأبواغ، تنفتح عنها السنابل الحبلى بشوارب للسمر. وملايين أخرى، تنغلق عليها سنابل حبلى بشوارب للشقر. ويعطس الأولاد كما عطس المعلّم يوماً، وتفرك أيدي رفيقاتهم السنابل المتفحّمة، راسمةً شوارب، بعضها قلماً على خط دقيق يسير، وبعضها غاضباً خشناً ينعقف إلى أعلى من جانبين، وبعضها كفرعين من وزّال إلى يمين وإلى يسار. ويبتسم المعلّم لواحدة راحت توزّع الهباب على وجه رفيقها

كلّه فتجعله أسود، وتجعل له من أزهارٍ صفراء قطفتها مع السنابل شفتين غليظتين. فعلت الصغيرة ذلك باليسرى وهي تختلس النظر إلى عيني المعلّم الفرحتين.

-239-

– الأحد القادم يوم النزهة! يرسم كلٌ منكم على وجه رفيقه قناعاً بتلوين الطبيعة، بأزهار النباتات وأوراقها، وبما تشاؤون من أشياء. قال المعلّم، وفرح للفكرة التي خطرت بباله من أجل يوم النزهة القادم. لم يكن مدير المدرسة الجديد قد لحس الرؤوس بحثاً عن الملح، بعد. نزهة أسبوعية كان يصطحب فيها المعلّم تلاميذه، ينشئون في نهايتها نصاً يعبّرون فيه عمّا يشاؤون، مما بقي في أرواحهم أو عقولهم أو يرسمون ما يُغني عن الكلمات. بالأقلام الرصاص، بالحبر، بصباغ النباتات يرسمون، بكل ما يقع في أيديهم يرسمون، ويبتسم المعلّم

– من منكم يريد أن يصبح رسّاماً، فليرسم بكل شيء وعلى كل شيء.. لا تنتظروا دفاتر رسمية وألواناً رسمية!

-240-

– لكنّك لم تخبرنا لماذا اليد الثانية، إذا كان كل شيء للأولى؟ ولماذا بوركت اليمين دون اليسار؟

– وكلتا يديه يمين! – قال المعلّم– ستعرفون ذلك بأنفسكم! وستفهمون معنى أن ينفرد الله بهذه الصفة، ومعنى أن نكون آلهة في الأرض! وهل ترون أنني أقسركم على اليمين وأهمل اليسار؟! ثم أضاف في نفسه:

– الطبيعة لليسار والمدرسة لليمين. واليد الماهرة التي تقنن الفوضى وتهذّب الطبيعة نحو طبيعة ثانية، وتتوقف عند العتبات بينهما، فتعيد إنتاج نفسها، تكون يداً يمنى ويسرى. وليس غريباً أن اليمنى تستجيب للأيسر في دماغنا واليسرى تلبي نداء الأيمن، فأين يكون التقاؤهما؟ أليسَ بقواعدَ للّعبِ لا تقتل روح اللعب ولا تفلته، فيأتي على كل ما يُستخلص من اللعب من دروس؟ لست أدري بعد، كيف أجعلكم يا صغاري تستنتجون بأنفسكم معاني الأشياء. أبالرسم أم بالغناء والرقص أم باللعب أم بالشعر وبالمنطق والرياضيات.. بسلاسل تنتهي من أسباب محددة إلى نتائج محكومة بأسبابها.. سلاسل تصطحب في طريقها كل ما يتمفصل معها، نابذةً كل ما له خصوصية دونها، أم بكل هذه الأشياء معاً؟

-241-

وترك التلاميذ معلّمهم يرسم أشجاراً متداخلةً بالطباشير، على سبّورة خضراء، ويرسم للشمس شاربين يتدليان صوب الأرض، كأنّما بانتظار أن يقطف أحد ما أبواغ الضوء. وخرجوا، بعضهم إلى السقّاء يشذّب الألواح نحو خوان ما زالت تفوح منه رائحة الأخضر، وبعضهم نحو صوانٍ من القش، وأرغفة لم تفحّمها شواربٌ نمت قبل الأوان. لم يقولوا لمعلّمهم إنهم ما عادوا يرسمون الشوارب بانتظار فتياتهم إنّما بانتظار العسكر. أمْ أنّه كان يدرك ذلك فجعلهن يرسمن ما ينتظرن من الفتيان. وراح يراقبهم جميعاً، فيما تلاميذه عن طبيعة ابتسامته ساهون. وكانت أرض السنابل تطلّ على النبع. ولم يكن العسكري المتلطي عند النبع يحتاج إلى سنابل متفحّمة لإخافة الأولاد.

-242-

في طريقهم إلى الجرف المطلّ على النبع، اختلفوا. وكانوا أربعةً، فيصل وجلال وعلي بن سلمان وعلي جاد الصغير. اقترح أحدهم أن ينقلوا حجراً كبيراً إلى الحافّة، ويسقطوه على صائد الصغار أثناء وروده نبع الماء. كان المكان الوحيد الذي يمكن أن يسقط فيه الحجر سقوطاً حرّاً هو بركة النبع. "حرام قتل حتى الحيّة العطشانة!" كثيراً ما كانت الأمهات تقول، حين كن يرين صغارهن يلاحقون السرطانات الصغيرة فيقتلون بعضها على ضفة الساقية. لم يقل التلاميذ لأمهاتهم إن هذه الحيوانات ذات الملاقط القوّية تعيش في الماء ولا تأتي إليه لتشرب.. وكانت الأمهات بغنى عن القول. إذن، نسقط الحجر قدّامه فيفهم أنّه يمكن أن يسقط على رأسه في المرّة القادمة! فكّر علي جاد الصغير، وكان أصغرهم. واقترح علي بن سلمان:

– ما رأيكم لو نعمل ما عملته زليخة بابن خالتها؟ وفيما صمت جلال، وراح العليّان يقلّبان الأمر، دخل فيصل إلى الدغل.

-243-

لم تجد زليخة طريقة للتخلّص من تحرشات ابن خالتها المستمرّة أفضل من التظاهر بالاستجابة لرغبته. وفي اللحظة المناسبة أخرجت سكيناً وذبحت ثعبانه.

وفجأة علا صراخ من الدغل. كاد ثعبان يلدغ فيصل في مؤخرته العارية. ارتد صدى الصوت عن السفح المقابل. خيّل للمتآمرين أنّ العسكري يناديهم من معتزله. لم يكونوا قد حسبوا للحالات الطارئة حساباً. انسحب جلال فانسحبوا. انطلقوا صامتين في طريق العودة، كلّ منهم يقطع بالسكين التي في يده ما يعترض طريقه من نباتات نحيلة.

ونهق جحش بارود الرمادي. وحين التفتوا إليه رأوا جحشة بيضاء مربوطة على مسافة غرمولين من أقصى رسنها ورسنه.. كان بارود قد ربط الرمادي إلى جذع سنديانة، عرّشت عليها

الدوالي من كل الجهات. في الصيف، لا يربط بارود حماره إلى شباك المدرسة. وكان أحد ما قد ربط البيضاء إلى شجرة قطلب. تحوّل الأربعة المتآمرون من الغضب إلى الضحك، حين رأوا المسكين ينهق متوسلاً الوصول إليها، وتنهق معالجة حبلها المتين، دون أن يكون واضحاً لهم، هرباً منه أم انشداداً إليه. وبعد تردد، في فك رسنه واقتياده إلى الوادي أم رسنها أم الرسنين معا، انحدروا إلى الوادي. لم يكن العسكري هناك. في طريق عودتهم، لم يكن بارود على شرفة علّيته. وفي ماء النبع وجد فيصل الهارب بمؤخرته من الدغل، وكان ركع لنهل الماء كما يفعل أبناء الطبيعة، وجد دبلةً ذهبيةً. فرح الأولاد، وقال جلال:

– خلّونا نزّوج الحمار من الحمارة! وتسلّقوا السفح نحو فك رسن الحمار، وأعطى فيصل الدبلة لعلي بن سلمان.

–244–

– الدبلة تقطع الإصبع! قال عيسي.

فذات مساء، وكان عيسي عائداً من (الوطى) حيث قُسم السهل إلى رقعٍ صغيرةٍ، خصّته الثورة بواحدة منها صغيرةٍ، زرعها بالبامياء، أوقف أحدهم جرّاره، وكان قد أفرغ ما في قاطرته من الزبل البلدي في رقعة مجاورة لرقعة صاحبنا عيسي. صعد عيسي إلى القاطرة واتجه به الحديد إلى عين الغار. ولم تنقص اللباقة سائق الجرار في أن يسأل صاحبنا أين يريد النزول، فأجابه عيسي:

– لا تشغل بالك يا ابن أخي، أنزل لوحدي على الماشي! وأجابه سائق الجرار بكلمات لم يسمع منها عيسي شيئاً. فقد ذهبت بها قرقعة الحديد إلى غير مكان. وفعل عيسي ما وعد به. فعند ذلك المكان الذي انحشر فيه رأسه بخاصرة الأتان، قفز عيسي، لكن الدبلة علقت في نتوء حديد على سور القاطرة. وفي القاطرة، سقطت عقلتا الإصبع مع الدبلة وسط بقايا الزبل. لم يستغث الرجل ولم يصرخ لإيقاف الجرار واستعادة الدبلة. كانت المرأة التي يؤقّتُ خروجَه مع جلوسها على عتبة الدار على بعد خطوات منه، حين سقط وصدرت عنه أنّة مكبوتة، ما كادت تتبيّنها حتى استقام، ضاغطاً مكان الإصبع المقطوعة إلى خاصرته. واتجه صوب بيته. وكانت امرأته في هذه الأثناء مع أختها في زيارة إلى الجب. كانت امرأته رأت، في منامها، ذهباً عتيقاً في قاع الجب.

–245–

– ختيرنا، يا ابن العمّ!– قال الشيخ في طريق عودته مع ابن عمّه المعلّم من الجب، ولم يكن المعلّم قد تخطى الخمسين– بدأ التعب يظهر علينا. كان الشيخ يأتي لإقامة قصيرة عند المعلّم من ضيعةٍ، للمعلّم فيها أقارب كثر خشنو الوجوه، على خلاف ضيفه. وكانوا كثيراً ما

يُصلّون، ويشكرون الله، ويأكلون لحم الذبائح المسلوق، وتحت أشجار السنديان يجلسون، وينامون نهارهم، تاركين الليل للنساء.

– والله أعلم، والله صاحب الأعمار وموزّع الأقدار، ونحن البشر لا نعرف إلا القليل ولا لنا في تغيير ما كتب علينا شيء إلا أقلّه.. والله يا ابن عمّي شفت ليل أمس مناماً، خوّفني وأقلقني عليك وعلى أهل بيتك.

–246–

ولم يكن المعلّم بحاجة إلى ما يقلقه. فقد كان شعوره بالعجز أمام من احتلوا أرضه واقتلعوا زيتونها وأحرقوه موجعاً. كان رفض بيعها فجعلوها منطقة عسكرية. ولم يكن المعلّم يلقي بالاً قبل ذلك إلى وخزة هنا ووخزة هناك. فكثيراً ما تشنّجت عضلات رقبته وظهره، وكثيراً ما آلمته فقرات ظهره بين لوحي الكتف، وكثيراً ما كان ينتقل الألم إلى الصدر. وذلك كلّه، لم يكن يقلقله كما يقلقه اليوم. كان بحكم الممارسة والعيش يعرف أن ذلك عابر. كان يختبر علاقة هذه الآلام بالقلب بأن يتسلّق بخطوات سريعة سفح الجبل، وأن يعمل بالفأس والمعول بأشدّ مما يعمل عادة، ويعدّ نبضه ويتنفّس بعمق وينشرح صدره لفكرة أنّه لم يشعر بالتعب. وأمّا اليوم، فإن فكرة أن يكون للألم الذي يلف محيط الصدر ويصعد إلى الكتفين أحياناً، وللشدّ في وسط الصدر علاقة بالقلب لم تبارحه. وجاء ابن عمّه الشيخ ليزيد الطين بله.

روى الشيخ أنّه رأى، في منامه، سقف بيت المعلّم تلتهمه النار. ورأى الناس يركضون إليه ويصرخون متأسّين على حال المعلّم. ورأى السقف يهبط بعد ذلك، ودخانا أسود يتصاعد من هناك. وصمت الشيخ، وراح يمسح، بمنديل قطني رمادي مزرقٍ، العرق عن جبينه.

–247–

وهرباً من فكرة الموت، أراد المعلّم أن يفسّر المنام على نحو أن هبوط سقف البيت يعني هبوط سقف الاحترام، يعني هبوط المرتبة الاجتماعية والاعتبارية للمعلّم. أراد أن يَطمئن إلى تفسير ينسجم مع واقع يعيشه. فحمارته كانت قد أُفلتت، ودرّاجته كانت قد فكّكت وسرقت، وتلاميذه ما زالوا ينسلخون إلى عسكر ويخرجون عنه وعليه. وفي بحث عن تفسير آخر لا ينتهي إلى الموت، راح يرى في الدخان المتصاعد من السقف فضيحة. من أين تأتي الفضيحة؟ راح يتساءل، بل ويبتسم لعلاقته بالمرأة الساكنة أطراف عين الغار. هي علاقة لم تتعد تناول فنجان قهوة، وشغف برؤية الحب في عينيها. أم أنّ الفضائح تكون على أحلام وأمنيات. وتذكّر المعلّم ابنه علي جاد الصغير. وابتسم لفكرة أنّ الفضائح لا تأتي، هنا، من الذكور. ولم تكن في بيته امرأة تثير خشيته. وسأل المعلّم ابن عمّه الشيخَ:

– ما قلت لي، الدخان كان لونه أسود أم أبيض؟

– لا، لا..– رأى الشيخ تخفيف وَقْع ما ينذر به المنام عن المعلّم فحوّل اللون إلى الجهة التي لاحظ أن ابن عمّه ينتظرها– كان أبيض وخفيفاً.. الدخان طلع لفوق، واختفى بالسماء، والسماء كانت صافية.

– الحمد لله!

– وهل شفت، أقصد في منامك، أخي راجي في بيتنا؟ كان راجي قد اجتاز ثمانية أيام من عشرة حدّدها عدّاناً لموته. وكان المعلّم يدرك أنّه يقف على عتبة سيختفي بعدها إلى الأبد. ولذلك راح يتمنى لو أن الشيخ يكون قد رآه.

–248–

وفي طريق عودة المعلّم مع ابن عمّه الشيخ من الجب، شعر بعرق بارد يخرج من مسام جسمه في كل مكان. وبدأت عيناه تتفحصان هامشي الطريق على اليمين واليسار، كأنّما هما تبحثان عن حجرٍ يستريح صاحبهما عليه. راح المعلّم يُطمئن نفسه، إلى أن المسألة وما فيها مجرد قلق وخوف.

الخوف! كان المعلّم ينازل الخوف كلما أدرك أنّه بدافع منه يقول ما يقول أو يفعل ما يفعل. ولكنّ الخوف كان يهزم المعلّمَ في كثير من الجولات. فيحزن المعلّم ويبحث عن تسميات أخرى للدافع الذي التبس عليه مع الخوف. ويسخر المعلّم من نفسه. فكيف له هو المؤمن بالله، وهو الذي وعده الخضر بوشاح ينقذه أن يخاف. "القلب لك!" يقول لصاحب الوشاح الأخضر. وينظر إلى صدره، فيرى بقعة من الحبر الأسود تفيض من جيب القميص الأبيض إلى الصدر.

كان قلق المعلّم قد جعله يخرج قلم الحبر من جيبه ويعيده إليه، جاعلا الريشة إلى أسفل. ثم جعله يظنّ طبّة القلم التي بين أصابعه عقب سيجارة باردة، فيلقي بها بين الحجارة قرب الجب. كثيراً ما كان المعلّم ينبّه تلاميذه إلى بشاعة أن يلقي المرء بالمخلفات في أي مكان غير مخصص لها وخاصة قرب مصادر المياه. الأصابع وحدها فعلت.

–249–

ولسببٍ لم يتبيّنه، وضاعف من قلقه، تذكّر طفولته في بيت زوجة أبيه في حي الشيخ ضاهر، حيث كان الشيخ العائد من حرب ال48 يعيش مع زوجته الثانية. تذكّر كيف كسرت زوجة أبيه الريشة التي كان يكتب بها، وكَسرت دواة الحبر، ومَزّقت دفاتره لأن أخاه منها نال درجات أدنى في المدرسة. وكيف أنّها أخفت آثار كل شيء قبل عودة الشيخ رئيس المخفر من مخفره إلى البيت، وكيف أنّه التزم الصمت، مكتفياً برجاء والده إعادته إلى أمّه سكيبة في

الضيعة. وخطرت بباله خاطرة ضاعفت قلقه " أليس في طريقه إلى مغادرة الحياة، يستعيد الانسان ذكريات طفولته؟" وابتسم للخضر. كان هناك كثير من الألم في طفولته، كثير مما تدرّب على نسيانه، وليس لرغبة فيه يأتيه الآن.

-250-

وذات مساء، وكانت من بعيد قد رأت زوجها الشيخ يغلق باب الدار التي جاء يمضي فيها يوم عطلته، وقفت سكيبة على باب بيتها الذي أُخرجت منه إلى دار عتيقة لتحلّ محلّها هي المثقل جسدها بالماء، امرأة ما زال بمقدورها القفز على الحصان، وقفت سكيبة تحمل وعاءً فارغاً، على رجاء أن تعود به ملآن من هناك. لم يخرج الشيخ إليها، وربّما هو لم يعلم بمجيئها. في ذلك المساء، عادت سكيبة بلا طحين. وكان الثلاثة أولادها ينتظرونها جائعين.

كان موسم الحصاد قد مضى من زمان، وكانت سكيبة قد سنبلت وراء الحصّادين ما استطاعت، لكن القمح نفد والشعير، ولم يبق في البيت ما يؤكل سوى قليل من زيتون (عفّرت) حبّاته هنا وهناك. ولم تكن سكيبة، إلى ذلك الحين، قد أعلنت عن عوزها حفاظاً على كرامة الشيخ. وهي لم تعلن عن ذلك حتى بعد أن جوبهت بصمت الأبواب ومن أخفت.

كان في البيت أربع الأخوات اللواتي وقع الشيخ في هوى إحداهن فأسكنها داراً كانت لسكيبة حتى ذلك اليوم. نفضت سكيبة عن فستانها المزركش بزهر لم يذبل بعد ضحكاتهن، وشدّت كتفيها إلى الخلف ورفعت رأسها إلى الأعلى وعادت إلى الصغار. أرادت أن تدعو الله لكنّ الدعاء تحوّل إلى جمود في عينين رفضتا الدمع.

-251-

ويوم جاء راجي بحبيبته ناهلة إلى الدار، ارتسمت على وجهه علامات حيرة. فقد وجد نفسه أمام أمرٍ لم يفكّر فيه من قبل. كيف يسمي الدار؟ هل يقول هي دار أبي أم دار أخي أم دارنا.. الشيء الوحيد الذي كان يعرفه هو أنّ الغرفة العتيقة المبنية من الحجارة والطين والمسقوفة بجذوع بلّوط، مفروش عليها بلاّن مضغوط وفوقه مجبول طينٍ، كثيراً ما مشى عليه الأولاد، ونبتت عليه أزهار بابونج وأقحوان، الأوضة التي لم تُهدم حين بني بيت جديد من الحجارة الرملية والاسمنت، لأن الشيخ الجد أصر على البقاء فيها حتى الموت، بعدما نُقل قسراً إليها، أن هذه الأوضة التي وجد راجي نفسه ينتقل إلى إقامة دائمة فيها، بعد موت الشيخ الجد، تصلح لأن يضيف لها ياء الملكية. ومع ذلك قال لها (بيتنا)، تاركا هذه ال(نا) معلّقة في الهواء.

-252-

وعند نزول ناهلة من سيارة النجدة، راعَ ابتسامتها التي سبقتها إلى بتلات الورد، ومع عبقها إلى وجوه الأربع النساء، أن ترى ثمانية كهوف تنظر إليها فاغرة ظلامها. فارتدت إلى شجيرات الورد، ومنها إلى قصبتي جزمة الجلد، وعبر ساقين طويلتين وخصر ضامر وصدر مرفوع، إلى عيني حبيبها الشرطي المملوءتين أسئلة صعبة.

-253-

وصادف مجيئهما مرور فتاة كانت تحمل صينية قش مغطّاة بخرقة بيضاء مقتطعة من كيس طحين، تهلهلت من كثرة ما غُسلت ونشرت في الشمس. كانت الفتاة في طريقها من التنّور، حيث أمّها تخرج الأرغفة المشويّة الفوّاحة من بيت النار إلى دار ينتظر فيها أبوها وأخوتها الصغار الطعام. ابتسمت الفتاة للشرطي الكامد العينين، فاصطنع ابتسامة. كانت شبّت على بتلات يضعها كلما صادفها على وجنتيها. ورجته عيناها التمهل، فاستجاب. وضعت الفتاة صينية الخبز على سطح سيّارة النجدة، وسحبت رغيفاً طريّاً وطوته طيّة خاصّة، فثانية، فثالثة، فرابعة..حتى جعلت منه وردة. ومع كلّ طيّة راحت قطع مقرمشة تتكسّر وتسقط على الأرض. بدت رقائق الخبز المطويّة أشبه بالبتلات. تشكّلت الوردة في يدها، وقدّمتها له، واضعةً يدها في يده كي لا تنفلت البتلات الخبز. فضغط يدها، وسحبتها بعد أن اطمأنت إلى الوردة في يده، وعادت إلى أمّها.

-254-

– أهلا وسهلا، تفضّلي حبيبتي تفضلي! قالت لناهلة المرأة التي رسم الشرطي صورتها على جدار دار أخيه المعلّم، تاركاً لعلي جاد الصغير أن يتسلّق اللسان نحو سارة. ولمّا كان أثار فضوله ما قد يقلنه لها، أشار راجي لناهلة أن تتبع زوجةَ أخيه، إلى حيث تنتظرها أمّه وخالاته الثلاث. أشارت إليه أمّه بيدها، أنْ اترك النساء وحدهن، وانصرف إلى أوضتك.

وبينهن، وجدت ناهلة نفسها يندلق عليها حب دبق. وراحت النساء تحيك حولها نسيجاً متيناً حلواً، لم تر أو تذق مثله من قبل.. وراح النسيج يبكي يأسهن من حالة حبيبهن اللامبالي بأي شيء في الدنيا، ولا حتى بآلام أمّه التي تسعة شهور في بطنها حملته، هي المسكينة الصغيرة القد، قبل أن تنجبه هو العملاق إلى الدنيا.. وراح النسيج يبكي سكرَه الدائمَ وتبذيرَه لراتبه، وما لا تبخل به عليه أمّه وأبوه الشيخ.. وراح النسيج ينوح، لاعناً الظروف التي حالت دون امتلاكه أي شيء في الدنيا، فلا البيت بيته، ولا شبر أرض، ولا حتى فرع زيتون يملك حبيبهن ونور عيونهن.. وراح النسيج الحلو يبكي قلّةَ أصل الناس، فما أكثر من يشرب ويأكل على مائدته كل

يوم.. وفي الأيام التي يكون فيها مناوباً، يأكلون ويشربون.. ويدفع، ويبكي النسيج قلّة وفاء الناس.. فمَنْ مِن أولئك الطفيليين سيرأف بحال حبيبهن الذي لن يعيش طويلاً، من كثرة الشرب وقلّة الأكل، ويؤكد النسيج أنّه ابن أجداده فهو من سلالة يموت شبابها باكراً، لسبب السكر ولأسباب أخرى.. ويخجل النسيج من ذكر الأسباب الأخرى ثم يقول، في خَفَرٍ، شيئاً ما عن الإسراف في مضاجعة النساء، كثيرٍ من النساء، ويؤكد النسيج أنّ كل ثقب بالنسبة لأولاء امرأة. وتركنها..

-255-

رأت النسوة في عيني ناهلة أنّ حبها راح يتزعزع، لكنّ عنادها جعلها تتظاهر بالتمسك براجي. عانقنها وتركن لعاباً ودموعاً على وجهها وتمنين لها التوفيق معه. ورحن، بعد ربع ساعة، كانت كافية برأيهن لتروي له ما سمعت منهن، ينتظرن النتائج. كان رهانهن يتأرجح بين أمرين، وكلا الأمرين، كما انتظرن يصب في مصلحتهن. فإمّا تكون ناهلة حكيمة وتسكت عمّا سمعته، وتنسلّ من علاقتها معه بهدوء، فيكرهها ويكره بسببها كل النساء، ويُقلع عن الزواج؛ وإمّا تكون حمقاء فتنقل إليه ما قلنه، فإذا به يقتحم الباب ويحطّم كل شيء يصادفه في طريقه. وفي الحالة الثانية، راهنّ على أن يقوم، أمام عينيها، بِرفس المرأة التي أنجبته. وعندئذ، ستعرف هي المعميّ قلبها بالعشق أي رجل يكون، وستتخلى عنه.. وبعدها، بعدها سيكفر بالنساء فلا يتزوج ويتحقق الحلم الذي قصت خالته عليهن فحواه..

-256-

ولحظتذاك، علا صوت منادي الضيعة من أعلى حاووظ الماء:

– يا أهالي عين الغار، الحاضر منكم يعلم الغايب، ابن بوعلي حكيم ضربه أخوه بالسكين بطيزه، لأنه كسلان وطوال الوقت قاعد.. الذي عنده سيارة يسعفه، الله يحمي له طيزه واطياز محبّينه! وردد السامعون، ساخرين:

– الله لا يؤذي طيز محبّ بجاه الرب ولا طيز قريب بجاه الحبيب.

وهرع شرطي النجدة إلى السيّارة، وهرعت ناهلة واتجها إلى بيت بوعلي. وهناك، فوجئا بالشقوق التي أحدثتها ضربات السكّين في مؤخرة علي، وبالبثور الحمراء على الجزء السليم منها. لم تكن ناهلة قد ضمّدت مؤخرة مقطّعة من قبل. اكتشفت ناهلة أنّ من أصعب الأشياء تضميد هذا العضو من الجسد. فهم الشرطي أنّ عليهما الإسراع إلى المشفى لرتق الجراح. وطلب من الصغير التواري عن الأنظار، ريثما يجد طريقة لتدبر الأمر، فقد تأتي الشرطة للقبض عليه إذا صرّح علي بما حدث. واندفعت السيّارة مخلّفة وراءها الغبار.

-257-

كان الصغير ناصر قد سئم تقاعس أخيه عن العمل، وأثارت جنونه يد أخيه الممدودة دائماً لطلب المال منه ومن أخيه الأصغر الذي لا يتوانى عن أي عمل يُكترى لإنجازه من أجل تمويل دراسته في الجامعة، فأخرج السكين في لحظة احتدام، وأمر أخاه بالوقوف وراح يقطّع مؤخرته.

-258-

وبعد عودة راجي بالجريح مضمّداً، وكان طبيب الإسعاف قد أوصى الأخير بالبقاء منبطحاً حتى تلتئم جراحه، فلن يكون بإمكانه الجلوس قبل عشرة الأيام، اتجه راجي إلى بيت أخيه المعلّم. وهناك، أسرع علي جاد الصغير لترتيب مائدته على سطح البيت.

بقيت ناهلة في المشفى. فقد رجاها طبيب الإسعاف أن تفعل. وبدا واضحاً لراجي أنّها تريد البقاء دونه. كانت الحوادث كثيرة في ذلك اليوم. كثيرون طعنوا إخوتهم أو أبناء عمومتهم بالسكاكين. وحين رأى علي جاد الصغير عمّه صامتاً واجماً، ظنّ الأمر يتعلّق بحادثة ابن بوعلي حكيم. لكنّه سرعان ما أدرك أنّ الجراح في قلب عمّه أعمق من الجراح في مؤخرة علي. وبعد صمتٍ غاضبٍ، أخرج الشرطي مسدّسه، وبعد تأكّده من امتلاء مخزن الرصاص، نهض! ورأى علي جاد الصغير في عيني عمّه موتاً وشيكاً. لكنّ راجي كان قبل ذلك، دان أمام ابن أخيه فكرة الانتحار، وخاصّة بالرصاص.

-259-

- هوب.. هوب! عزرائيل يقود سيّارته مسرعا باتجاه عين الغار! إلى أين يتجه هذا السكران؟
- هوب.. هوب! خلّني أنزل، الله يخلّيك، تعبت.. تعبت من المشوار!

-260-

وكانت ابنة مريم ترسم لنفسها تصوّرات للقائها بالله. وكان يغلب على تصوراتها اتهامات توجهها له بعدم العدل وبمناصرة الظالمين. وكانت تخشى أن يكون مصير الفقراء أسوأ من مصير الأغنياء في الآخرة:

- سامحني يا رب، ما مقتنعة بفكرة الآخرة !!

كانت تقف على سطح البيت بعد منتصف الليل وتبحث عنه في القبة المتلألئة النجوم. كثيراً ما كانت أمضت ليالي القدر مع جدّها وأبيها بانتظار أن تسجد الأشجار. وكثيرا ما كانت تقول في نفسها إنّها ستطالب الله، حين تراه، من كل بد، بإعادة النظر بمسألة الجنّة والنار. فما معنى

تأجيل الحساب؟ ولماذا لا يترك للناس أنفسهم أن يدحروا الظلم والظالمين هنا، وأن يسعوا إلى حياة أفضل وأكثر عدلاً:

– يمكن.. يمكن.. يا رب سامحني، لولا الوعد بحساب بالآخرة ما كان الناس سكتوا عن الظلم بالدنيا، ولا كانوا قبلوا الذل والفقر والجوع والعذاب لولا وعدتهم بالجنّة..

ترجو الله أن يعيد النظر بوعود تجعل البشر أجشع وأبشع وأضعف وأكسل.. وتنصرف إلى الموقد حيث الماء يغلي ويهز غطاء القدر الذي ينتظره أبناؤها الجائعون..

-261-

ومن قلق في عيني أبيها الشيخ، بات واضحاً أنّ الصغيرة أفلحت في زرع سؤال في روحه عن حكمة قتل الخضر لصغير لم يعرف معنى الشر بعد. لم يعجب الصغيرة كما لم يعجب أمّها مريم قبلها، أن يقوم هذا الفارس الممتطي صهوة حصانه، على بساط أخضر مشدود إلى جدار طين أبيض قبالة باب أوضتهم العتيقة، أن يقوم بقتل صغير لقطع الطريق على ما زُرِع فيه من شر.

– ليقطع طريق الشر! أجابها أبوها الشيخ.

– وكأنّ الولد خلق نفسه! اعترضت ابنته. فصمت الشيخ وراح يتأمّلها متأسّياً.

– سامحك الله يا بنيّتي! وفي ذلك اليوم، صلّى الشيخ طوال الليل للتطهّر من ريبته.

-262-

– اترك الخضر! اتركه يا بني ولا تفجعني فيك، الخضر لا يتحمّل المزاح، الله يخلّيك!! أجاب المعلّم ابنه علي جاد الصغير حين سأله عن مغزى حكاية الخضر.

– هذه أسئلة أمّك! الخضر لا يغلط، طالما قام بشيء فمعه حق! لم يجادل عليّ أباه الخارج من صلاته السرية إلى إبريق شاي كان أعدّه على هواه، من أجل حديث معه لم يكتمل في ذلك المساء. شعرَ يومها بأن المعلّم يخاف الخضرَ أكثر مما يخاف الله، وأنّ وجود أشجاره على صفيحة واحدة مع المقام، يجعل لعلاقته بها طابعاً قدسيّاً خاصّاً.

-263-

وعلا صوت منادي الضيعة عن الحاووظ:

– يا أهالي عين الغار الحاضر منكم يعلم الغايب، أم جميل وأم أسعد وأم علي وعبلا وأخوهن سالم باعوا ورثتهم بجبل الصنوبر! وأضاف المنادي من عنده إلى ما حمّله إياه المختار– تقبل الاعتراضات عند سيّدنا الخضر عليه السلام!

-264-

هوب.. هوب! وأثار الغبار في وجه المعلّم قطيعٌ، انحدر به الراعي إلى السهل. هذه المرّة، ابتسم المعلّم على الرغم من نفوره من رائحة قطيع الأغنام وتزاحمها على طريق الموت:

– لا يعرف شيئاً مما يدور حوله، ولا يفهم أنّه يموت، حتى حين يرى سكين الذبح! نظر المعلّم صوب القطيع، مرتاباً بفكرة الحياة.

– الحياة يا معلّمنا لا تستأهل الغم! قال عيون القط للمعلم فيما كان يقلّم شجرة الزيتون في بستانه في ذلك اليوم. وقال عيسي:

– الصبر نصف الإيمان. قال عليه السلام! معقول يقول هالكلام؟

– الصبر على النسوان قصده! تدخّل عيون القط، ضاحكاً. وابتسم المعلّم وراح يستحضر في ذهنه زيتونة التالول.

-265-

حينما لجأ عيسي إلى مربّي الجمال علي شلحة، ظنّ الأخير أن عيسي جاء في طلب نقل بضاعة إلى ما وراء الجبال. كان علي شلحة الوحيد الذي أصرّ على تربية الجمال، كأنّما كان يعيش بانتظار انحسار الماء وانحباس المطر، معانداً سيارات الجيب والجرارات العملاقة التي صار بمقدورك أن تراها على دروب عين الغار. وما إن سمع علي شلحة طلب عيسي، حتّى قطّب حاجبيه وحجّر عينيه ورفع العصا السنديان. رجاه عيسي أن لا يغضب. أبلغه أنّه حقاً يحتاج إلى زجاجة من بول الجمال لعلاج أحد أصحابه. فابتسم علي شلحة وقال:

– يا سبحان الله، لو أعرف بول الجمل دواء لكنت صرت من أغنى البشر! فأجابه عيسي دون تردد:

– أي نعم، ويقوي الباه يا سيدنا. عندي حكمة قديمة، فيها عجب العجب عن فوائد البول.. قصدي بول الجمال يا بوبيرم! فوعده بوبيرم بزجاجة من بول جمل فحل، لكن عيسي رجاه بول ناقة عجوز، ولكي لا يختلط الأمر على بوبيرم، عاجله:

– الناقة العجوز عندها مثل كل عجوز رغبة وحسرة، لكن رغبتها رغبة صبيّة، وهنا سر فاعلية بولها يا سيدنا.

– لكن، الرسول عليه السلام، نصح بشرب بول الناقة لليرقان، وما قال شيئاً عن الباه.

– ونِعْمَ القول، يا بوبيرم. صحيح.. ما كان عندهم ضرورة للحكي عن مقوّيات، الجماعة بهاك الزمان ما كان عندهم مشكلة مثل ما عندنا. كان الواحد منهم، ما شاء الله وقدّر، بحاجة لمهدّئات أكثر من المقوّيات.

-266-

وفي ذلك المساء، عاد عيسي إلى حظيرة بوبيرم فوجده بانتظاره، وعلى لسانه سؤال عن كيفية تناول الوصفة مقوّية الباه. وهنا أفاد عيسي بأن عليه نقعَ رؤوسٍ من فرع بطم فتي مع حب السمّاق وباقة شمرة تقطف من (رأس الشمرة) بالذات، حيث نبش عيسي الحكمة وإلا فإنها لا تفيد، وأنّه يجب أن ينقعها ثلاث ليال على سطح البيت، ويبدأ النقع مع ولادة القمر، وبعدها يشرب المنقوع على الريق، بمعدّل خمسة وعشرين درهماً- الدرهم مكيال العرق في عين الغار- خمسة وعشرين درهماً تعادل كأس شاي صغير. وأنّه، بإذن الله، بعد شهر من تناول الدواء العجيب، سيصل باهه، هو علي القصير القامة، إلى مؤخرة أطول ناقاته وهي تتراقص على أربع القوائم الجميلات. وانصرف عيسي محتضناً الزجاجة، يفرط الدمع من عينيه، اعتزازاً بقدرته على توليد كل تلك الوصفات التي يقدّمها للمحتاجين هنا وهناك. وكاد (عيون القط) يفقد بصره.

-267-

وحاول الشيخ الضيف العائد مع ابن عمه المعلّم من طريق الجب البحث عن تفسير لمنامه في سلوك علي جاد الصغير. وكان قرع التنك تناهى إلى سمعه وابن عمّه في طريق عودتهما. كان الأولاد يصيحون:

- شردت بنتك يا حميدان مع العسكري الجربان، شردت بنتك يا ريما، الله ربّي لا يقيما.. بكرة بترجع لك حبلى...

-268-

ولم يكن المعلّم يرى أن ابنه علي فعل شيئاً يستوجب عقاب الله، إلاّ إذا كان تسلّق الجدار الذي يفصل دارهم عن دار سارة ابنة بوفيصل يستوجب ذلك. وكان علي جاد الصغير، تسلّق الجدار وقفز إلى هناك في ليل مظلم، ومكث في مكانه دقائق حتى هدأ ارتجاف ساقيه قبل أن يدخل غرفتها. وكان المعلّم رآه يتسلق الجدار.

وكان علي قبل أن يقفز إلى الجهة الأخرى من الجدار المرفوع إلى ما يزيد عن خمسة الأمتار، قد نده " يا خضر!"، من أجل أن يكون هبوطه سالماً. كانت بزة فيصل المرقّطة لا تزال منشورة على السطح فوق غرفة أخته سارة. وكان صاحبها يرقد دونها في غرفته مع علي وجلال في القابون. وكان بوفيصل هجر الدار إلى غرفة صغيرة بناها في قطعة أرض صغيرة منحتها له الثورة في (الوطى). وكان فيصل قد اشترى مع البزة الثانية آلة تسجيل. وقيل إنّه اشترى بزّة ثالثة في الشام.

لم يندِه علي جاد الصغير للخضر من أجل أن يساعده فيما سيفعله في غرفتها. كان ترددَ حيال ذلك، فقصر النداء على ما قبل عتبة الباب. وضحك في نفسه، فالباقي، كما علّموه للشيطان، لكنه لم يكن يعرف كيف يطلب عونه.. منطقته كانت زلقة، دافئة، ولم يكن خروجه منها هيناً أبداً.

-269-

كان علي جاد الصغير قد تسلّق الجدار، من ذلك المكان الذي رسم فيه راجي صورة لزوجة أخيه سالم، جاعلاً لها لساناً طويلاً أصفرَ مزدوجاً يخرج إلى اليمين وإلى اليسار. وجعل يطلق عليه الرصاص من مسدّسه البراوننغ، في الشهر الأخير قبل ركوبه قاطرة الموت. ساعد راجي الجدارُ الباسط صفحته البيضاء نحو القبلة في مدّ شطري اللسان، إلى هنا وهناك. بين الشطرين، كان علي جاد قد جعل حفراً في الجدار يتسلّق بعونها إلى دار جارته الوافرة الردفين، الصغيرة النهدين.

-270-

وكان علي جاد الصغير رجا أمّه، ألف مرّة، أن لا تقسم بأن ابنها لا يكذب ولا يفعل إلا ما يرضي الله، الله كما تعرفه هي، وأنّه لا يفعل العاطل، العاطل كما تراه هي، ولا يأتيه الباطل، الباطل الذي تعلّمته على أبيها الشيخ.. وقال لها إنّها تُحزِنُ ابنَها حين تضطره، إرضاءً لها ولطريقتها في الإيمان وفي محضه الثقة، إلى الكذب.

قال علي لأمّه إنّه يتمنى لو يقص على مسمعها كل شيء.. ولم يكن مضطراً لقول ذلك لأبيه المعلم. كان المعلّم يعرف غير قليل عن فهم ابنه للإيمان وللأشياء " المخجلة"، ولم يكن من بينها نهلة ماء وروح وجسد. وكان المعلّم وابنه يصمتان عند الأخير، مضمرين اتفاقاً على أنّه ليس منطقة كلام. فالكلام فيه هو الذي يفسده وليس النبض الخالص الذي ينطوي عليه. وأمّا راجي فابتسم لابن أخيه والتمعت عيناه، عن دمعةٍ، وناوله المسدس ليطلق رصاصة على هذا الشطر من اللسان وأخرى على ذاك.

-271-

وحين انزلق علي جاد الصغير على جدار سارة، حدث ما لم يكن بالحسبان. ففيما هي رقدت في سريرها، متظاهرة بالنوم، بانتظار أن يفتح الباب الذي زُيّنت مفصلاته جيداً، وينسلّ إلى غرفتها، استيقظت أمها وخرجت إلى صحن الدار. وهناك، قرقع شيء ما، وصدر صوت مواء ولعنات قبلما تعود الأم إلى غرفتها، ويُصدر الباب صريراً شديداً إيذاناً بالانغلاق.

كانت المرأة، لسببٍ في نفسها، غيّرت المكان الذي تركت فيه الصواني وطناجر الألومنيوم التي لم تغادرها رائحة المرق بعد. فأمس الأول أقيمت صلاة هنا على اسم الخضر، من أجل أن يعيد الله فيصل الذي أتت الشمس على ألوان بزته المعلّقة على السطح، أن يعيده سالماً من الشام.

وكانت الأم قد خلعت منديلها ونشرته على الحبل، لصق البزة، قاطعةً الأيمان بأنّها لن ترتديه ولن تعيد البزة المبرقعة إلى مسمارٍ دُقّ خصيصاً من أجلها وراء الباب، قبل أن يعود صاحبها. وكانت قد غسلت البزة وندمت على ذلك وبكت. كان بإمكانها أن تشمّ رائحة عرق ابنها لو لم تغسلها. راحت تبحث عن قميص عتيق له غادره إلى اللباس الخشن المموه، وعثرت عليه. جعلت منه بيتاً لوسادتها.

وانزلق علي جاد الصغير عن الجدار. وكانت بزة فيصل والمنديل قد خاطتهما يد العجوز إلى الحبْل خوفاً من رياح تأتي، تارةً من البحر وطوراً من الجبال.

-272-

هوب.. هوب! وتابعت كاترينا رحلتها، يوم عرس ابن بارود إلى عين الغار. وكان علي جاد صحا على انبعاث أبيه المعلّم حيّاً من خبر الموت، وحزن على علي بن سلمان، حزناً مضاعفاً، لأنّه لنحول عليّ وكمدٍ شديدٍ على وجهه الضامر لم يتبيّن فيه صديق طفولته، ولأنّ صديقه فقد أباه.

-273-

وتابعت كاترينا سيرها، واستجمع راجي قواه الخفيّة كلّها من أجل أن يرى العود المعلّق على الجدار بالقرب من صورة الجد الراحل، لكنّ قواه خذلته. وحاول راجي تذكّر تلك الأشجار المحيطة بالمدرسة، وتمنّى لو يدفن بينها، وخُيّل إليه أنّه يبتسم بسخرية لمعرفته بأنّهم سيدفنونه في مقبرة العائلة حتى لو أوصى بغير ذلك.

-274-

ودون معرفتهن بنيّته على الرحيل، كانت خالات راجي قد صلّين لله من أجل أن يذهب به إلى أي مكان لا عودة منه، وشعرن بأنّ الله لا بد مستجيب، فاستسلمن لغبطة شعورهن.. وكنّ سألن أمَّه عمّا إذا كانت متأكّدة من أنّه من ظهر أبيه، وكانت حلفت بأنّه كذلك. وكانت كبراهن رأت في المنام أنّ سالم هو من سيكون وارث الأجداد من الطرفين. كان المنام جاءها ثلاثاً، كما أكّدت لأختيها الأرملتين. وكان زوج الأولى منهن قُتل بضربة فأس كسرت جمجمته، قِيلَ إنّ

حرامياً كان في البيت وجهها إليه، وقال الشيخ الذي كفّنه إن الضربة جاءت من خلف. وأمّا الثاني فخرج من البيت ولم يعد، وعُدّ طويلاً في عداد المفقودين ثم الموتى..جاء امرأته في المنام أنّه مدفون في قرية بعيدة فيها تسع قباب.

-275-

الآلهة تعجبها الجبال فلا تغادرها ما لم يطردها ساكنوها. أمن أجل الخضرة والماء تفعل؟ فذات يوم، وكان قوس رع ينقل الغيمات المتعبات من جبل الصنوبر إلى جبل الشيخ خليل، من أجل تلاميذ لم يغادروا المدرسة بعد، كان الغرس.

ألفاً من الحفر الصغيرة، حفرت أيدي المعلّم والسقّاء وبعض النساء المطلّة بيوتهن على باحةٍ رُفع من حولها التراب الأبيض من أجل أخضر آت، وجعلتها الأيدي في خمسة صفوف، لأشجار الصنوبر المثمر والسرو الفضّي، وعشراً من الألف للزمزريق، وكان تلاميذ المعلّم يحبون أكل أزهار الزمزريق، وثمانٍ للقطلب، وكان الصغار يتسلقون جذوعه الملساء نحو ثماره الصغيرة الحلوة، وأربعاً للغار، في كل ركن واحدة.

وبعد الانتهاء من الغرس، طلب السقّاء إقامة صلاة الاستمطار. رجاهم ضاحكاً أن يرحموه. فهو لن يتمكن من سقاية كل هذا الزرع. وصنع الصغار من أجله عروس مطر، ووعدوه بالماء. وكان المعلّم قد رجا منادي الضيعة أن يصعد إلى سطح الحاووظ وينادي الأهالي للنزول إلى البحر، كان ذلك لا يزال ممكناً في ذلك الصيف، وصعد المنادي.

-276-

– يا أهالي عين الغار.. بكرة 23 تمّوز انزلوا عالبحر ب ينزل مطر! قال المعلّم والمعلّم فهمان!

وكان المعلّم قد حدّث تلاميذه، في واحدة من نزهاتهم إلى البحر، عن عيد نبتون عند الرومان. فعلى الشاطئ، كانوا يقيمون الأعياد كيما يرضى عنهم ويقيهم هو نبتون الماء شر الجفاف. يومها، فرحت زوجة عيون القط، وكانت أوّل الواصلين إلى الماء. وضحكت جاراتها حين رأين ثدييها الكبيرين عائمين فوق سطح الماء، فيما هي تحاول دون جدوى إغراقهما. خاطبها عيسي وقد سال لعابه:

– ماشاء الله، ما شاء الله.. إن شاء الله، وبإذن الله، بْ ينزل حليب بدل المَي!

– العمى بعينيك أكلت المرأة، شِل عينك عن جسمها، استح! قالت امرأته وجرّته من هناك إلى غير مكان.

-277-

وكان الأولاد في ذلك اليوم الذي التهبت فيه عينا عيون القط قد خرجوا، فضحكت امرأته وبكت، فيما هم يصيحون:

- نط، نط مثل القط، صارت حمرا عيون القط...

-278-

وكان المعلّم حين انتشر خبر إصابة عيون القط، وظنّوه سيصيبه العمى، قد حزن على الرجل وشعر بالندم. تذكّر المعلّم تلاوته لسورة الفلق، وراح يذرع السطح جيئة وذهاباً، ترتسم على وجهه ملامح وَجْدٍ، كأنّما هو يسير في دروب مفضية إلى الجنّة، تزاحمها خلجات ندم. وفي هذه الأثناء، راحت ابنة مريم تتملى أشواك شجرة الأكاسيا البيضاء. الزهر للجَمال والنقاء ورحيقه للخير والعطاء، والشوك لرد العين عنه، شاكرة فضل الشواك. وبكى عيسي لنجاعة الدواء الذي أعدّه من رماد الشجرة المريضة وبول الجِمال. ولسبب لا يصعب تقديره، لم يشأ أيّ منهم، هم الثلاثة، أن يرى فيما أصاب عيون القط مجرد رمد، وأنّ الرجل فرك عينيه فركاً شديداً قبل أن يتوجه إلى دار أم علي القشّاشة. وكان قد انتهى لتوّه من تقطيع الفلفل الأحمر الحار لزوجته. وأنّ منديل أم علي زاد طين الرجل بلّة، قبل أن تصرفه إلى الطبيب.

-279-

وكان راجي في تجاوزه العتبة نحو ظلام غرفته، انتابه شعور بحنين وشوق كبيرين إلى جلال وعلي وفيصل. تذكّر ما قيل عن قتل جلال لأبيه، وتمنّى لو أنّه رأى جلال في ذلك اليوم الذي قيل إنّه جاء فيه إلى عين الغار. وفكّر بأنّه ما إن يأتي ابن أخيه علي جاد الصغير لزيارته حتى يرجوه الاتصال بجلال والطلب منه المجيء إلى عين الغار مع علي وفيصل في أسرع وقت. وابتسم راجي حين تصوّر أنّه قد يضطر للحياة يوماً آخر من أجل رؤية أصدقائه الشباب.

-280-

تذكّر راجي سؤال فيصل عمّا إذا كان هو الشرطي مستعداً للقتل في سبيل امرأة. يومها، اكتفى راجي بابتسامة. ولكنّ سؤال فيصل دفعه لتفحّص استعداده لخوض معركة من أجل امرأة. اكتشف راجي أنّه لم يخض منافسة على امرأة في يوم من الأيام، وتساءل في نفسه عمّا إذا كانت امرأة مستعدّة لوضعه في مقارنة مع أيّ كان تستهويه. كان جوابه الأوّلي (لا).

-281-

وتذكّر راجي حديث ابن أخيه علي الصغير عن موت بوشكين. وتخيّل نفسه في مبارزة، لكن مع من؟ خصمه ليس رجلاً لينازله. لا وجود لدانتيس هنا ليطلق راجي النار عليه فيصبه في زر بزته المعدني. كان راجي في طريقه لمبارزة نفسه. كان في نزال مع ذاته، ولكن على الملأ.. ولم يكن راجي يدري أن الرغبة بموت منزو ستغلب رغبته الأولى في جعل موته فرجة للناس. حنّ إلى ناهلة وسامحها، لكنّه رفض استقبالها. أشفق عليها من رؤيته يحتضر، حين بلغ نقطة اللاعودة، بعد أن أبعدها خوفاً من تراجعه أمام عينيها عن فكرة الموت. لكن بوشكين الجريح، ضعف أمام حبه لنتاليا ورغبته في رؤيتها قبل موته، فاستقبلها خلال احتضاره مرتين. طلب منها ثمرة ماروشكا منقوعة وبعد ثلاثة أرباع الساعة مات.

-282-

– كان موته مؤلماً أكثر من موتي ولكن أسرع.. صارع الموت يومين، كما قالوا لي، أمّا أنا فأعلم أنني سأصارعه عشرة أيام. ذلك المجنون الآخر ابن أخي يعيش مع بوشكين! وأين؟ في عين الغار! سيضطر قريباً لمنازلة أحد ما، أولقتل نفسه! قال راجي في نفسه. وكان حاول تلحين أغنية كتبها علي جاد الصغير عن بوشكين. كان علي قد اقتطف من الأشعار ما جعله راجي أغنية. لكنّها جاءت باهتة.

– الكلمات تعيسة! ولا علاقة لها ببوشكين–قال علي– بوشكين لا يمكن أن يعيش في عين الغار. لا تحزن يا عمّي ليست المشكلة في الموسيقى.

-283-

وفي اليوم الذي سبق تلاشي نبض راجي، وقبل هروبه من حضرة الموت إلى جسد حبيبته، جلس علي الصغير على حافة سرير عمّه، وراح يتأمّل السواد حول عينيه:

– هل ستترك شيئاً لناهلة؟ هل نسيت كيف نزع بوشكين الصليب من رقبته قبل موته وبعثه مع فيازيمسكايا لحبيبته، وأوصاها أن تسافر إلى الضيعة مع الأولاد وتلبس ثياب الحداد سنتين، وبعدها تتزوج من رجل طيّب. اسمح لي بأن آخذ لناهلة هذه الغزالة التي نحتّها بيديك وجعلتَ، على غير ما تكون الغزالات، ذيلها طويلاً، يعبر جسمها ويلتف حول عنقها! لماذا فعلت ذلك؟ كأنك كنت تريد أن تقول إنّ الذيول هي التي تقتل! ما أكثر الذيول وراءَنا يا عمّاه.

لم يسمع راجي شيئاً مما قاله علي جاد الصغير، لأن الأخير قال، كلّ ما قاله في نفسه، وجلس صامتاً ترتسم ابتسامة حزن أبيض على شفتيه.

– حزني أبيض! تذكّر علي الصغير شطرة لبوشكين، وأضاف من عنده: فلتعلن كلُّ روحٍ لونَها، إلاّ الرمادية فلتصمت!

-284-

وكان قد بقي في زجاجة العرق الأخيرة ثلاثة أقداح، وكان علي جاد الصغير قد وضعها جانباً، قبل أن يرحل مع كاترينا، ومسّد يد عمّه وخرج." سأضعها في قبره!"، فكّر علي.

-285-

هوب.. هوب! ولم يتوقف سعال كاترينا، في طريقها إلى عين الغار، ولم تتوقف الملاسنة.

– ابن حكومة، قلت لي! بالله كلامك جواهر! وقهقه الحجار في وجه المساعد بوعلي، وغالب نوبة من السعال، وتطاير شعر فتاة كانت تجلس أمامه في الحافلة. جاء صوته كمثل صوت حجري رحى تحتكان بلا جرْش، وخرج الدخان كثيفاً مع سعاله...

قام أحد الشيخين الساعيين إلى أداء واجب التعزية، وكان أكبر صغيري القد قدّاً وعيناه أكثر لمعاناً من الآخر، وانبرى يخطب:

– سمّوا بالرحمن يا جماعة، سموا بالرحمن واخزوا الشيطان. أنتم أهل وجيران، والدم لا يصير ماء، واللقمة بينكم تنتقل من يد ليد ومن فم لفم.. ونسوانكم إمّا أخوات وإمّا بنات عم، فربّي يرضى عليكم جميعاً، لا تكبّروها ولا تجعلوا من الحبّة قبّة. بارك الله بالذي يسعى في سبيل رزقه ولقمته، وبالله وتالله لو كان هذا الآدمي، الذي تتقاتلون بسببه، يحب أهله ما كانت انعدمت الوسيلة قدّامه، وما كان عجز عن تأمين أجرة سيارة، وهدية فوقها لأمه وأبيه.. فلماذا واحد مثل أخونا قادر على توزّيع الرزق على الناس وواحد مثل أخونا الثاني عاجز عن تحصيل أجرة سيارة من الشام للاذقية؟ بربكم، هذا سؤال مهم أم غير مهم؟ الرجل الحقيقي واجبه يعرف كيف يحصّل لقمته.

فملأ العطّاس أنفه بجرعة مضاعفة من النشوق وهدر بسلسلة عطسات متتالية استغلها راكب غريب. رفع الغريب جانب مؤخرته عن صوتٍ مضغوط ضاع مع الغناء والعطس. وانتشرت الرائحة مع هواء النوافذ المفتوحة. كان الشيخ الآخر الأصغر قدّاً قد احتل المكان الذي أخلاه علي بن سلمان، جانب الرجل الذي راح يمسّد بطنه، وكان الشيخ يتمتع بسمع حاد، فابتسم لجاره هامساً في أذنه:

– بالله، معك حق! هذه الفتوى– وكان يعني خطبة رفيق دربه– يصح فيها هذا الجواب..

– يعيش المشايخ – صاح الغريب– تعيش أم كلثوم، يعيش الله.. وفكّروني، وطلب النزول.

-286-

وعبقت عين الغار برائحة السكّر المكرمل. وجلس الصغار قرب أمهاتهم وأخواتهم، طمعاً بقليل من العجينة الحلوة التي راحت النساء تعدّها لإزالة الشعر عن أرجلهن وأيديهن، استعداداً للمساء. فمن شأن الفساتين أن تتكشف عن عري لا يكون مثيراً ما لم يكن أملس. وتابعن الاستعداد لعرس ابن بارود. ولعنت خالات راجي أهل العريس والعروس. رأين في عدم دعوتهن تجاهلاً لا يستأهلنه. صحيح أنّهن لن يلبّين الدعوة، فاسم العائلة يقتضي التظاهر بالحزن الشديد على راجي. إلاّ أن احتضار راجي شيء والواجب شيء آخر. وفي الوقت الذي كانت عين الغار تستعد فيه للعرس، رتبت الخالات كل شيء من أجل عزاء عظيم، حلمن بأن تتحدث عنه الضيعة سنوات.

-287-

وكنّ جعلن من السقيفة التي رُفعت فوق غرفة الدواب الملحقة بالبيت، للشرطي العجوز مرقداً، ورحن ينتظرن رحيله من هناك إلى السماء. وجعلن، في الأسفل، ارتفاعاً يكفي لقامة امرأة تعلف الذبائح، وفي الأعلى، بقيةً تكفي للشيخ الذي انحنى ظهره فقصرت قامته.

وعلى غير ما يتوقعنه، كان الشيخ راضياً عن معتزله. كان يعاقب نفسه على طريقته. كان يمضي وقته في الصلاة هناك. إنّما كانت صلاة ينقصها الوضوء. فباب السقيفة الوحيد كان يقفل بالمفتاح من الخارج عند خروجهن من البيت. وكان الشيخ يبول من النافذة على جذع شجرة التين. كان يظنّ أن لدى ابنه سالم من العقل ما يكفي ليفطن إلى حاجات أبيه. وكان الشيخ يشتاق لرؤية ابنه المعلّم الذي كثيراً ما سمع تقريعه لهنّ. ومرّة وثانية كان شاهداً على تحطيمه القفل. وكم مرّة رأى ابنه راجي يشلع القفل مع اللحم، وكم مرّة رجاه أن لا يفعل، وكم تمنى راجي على أبيه الشيخ لو يشعل النار في البيت ومن فيه، ولو قبل لحظة من موته. فلا شيء سوى النار يطهّر هذا البيت من الشر الذي يسكنه! وفكّر راجي، في رحلته الأخيرة إلى عين الغار، بأنّه قد يكون عليه فعل ذلك عوضاً عن أبيه...أن يحرق البيت ويريح أباه ويريح نفسه من هذا الجحيم.

-288-

هوب.. هوب! وتابع الرجال في كاترينا حربهم الباردة المنذرة بانفجار في عين الغار.

– رجّع السكين، ولمّ الأجرة يا ولد! صاح بوسلطان سائق البوسطة بابنه المراهق سلمان الذي كان يعمل معاوناً له في خدمة الركّاب وفي تحصيل الأجرة منهم. وكان قد غادر المدرسة إلى غير رجعة في الصف السادس. وكان يُخرج سكين الكبّاس من جيبه بين دقيقة وأخرى، استعراضاً لقوته وتحّسباً لأي تطاول على أبيه.

– لـمّ الإجرة قبل مـا ينسوا يـدفعوها! وضـغط زر المسـجلة فصـاحت أم كلثوم (فكّرونـي..). ابتسم سلمان لعلي جاد الصغير وأعاد السكّين إلى جيبه. وابتسم علي جاد الصغير له، ماداً يده لتناول السكين. ناوله سلمان السكّين. وكان علي يرغب فقط في رؤية ما نقش على نصلها من رسوم وإعادتها إليه، لكنه بادره:

– خلّيها معك! صدّقني أهم من هالقلم! وأشار إلى جيب قميص ابن المعلّم.

– اقبلها منه يا ابن معلّمنا!– قال بوسلطان وكان قد رأى السكين يقّدمها ابنه سلمان للشاب– الجامعة مليحة لكن السكين أفيد، اسمع من عمّك!

–289–

– هوب.. هوب! وكانت صرخة ذلك اليوم تختلف عن سواها. يومها، اندفع شاب غريب إلى المقعد حيث راح رجل يهابه الجميع هنا يضرب امرأته، فيما تشاغل عنه ركاب كاترينا من أبناء عين الغار بكل شيء، يخطر بالبال، حين رأوه يضربها. كان بو جلال يضرب امرأته، وكانوا هناك يتحدّثون عن أشياء لا يبدو أنها على علاقة بالرجل والمرأة.

– هي امرأتي، وأنا حر فيها، لا تحشر بوزك بشيء لا يعنيك!" صاح الرجل حين حاول شاب غريب رفعَ يده عن المرأة، التي راح يصفعها بشدة ويرفسها كيفما اتفق، على مرأى من الجميع، حاشراً يده الأخرى في جيب سترته لإخراج السكين. ولم يكن واضحاً ما إذا كان الملقّب بالوحش يهدد بذبح الشاب الغريب أم يهدد بذبحها هي. علا صراخ الوحش، مؤكّداً بكلام بذيء أنّها له ومن حقه أن يفعل بها ما يشاء.

– على مهلك.. على مهلك.. نزّلني! ولم ينتظر الراكب غريب وقوف الحافلة، بل قفز منها. وبصق في أثرها. وعض جلال يده حتى أدماها، حين رأى حال أمّه، مساء ذلك اليوم.

–290–

في خمّارة سلّوم، كانوا يعرفون أن الشيخ بكى بين يديَّ ابنه راجي، وأنّه قبل ذلك عرّج على دار ابنه المعلّم، ويعلمون أنّ الشيخ عاد إلى سقيفته بعد أن ضمّ المعلّم إلى صدره، فقد رأى أن الشر سيطاول الجميع لو انتقل إلى العيش في بيت ابنة مريم. ولم يكن ممكناً أن يفكّر بالبقاء في بيت ابن سكيبة البكر، بسبب من وجود مطلقته المشلولة هناك. وكان سمّار راجي يعلمون أنّ الشيخ آثر أن يعاقب نفسه على أن تشتعل نار الحرب التي أراد التوهّم بأنّها خبت...كانت صلواته المتكررة قد تكاثفت أمام عينيه فلم يعد يرى سوى الله والعقاب، فاستسلم للذة أن يعاقب نفسه. وحين سمع الشيخ بمقتل الوحش ابتسم، قائلا في نفسه:

– لا يعرفون من هو الوحش الحقيقي.

-291-

كان بكر سكيبة قد غادرته أصابعه إلى الخبز وما عادت، كما غادرها بعد سنوات إلى الخبز وما عاد. كان في طريقه إلى لقمة مدّها الفرات نحوه، فسقط هناك، يده ممدودة إلى رغيف الخبز. حين عادوا به، ارتسم السواد حول عينيه وسؤال على شفتيه.. وبكت سكيبة وبكى المعلّم وأطلق راجي الرصاص على السماء، وقال علي بونور لراجي:

– قلت لك تعال نحرق هالدنيا ما كنت تقبل..!

-292-

هوب.. هوب! وأوقف سائق مأجور درّاجته، يوم جاء بجلال سرّاً إلى عين الغار. وترجّل جلال قبل الوصول إلى أوّل البيوت.

– لا تطلع عالجبل أرجوك! قال الصغير لأخيه الأكبر حين رآه مكفهراً يهمّ بصعود الجبل الذي لجأ والده الممتشق بندقيته والمزنّر بالرصاص للعيش فيه.

-293-

كان جلال، قبل سفره، وضع بين يدي رفيقيه في السلاح، علي وفيصل، أمانةَ أن يحاولا فهمه في جميع الأحوال وأن لا يقسوا عليه، حتى لو قسى جميع الناس. لم يكن جلال قد قرر قتل أبيه، وهو لم يقرر ذلك أصلاً. فالرجل انقتل، في لحظةٍ، عجَزَ القاتل نفسه عن تذكّرها. لم يسأله أحد عن أسباب القتل. ومع ذلك، فقد امتلأت دفاتر الإفادات بحكايات عن وحشية الأب لم يسمع بها الابن من قبل. لكن ليس الجميع فعلوا. فبعضهم، ارتسم على وجهه شعور بالفخر كون القتيل من ضيعته، وأكّد أن (الولد)، هو الذي يجب أن يكون قد قتل أباه، وأنّ هذا أقل ما كان يمكن أن يفعله؛ وبعضهم الآخر، حكى أنّه رأى الوحش يبكي، رآه يسيل دمعه على جذع سنديانة تظلل مزاراً هجره الناس بسبب لجوئه إليه، فهرب من رآه خشية أن يقتله لوقوفه على الضعف فيه. وحكوا للدورية كيف تطوّع القاتل في سرايا الدفاع.

-294-

كان الابن قد أعلن لأبيه عن رغبته في التطوّع. وكان الرجل، في تلك الأيام، يكسر الجبل ليجعل لأسرته بيتاً فيه، يغادر بيت الضيعة إليه، بيتاً غير بعيدٍ عن المزار المهجور الذي راح ينظّفه ويشذّب الدغل من حوله ويشبع صخوره ببخوّر يأتي به مما تركه الزائرون في مزار الخضر. وكان الرجل قد حظّر على زوجته شراء البخّور خشية أن يتنبّه الناس إلى ضعفٍ فيه،

أو في أسرته، يحطّ من قدره. وكان قد حظّر عليها الاقتراب من المقامات. كانت أسرة الوحش مكوّنة من الأم وابنتها حبيسة الزريبة والابن البكر جلال الساعي لأن يكون مقاتلاً في سرايا الدفاع، ونضال.

رفض الأب طلب ابنه، مؤكّداً أنّه لا يقبل أن يخدم ابنه في ميليشيا. وأن الدولة نفسها لا يمكن أن يأتي منها أي خير حتى يأتي من ميليشياتها. وأنّه يجب أن يعيش كمثل أبيه. وأنّ الناس يجب أن يرهبوه لقوته ورجولته لا لانتمائه إلى ميليشيات تقتل وتنتهك أعراض الناس. وأنّه يجب عليه أن يتذكّر عمّته التي اضطر أبوه إلى نقلها سرّاً إلى أقرباء في تركيا، بعدما أشار القائد نحوها بإصبعه. وأنّه يجب عليه أن يفكر بالانتقام لها وليس بخدمة الذي حرمه من شوفتها. حاول الولد إقناع أبيه بأنه لم ينس ذلك. وبأنّه سيعرف كيف يتصرّف في اللحظة المناسبة. وأنّه إلى حين أزوفها، سيكون هناك مع أصدقائه. وأنّه سيحصل على راتب جيّد وسيعود لمساعدته هنا في إجازاته في بناء بيت الجبل.

قال الأب، مكشّراً عن ابتسامة عبثاً تجاهلها الولد، وكان قد رأى أن الولد يفكّر بالراتب أكثر من التفكير بعمّته وبأبيه، وأنّه يخدع أباه ولا يفكّر بأي انتقام، وأنّه لم ير فيه يوماً الرجولة الكافية لفعل ذلك:

– اثبتْ رجولتَك وقوّتَك، وأنا موافق! فوافقه ابنه. وكان سعال كاترينا في ذلك اليوم يشبه سعالها اليوم. وأمّا اليوم، فكانت كاترينا لا تزال في طريقها إلى عين الغار.

–295–

هوب.. هوب! وتجاوزت كاترينا، وكانت قاربت الوصول إلى عين الغار، ولم يكن المتلاسنون بشأن علي وأبيه الميت قد هدأوا بعد، تجاوزتها سيارةُ جيب عسكرية، وراحت تطلق الزمامير.

في السيارة، كانت امرأة بارود إلى جانب ابنها الملازم الأوّل صافي وخلفهما أم العروس، امرأة (علي هناك) وابنتها منى التي كان يبدو عليها القهر والارتباك أكثر مما يبدو عليها الفرح. كانوا في طريقهم إلى مصففة الشعر. كانت الفتاة التي عاد صافي إلى خطبتها، بعد هجر، لا تزال على مؤخرتها قرصة من ظلام عرس عُقد في ساحة الضيعة قبل أسبوعين. لم تكن تعلم لحظتذاك بأزوف ساعة الانتقام من حبيبها العائد إليها، الساعة التي انتظرتها طويلا في الظلام.

–296–

هوب.. هوب! ولم تكن كاترينا قد بلغت الضيعة بعد. وشعر راجي بالندم حين عجز عن رؤية الجدار المقابل كلّه وليس فقط آلة العود. فقد راح كل شيء أمام عينيه يتناهى إلى عتمة،

وراحت ساعات العتمة تطمس لحظات الضوء. وكانت الفتيات اللواتي حملت شجيرات الورد أسماءهن قد ملأن السماوات لعنات على اليد التي تجرأت على الورد، ورحن يترقبن وجلات، بقلوب خاوية من الأمل، انفجارَ إصبع ديناميت في الهواء، معلناً رحيل الشاب الوسيم. وفي واحدة من ومضات الضوء تذكّر راجي يوم قيل إن صافي بن بارود سيوفد في بعثة عسكرية، وخيّل إليه أنّه يضحك. فكّر راجي بالعودة إلى طريق الحياة، لكن العتمة سحبته من جديد. وحين مرّ شريط من الضوء أمام عينيه بدا كأنّما أيقظه لم يتذكّر شيئاً مما خطر بباله. لكن فكرة العودة إلى طريق الحياة راودته من جديد. فابتسم هذه المرّة للفكرة، وشعر بأنّه سيغفو قليلاً، ثم ينهض ويرتدي بزته وينطلق إلى ناهلة.

– ناهلة! خيّل إليه أنّه يصيح، لكنّ أحداً لم يسمعه. وتناهى إليه صخب أولاد في الشارع، وخيّل إليه أن رغيفاً ساخناً وضعته فتاة على الطاولة قرب سريره، ومسحت أصابعها على وجهه قبل أن تنصرف. وجاءه صوت فتاة:

– قم يا راجي، قم عالعرس..العرس بلاك ما له نكهة.. قم الحياة حلوة، اتفقنا " خَرَشو"؟

–297–

وكان صافي ما إن سمع بخبر إيفاده في بعثة عسكرية إلى الاتحاد السوفياتي، حتى راح يتكلّم الروسية:

– السلام عليكم أخ صافي! فيجيب صافي:

– خَرا شوف.

– إلى أين أخ صافي؟، فيجيب صافي:

– خَراشوف! إلى أن صادفه أحد العائدين من هناك، وكان صافي قد أكمل استعداده للسفر، فرد على كلمة (خراشوف) ب (خرا كلب) وكادا يتشاجران. ويومها تعلّم صافي أوّل كلمة روسية (خَرَشُو). وظل في موسكو يقول لمن لا يعجبه (ما خَرشو). وإلى عرس صافي، دُعي كل من في عين الغار باستثناء قلّة، أوّلها المعلّم وابنة مريم.

–298–

وكانت كاترينا لا تزال جديدة يوم العرس، فلم يكد يمضي عام على عودتها مجدّدةً من حلب. يومها، قامت أمّ سلطان بتبخيرها، بعد أن تم تلطيخها بدم خروف ذُبح من أجلها. وجِيء بخلعة من كل من المزارات الثلاثة.

فكّر بوسلطان بربط واحدة من الخلعات على قبضةِ كلٍّ من الأبواب الثلاثة، بابي الركاب وباب السائق، إلاّ أنّ أم سلطان اقترحت فكرة جَدْلِ الخلعات الثلاث معاً. فكّرت في البداية أن

تصنع جديلة خشنة من المزق الثلاث كما هي، إلا أنّها سرعان ما استجابت لهاتف في داخلها يقول لها:

– الأحسن، يا أم سلطان، انسلي خيطانها واخلطيها مع بعضها، وبعدها، وزعيها على ثلاث خصلات، كل واحدة منها مخلوطة الخيطان، واجدليها حتى تندمج قوة المزارات الثلاثة مع بعض! وابتسمت لفكرة أنّه سيكون من الصعب عليها أن تنفك واحدتها عن الأخرى، وأنّها بالتالي ستعمل معاً، لحماية السيارة وأصحابها ومن يستقلّها.

–299–

ولأن فكرة جدل الخلعات جاءتها متأخّرة، أوكلت ترتيب أكياس الخبز التي طلبتها لتوزيعها على المحتاجين إلى أختها، وانصرفت هي إلى نسل الخيطان الخضر.

كانت أمّ سلطان قد طلبت، من بائع الخبز الجوّال مائة كيس من الخبز، وتركت لنفسها أن تجعل في بعضها أضعاف ما في بعضها الآخر، بما يوافق حجم العائلات التي ستصلها، وبما لا يترك مجالا للحسد، ولشعور بالغبن. لكل عائلة كيس. وأمّا عدد الأرغفة التي فيه فعلمه عند أم سلطان. وكان ذلك من قرابة عام.

–300–

هوب.. هوب! وحينذاك، أسف بائع الخبز على الوقت الضائع، فقد كان بإمكان جارتهم أم سلطان، الفرِحة بكاترينا العائدة من (النفض) في حلب، أن تنسّق عملها مع زوجته. لكن سر الخبز لم يكن يسمح بذلك، ولا هو يسمح اليوم. وفي اللحظة المناسبة، عُلّقت جدائل الخلعات الثلاث كما هو مقرّر لها. وعُلّق مصحفٌ، خِيطَ من أجله جراب خاص، على حامل المرآة. وعُلّقت إلى جواره مسبحة جِيء بها من رحلة حج.

–301–

وفي ذلك اليوم الذي أعلن فيه جلال لأبيه نيته التطوّع في سرايا الدفاع، أمر الأب ابنه:

– هات الجنزير و(الجوزة)! أحضر جلال الجنزير والقفل.

كثيراً ماً كان الأب قبل هذا اليوم يوثق ابنه، ولكن بالحبل، ويتركه يحرر نفسه، ويحظّر على الأم مساعدته. كان الولد يفلح في نهاية المطاف بتحرير نفسه، كما كانت الأم تستغل غفوة الرجل المفاجئة، وتساعد ابنها على التحرر من قيوده. كان الرجل يحظّر عليهما الأنين.

كان الوحش يتحوّل إلى حجرٍ في لحظة لا يستطيع أحد أن يتكهن بها، خاصّة بعد الكأس الثالثة من عرق التين. وكان أزوف اللحظة يُعرف من شهقة مفاجئة وعينين مغمضتين، تحيط

بهما هالتان سوداوان. وكانت أم جلال تبكي حين تراه على هذه الحال، وتصلّي من أجله. فيلعن ابنها كلَّ من تصلّي له وينصرف عنها إلى البحر. في البحر، يصارع الماء حتى يهدأ ويعود إلى البيت.

– تعال إلى شجرة التوت! جاء الولد.

– ضب رجليك! لم يفهم الولد طلب أبيه. فقد كانت تلك المرّة الأولى التي يأمره فيها بفعل ذلك. كان جلال قد رأى البغل توثق قدماه معاً بهذه الحلقة المسننة التي يمسك بها أبوه. وقبل أن يصحو الولد على ما يحدث له، كان الأب قد فتح الحلقة ثم أحكمها حول الساقين، وأدخل الجنزير في حلقتيها الصغيرتين اللتين تتطابقان عند انغلاقها لقَفْلها. أحيطت ساقا جلال معاً بحلقة القيد المسنّنة من الداخل، وشُدّت الحلقة بسلسلة الحديد إلى الجذع الثخين، وترك جذع الشاب حرّاً، ويداه حرتين. كان بوجلال يستخدم هذا الجنزير وتلك الحلقة لمعاقبة البغل، ثم يداوي جراحه ويشعل من أجله البخّور. وكان الوحيد الذي يملك بغلاً في عين الغار، يستخدمه لأغراض خاصّة لا يعرفها سواه، وللسفر إلى أماكن لا أحد يعرف عنها شيئاً. وفجأة، اختفى البغل. ولم تتجرأ المرأة على سؤال زوجها عنه.

وبعد انتهاء الأب من إحكام قيد ابنه جلال، أرسل ابنه الأصغر نضال إلى باحة المدرسة، طالباً حضور لجنة التطويع في سرايا الدفاع:

– قل لهم أبي طالب حضوركم، وقل لّهم من هو أبوك!

-302-

وكانت ابنة مريم أثارت غضب الشيخ، في ذلك اليوم الذي تنزّل فيه اسم (سيدنا الاسكندر) على زيتونة لتاجها شكل تفاحة عملاقة خضراء. وقرفص ابن عمّ المعلّم، الشيخ الذي غادر صفوف التاريخ إلى صلوات تتلى على أرواح الموتى وقدور اللحم المسلوق وروح القمح المشبعة بزيت الزيتون، تحت الزيتونة التي كانت ابنة مريم تخاطبها:

– آخ يا أم نمل، من قادر على قطف كل هذا الحَبّ الناعم عنك؟ لو كثرة حبّك من المحبة لكنتِ جمعتِ كل عشر حبّات مع بعض، وخفّفتِ عنّا العذاب! وضحك علي جاد الصغير ونظر نحو ابن عمّ أبيه.

– لو شغّلوا العسكر بقطاف الزيتون.. كانوا، بيوم واحد، جمعوا كل زيتون سوريا! احسب كم عسكري عندنا وكم شجرة زيتون مثمرة؟ فأجابه الشيخ:

– لا يا ابن العم، لا تغلط، حتى ينجنى الزيتون لازم له عسكر همتهم عالية مثل عسكر سيدنا الاسكندر قدّس الله سرّه...

– يعني، برأيك، سيدنا الاسكندر جاء بعسكره معه.. عسكره منا وفينا، أم أنا غلطان!؟

– أكيد غلطان! العبرة بقوته وقوة حضوره، قدّس الله سره! سرّه، خلّى كل واحد من عساكره أقوى من أربعين محارب، أم نسيت كيف رفع باب الحصن بيد واحده..

– معناها بتلويحة من يده – دخلت ابنة مريم على الحديث– كان زيتون سوريا كله تعبّأ بأكياس لحاله، وبلا هالموت الأحمر، كل يوم!

– لا تكفري، عفى الله عنك يا ابنة الشيخ! أنت ابنة شيخ كبير وتعرفين مكانة سيدنا الاسكندر عندنا.. السخرية ما محلّها هنا، الله يسامحك..

–303–

وبعد رحيل الشيخ، هزّت ابنة مريم رأسها، مرّات عدّة، كأنما تنفض منه أسئلتها الصعبة، وتنزّل الاسم. وراحت تحصي عدد العساكر، وتحسب ما إذا كان توزيعهم على زيتون البلد، يكفي لقطافه بيوم واحد أم بيومين. وذات واحد من صباحات الجند، صدر زعيق ناجم عن احتكاك الحديد بالصخر، ثم طقطقة وانشلاع. وهوت زيتونة (سيدنا..) واقتيدت إلى النار.

–304–

ولم يحتج الصغير نضال للتعريف بأبيه، فقد نُصح الرجال الغرباء بتلبية الدعوة، والتعرّف على رجل فريد من نوعه. وجاء الأصغر رتبة بينهم لاستطلاع الأمر. ألقى الأب بكمشة تبن أمام قدمي ابنه، وقام من مكانه، وضغط رأس الشاب نحو العلف. لم يكن ممكناً للشاب ثني ركبتيه. حدّق الابن في عيني أبيه. لم يبك.

– كُلْ! ارفع التبن بيديك. خلّص حالك ورُح معهم. نعم يا ابن الحكومة، لازم لكم مثل هذا المقاتل، تفضّلوا فكّوه، لكن، لا تجرحوا قرمة الشجرة! وتركهم وغادر صوب الجبل.

ودعت الأمّهات ليديه بالكسر، واختلسن النظر إليه خائفات. ثم سمعن صدىً لثلاث رصاصات. كانت الرصاصات قد أُطلقت على القفل. كان مقاتل سرايا الدفاع قد رأى مثل ذلك في الأفلام الأمريكية، فأخرج مسدسه، وأطلق أولى الرصاصات فلم تصب القفل. فأطلق الثانية فجاءت في الجذع. ولحسن حظّه، أصابت الثالثة القفل نحو انشلاع. ضحك الصغار المتحلّقون حول شجرة التوت، وكانوا قد سدّوا آذانهم بانتظار تفتت القفل من الرصاصة الأولى.

– يا الله، انقلعوا! صاح بهم المقاتل الغريب، واصطحب معه الأسير المحرر.

–305–

وكان جلال سقط عن سطح بيت عيون القط قتيلاً، من أجل أن ينتصر سكان عين الغار على الإسرائيليين. واستفاق القتيل على رائحة الخبز.

– أنت إسرائيلي، اعمل حالك ميتاً، لا تخرب لنا الخطة! صاح الملازم المُسرّح محمود، وقد اختار نفسه معاوناً لضابط الجيش الشعبي، في تنفيذ بيان عملي تدافع فيه عين الغار ضد الاسرائيليين حين يأتون لاحتلالها. لكن جلال بدلاً من أن يسقط كمثل القتيل عن السطح، قفز. وبعد موت قصير أُمرَ به على التبن، وقف وراح ينفض عن الخاكي الغبارَ والقش، ثم ركض في ملاقاة رائحة الخبز! كانت إحدى نساء عين الغار في طريقها من التنّور إلى دار زوجها:

– الله يعطيكم العافية!– حيّتهم المرأة وهي تُنزل صينية الخبز عن رأسها– تفضّلوا، كلوا عين خالتكم!

– يا خالتي هذا إسرائيلي لا تطعميه!

– كيف إسرائيلي! كيف هو إسرائيلي وحضرتك من!

– نَعم!؟ احتدم الضابط.

– قصدي، كيف ممكن أعرف الإسرائيلي من غيره؟ بعدين، لا تصرخ عين خالتك، شفتكم بالجولان، طنجرتي بقيت عَ النار هناك– وانصرفت عنه إلى أبناء ضيعتها– كلوا حبيباتي، الخبز ساخن، كلوا!

–306–

– سيأتي الإسرائيليون من جهة البحر، يجب منع وصولهم إلى القرية، وإذا ما وصلوا يجب أن نعرف كيف نقاتلهم! قال الرجل الغريب ذو البزّة الرمادية المكويّة جيّداً للرجال المتحلقين حوله في باحة المدرسة، ممهداً للبيان العملي الذي سينفّذونه بعد قليل في شوارع الضيعة. كان أحد ما يأتي بين حين وآخر، ليعلّم رجال عين الغار كيف يقاتلون الإسرائيليين. كان الدرس الماضي عن كيفية حَفر خندق عرضي يقطع الطريق المؤدي إلى الضيعة، وتغطيته بفروع الأشجار وتمويهه بالتراب، كي تسقط فيه المدرّعات المهاجمة. وأمّا درس اليوم فعن قتال الشوارع. لم أفهم لماذا سيختار الإسرائيليون طريق الإسفلت الضيق ويتركون الكروم المنبسطة عن جانبيه. وإذا كانوا سيأتون من جهة البحر، فلماذا لا يسلكون طريق وادي الجراد؟ ولماذا سيدخلون شوارع القرية، تاركين بيوت الطين لأهلها؟ أمن أجل أن يمرر الأهلون من بين حجارة جدرانها المتداعية سبطانات بنادقهم لاصطياد من يرتطم بها من الإسرائيليين صدفةً؟ لكنّ فكرة الحفرة أعجبت الأولاد، فقد انقلبت سيارة على طريق المعسكر بعد ذلك بوقت غير طويل. أحد ما، عرف كيف يقلب السيارة ويُشبع الضابطَ الصغير الذي فيها وعسكرييه ضرباً. وأمّا ما حدث بعد ذلك فسأحدّثكم عنه في حينه.

-307-

هوب.. هوب! وقفزت قطّة سوداء، قاطعةً طريق كاترينا إلى عين الغار. لم ينتبه أحدٌ إليها سوى بوسلطان، فمال بحافلته لدهسها لكنّه لم يتمكّن منها. وتأرجح الركاب، الراحلون منهم إلى بيت بوعلي سلمان، والقادمون إلى بيت بارود.

-308-

وكان الطبال يتفحّص باحة المدرسة، وكان الأولاد حوله يهرجون استعداداً لعرس صافي، ويرجونه أن يسمح لهم بالنقر على الجلد الذي لمّا تكن قد أُشعلت النار من أجل إحمائه بعد. ولم تكن ابنة مريم قد ذاقت طعم النوم في الليل السابق الذي انتظرت فيه قدوم ابنها، إلى أنْ حلّ الفجر فأطبق التعب جفنيها، على إغفاءة طويلة قبل دقائق ربّما من خروج المعلّم إلى جولته التي انقضّ فيها نسر على قلبه.

كانت ابنة مريم تحتضن أملاً بأن يظهر ابنها في البيت حوالي الحادية عشرة ليلاً. ففي الحادية عشرة تأتي حافلة معمل الإسمنت بوردية عمّال، استبدلتْ بهم آخرين. كثيراً ما كان علي جاد الصغير، يعود مع عمّال الإسمنت بعدما يكون قد استسلم إلى عدم إمكانية أن يهرب المرء من روحه إلى أي مكان. ومع ذلك، فها هو يهرب اليوم من مواجهة لحظة موت عمّه راجي..يهرب منها إلى غرف حقيرة لا يدخلها الضوء يستأجرها طلاب الريف الفقراء في محيط مقبرة المدينة العتيقة.

-309-

حين همَّ المقاتل جلال بالسفر إلى الضيعة، كان رفيقاه قد حاولا ثنيه عن قراره. كانا يعرفان قصّته جيداً، ويعرفان كيف يمكن أن يلحق به صغار عين الغار ويلاحقونه، ضاربين على صفائح التنك الفارغة بقضبان الحديد والعيدان.. ويعلمان أنّ أحداً لا يستطيع أن يخمّن الألقاب التي يمكن أن يطلقها الأولاد عليه، وأنّ أولئك الشياطين لا تخيفهم البزات المموهة ولا صراخ آبائهم وأمهاتهم.. ومع ذلك، قرر السفر. فقد كان أتاه في المنام أن أمّه تُخنق، وتُلقى أمام (الجقل) ليأكل من لحمها الذي لم يبرد بعد. كان الابن يعرف (جقل) أبيه. إنّه الجقل نفسه الذي رآه في المنام. كان الجقل الجائع يأتي ليأكل ما يُخلّفه الرجلُ بعد انصرافه، ثم صار يأتي ليأكل ما يلقي به الرجل إليه، ثم صار يمضي قيلولة في المكان، ثُم صار يندسّ، في الليالي الباردة، تحت معطف الرجل، ويغفو. يبتسم له الأب، ويغفو على صوت لهاثه. ومنذ ذلك اليوم الذي آنسه فيه الجقل، قيّد الرجل كلبه بجنزير إلى حلقةٍ، قرب باب الدار، ولم يعد يصطحبه معه إلى الجبل.

-310-

ووصل جلال في ذلك الفجر. وكان المعلّم قد تجاوز في جولته دار بوجلال للتو. كان جلال قد طلب من سائق الدراجة النارية إنزاله عند (البيّاضة). لم يفهم سائق الدرّاجة لماذا يطلب مكتريه النزول في مكان لا بيوت فيه. ومن هناك، راح يعدو باتجاه دار أهله، في سباق مع الضوء. فقد كان يخشى سماع صوت شخير محرّك كاترينا. ولم تكن لديه ساعة لضبط الوقت.

وحين دخل جلال الزقاق المفضي إلى دار أمّه، سمع نباح الكلب. وراح هذا النباح الفرح يزداد مع اقترابه من الدار. ورأى المعلمَ يغادر الزاروب إلى غير اتجاه، فدخل الدار المهجورة، بانتظار أن ينعطف المعلّم إلى زاروب آخر. وتوارى المعلّم. ومع اقتراب المقاتل من البيت، ازداد نباح الكلب، وسَمع جلال صوتَ أمّه تسأل الكلب عن سر نباحه في هذا الفجر. حسبت المرأة أن رجلها آت، فاستعاذت بالرحمن من الشيطان، ورجت صغيرها نضال انتظار أبيه في الدار، فيما هي راحت تغالب ارتجاف ساقيها خلف الباب.

-311-

ودخل المقاتل الدار، وعانق الكلب أوّلا وراح يهدّئه، هامساً في أذنه:

– اعذرني يا شوفو، ما اشتريت لك هدية من الشام! ثم عانق أخاه، واضعاً سبابته على فمه في إشارة منه إلى ضرورة الصمت. ففعل بعد شهقة اندهاشٍ وفرحٍ يخالطه خوف. ودخلا الأوضة، وهناك عانق أمّه، فلاحظت أنّه يهرب بعينيه عنها كلما نظرت إليه. وكانت أخته التي لم تستطع العودة إلى الناس بعد خروجها من الزريبة لا تزال نائمة.

طلب جلال من أمّه التي سارعت لتحضير الفطور أن تكتفي بكأس لبن ونصف رغيف. همّ نضال نحو الباب، لاحضار خبز ساخنٍ من فرن شيبان. فاستوقفه، خشية أن يثير ذلك ريبة الناس. فليس من عادة هذا البيت شراء الخبز في هذه الساعة المبكرة.

شرب جلال اللبن على عجل، واعتذر من أمّه عن ضرورة خروجه من الضيعة قبل خروج الناس من دُورهم. وكانت الأم تخشى على ابنها سخرية الأولاد منه، واحتمال ملاحقتهم له وهم يكررون ما رددوه يوم رحيله مع العسكر.

رجا الصغيرُ أخاه المقاتل، على عتبة الدار، أن يأخذه معه إلى الشام، فأجابه بحزم:

– لا تترك مدرستك– وكان نضال، على نباهته، قد تخلّف إلى ذلك الحين ثلاث سنوات، فبقي في الصف السادس بدلاً من أن يكون في التاسع– العسكري بالجيش مثل الخرقة لمسح أبواط الضباط..إياك، لا تترك المدرسة، البكالوريا حياتك، مفهوم! قالها مُنذراً، وقبّل يد أمّه، وخرج.

-312-

وكان الأولاد خرجوا مساء اليوم الذي رحل فيه جلال مع العسكر، وهم يصيحون:

– جلال أكّال التبن، الطاعة أختو للجُبن، والسرايا يا أخوان صارت ب تجنّد نسوان..لا تزعل منّا جلّول، سُكوتك ما هو مقبول!!

-313-

هوب.. هوب! وفي الحادية عشرة والنصف، بقي فراش علي جاد الصغير، كما أعدته ابنة مريم من أجل نومه. تأمّلت ابنة مريم فراش ابنها، وعادت إلى فراشها لتتظاهر بالنوم. كانت حافلة المخبز الآلي الصغيرة تأتي متأخرة عن حافلة معمل الاسمنت حوالي الساعة. وفي الثانية عشرة والربع.. والثانية عشرة والنصف.. وفي الواحدة إلا ربعاً.. وفي الواحدة.. بقي الفراش على حاله. وصعدتْ ابنة مريم إلى السطح لترى أياً من بيوت رفاق ابنها لم يُطفأ ضوؤه بعد.

سمع المعلّمُ وقعَ خطوات ابنة مريم على السلّم فأطفأ المصباح، واستلقى على سريره وتظاهر بالنوم. كان، حين تناهى إليه وقع خطواتها، يغالب انشداد عضلات صدره ووجعاً مقيماً أعلى المعدة بقليل، وجعاً راح يغالبه باستحضار الوشاح الأخضر، وتصوّرِ حزمة ضوء، خضراء حيناً، ذهبيّة حيناً آخر، تسحب الألم من الصدر.

-314-

وفيما انصرفت أم جلال إلى دمعها، تسلل نضال في غفلة من أمه المشغولة بأحزانها وسار في أعقاب جلال.. في الجبل، رأى جلال أباه على حصير من القش يغفو وحيداً. فقد كان الجقل انصرف إلى غير مكان. كانت رائحة عرق التين تفوح من أنفاس الأب المستلقي على ظهره، وبندقية الصيد ذات السبطانتين ممدة إلى جانبه، وحزام الخرطوش مشدودٌ إلى خصره. رفع الابن البندقية، ووضع فوهتيها في عنق أبيه. وما إن لامس الحديد البارد العنق الدافئ حتى خرج طلقان. فتح الجريح عينيه على اتساعهما، وبدا كأنّما يحاول قول شيء، مبتسماً ابتسامة لم ير الابن مثلها على وجه أبيه من قبل. خيّل للولد أنّ الكلمات التالية خرجت من العنق النازف:

– عملتها!؟ كنت ناطرك تعملها من زمان! ملأ الصوت رأس المقاتل ولم يكن قد غادر أذنيه طنين الإطلاقة المزدوجة بعد. فمد يده إلى حزام الخرطوش، وأخرج خرطوشتين جديدتين. ووضع، هذه المرّة، فوهتي البندقية في عينين راحتا تنظران إليه. وضغط على الزناد. عند ذلك فقط، أعلن نضال عن وجوده، فسحبه جلال من يده وجرّه إلى ما وراء الدغل، بعد أن حرر حزام الخرطوش من الجثّة، وهناك همس لأخيه:

– على علمي، الجقل قريب من هنا! ولم يطل بهما الوقت حتى جاء الجقل وراح يتشمم جثة صديقه، ويلعق الدم النازف من عنقه ومن عينيه، فعاجله المقاتل بإطلاقة مزدوجة أردته إلى جانب جثةٍ لم تعد تنظر إلى أي مكان، وبات من الصعب تمييز الابتسامة المرتسمة على وجهها المشوّه. لم يحضر نضال إلى المدرسة في ذلك اليوم.

–315–

حفر المقاتل بفأسٍ كان تركها أبوه في المزار حفرةً، لم يفهم نضال لماذا جعلها أخوه ضيّقة لا تتسع لأبيه ممدّداً، وقليلة العمق كما لا تكون القبور. وإذا بالمقاتل يتوقّف عن العمل، فقد راحت الفأس ترتطم بالصخر من جميع الجهات. نظر الكبير نحو الصغير، فأشار الثاني إلى اليمين. كان ثمّة على بعد خطوات إلى اليمين من الحفرة المستعصية، بئرٌ حاول أحد ما من الأقدمين حفرها عند المزار، لتكون منهلاً للزائرين. ثم، لسببٍ ما، هُجرت الحفرة التي كان يتجمّع فيها بعض ماء الشتاء، إلى أن جاء بوجلال وأراد لنفسه شجرة تين.

كان بوجلال يحتفظ لنفسه بتين مجفف في المزار. يأكله شتاءً مع دبس الخرنوب الذي يصنعه بنفسه ومع البطم. زرع الرجل في حفرة البئر شجرة تين، وحين جاء ولداه لم تكن قد أكملت عامها الثالث بعد. كان نضال قد ساعد أباه في ردم البئر بحجارة جاءا بها من هنا وهناك. ثم ساعده في جمع تراب وطبقة من أوراق الغابة المتحللة، فرشاها حول جذور الغرسة الصغيرة. لم يكن الأكبر يعلم شيئاً، قبل الآن، عن هذه الغرسة التي راحت تمط عنقها نحو الضوء. أخذ الصغير معولاً كان قد أخرجه من مخبأه مع الفأس، وراح يرفع التراب من حول الغرسة. فهم الكبير أنّ الصغير يريد الحفاظ على جذورها، فبدأ يعمل فأسه في محيطها الأبعد. وبعد قليل من الجهد، قاما بتمديد الغرسة إلى جانب الحفرة، وبدأا بإخراج الحجارة من هناك.

–316–

وأخيراً، أنزلت الجثة إلى الحفرة واقفةً، وكانت قد يبست إلى حين انتهاء الحفر. وألقيت جثة الجقل فوق رأس القتيل. وحَول العنق المهشّم، نُشرت جذور الغرسة التي لم يترك لها الظلام أن تصبح شجرة. وراح جلال ونضال يردمان الفراغ بتراب ناعم ومزيد من دبال الغابة. وكان المقاتل قبلما يحيط جثة أبيه الواقفة بالحجارة تأمّل البندقية وحزام الخرطوش، ثم ألقى أوّلا بالحزام إلى أسفل القبر وبتأنٍ، أو ربما بتردد، أنزل البندقية جاعلاً فوهتي سبطانتيها إلى فوق، بعد أن حشر في بيت النار خرطوشتين انتزعهما من الحزام. وبعد أن جابت عيناه المكان، رجا أخاه العودة إلى البيت والالتزام بدروسه. لم يطلب منه الصمت. كان ذلك أمراً فائضا عن الحاجة.

-317-

وفي صباح اليوم الثاني والعشرين على عودة المقاتل إلى الشام، ولم يكن قد بقي لدى أمّه مالاً تشتري به الخبز، أو شيئاً تقدّمه للكلب، حَرّرت الكلب من قيده، كعادتها حين كان يطول غياب الرجل عن البيت. كان ذلك إجراءً اهتدت إليه عن طريق صغيرها نضال. ففي غفلة من المرأة، قام الولد يوماً بفك قيد الكلب. كان يريد إخافة أبناء صفّه في المدرسة، وتهديدهم بأنياب الكلب فيما لو أزعجوه. لكن الكلب لم ينصع لندائه، بل راح يعدو مسرعاً باتجاه جبل القتيل. وفي عشاء ذلك اليوم، عاد الرجل بكلبه. وجاء بو جلال غاضباً، وهدد زوجته بقطع لسانها وإلقامه الجقل لو أرسلت الكلب إليه مرّة ثانية. كانت أشياء أقوى من التهديد تدفعها لإعادة إطلاق الكلب بين حين وحين: رؤية منام ينبئ بشرٍّ يصيب الرجل؛ بكاؤها على قميصٍ له رفعته عن منشر الغسيل قبل مغيب الشمس؛ صورتهما على الجدار، حين كانا لا يزالان يلبسان الدبلتين باليمين؛ كلمات، قالها ذات ليل خمّنت منها أنّه يحبّها؛ عبارات قاسية، قالها مشدّداً على ضرورة الانتباه إلى الأولاد، أشعرتها بأنّه يخاف عليهم.. يعني يحبّهم.. وأشياء أخرى.

-318-

وبكت أم جلال، ثم اعتذرت منه ولاطفته، وأعدّت من أجله العشاء. وتعشى الرجل في بيته في ذلك اليوم، ولاطف ولديه، بعد أن مسح الدمع عن عيني الكبير، ومسحت أمّهما الدمع عن خدّيها. ثم أمرهما بالانصراف إلى الغرفة الثانية، حيث أختهما التي ارتعدت حين تناهى إليها صوته. فتغامزا وانصرفا، ترتسم ابتسامة على وجهيهما. وبعد نصف ساعة، أمضاها الرجل في العتمة مع امرأته، غادر الغرفة وكانت أنفاسه ورائحة زهر الخرنوب لا تزال عالقة في فضائها. وخرجت المرأة إلى صحن الدار، وشيعته بعينين باكيتين. غير أنّه لم يلتفت إلى الخلف. التفت فقط إلى الكلب الذي راح ينبح بصورة مثيرة للشفقة.

-319-

– عمّي..عمّي! نادى ابن المعلّم الصغير عمّه راجي، وكان ظنّه لفظ أنفاسه الأخيرة، فهو لم تبد عليه أية حركة منذ أكثر من ساعة، وأمسك بيده ليتأكّد من أنّ الدفء لا يزال يسكنها، وجاء جواب راجي ضغطة خفيفة على أصابع الصغير.

-320-

هوب.. هوب! راح قلق ابنة مريم يؤرجحها بين السطح والمطبخ وأرض الدار. كان قلقاً مبهماً ذلك الذي أمسك بها، ولم يترك لها أن تهتدي إلى معرفة على من يجب أن تقلق، أعلى

ابنها الذي لم يعد من المدينة أم على زوجها المعلّم. كانت تتوجس شراً، لم يفد في طرده دخان الميرمية العطر. فقد أشعلت منها فرعاً، مجففاً في الظلّ، أوّل ما انقبض صدرها. وبخّرت البيت ومحيطه لطرد الأرواح الشريرة. لكنّ الصدر ما انفرج. وحين رأت قطة سوداء تنظر إليها، زاد خوفها وكرهت القطط جميعها.

-321-

وعاد الكلب دون بوجلال. عاد قابضاً بأنيابه على قبّعة صاحبه. ارتاعت المرأة لرؤية القبعة، وراحت تبكي رجلها. تبكيه بمرارة، مستعيدةً لحظة سمعته يبكي أثناء نومه. صورة الدمع في عينيه، غلبت ذاكرة الأضلاع التي انكسرت منتصف ليل ذلك اليوم. كانت نظرت إليه فخيّل إليها أنّها رأت في العتمة آلاماً فظيعة ترتسم على وجهه. أيقظته. فقفز من مكانه كالملسوع، وسألتها عيناه الغاضبتان عن سبب إيقاظها له:

– بكيت بنومك، خفت عليك!

– أنا لا أبكي!! رعد، وركلها في صدرها، مفرغاً هوله من أن يراه أحدٌ باكياً. فصعب عليها التنفس بعد ذلك. وخرج من البيت. ولم يبت فيه بعدها أبداً. كما كفّ عن إغماض عينيه أثناء وجوده نهاراً في البيت، خوفاً من أن يئنّ في غفلة من رجولته. وتذكرته، والقبّعة بين يديها، حين كان يقول لها:

– تعالي يا سخلتي الصغيرة.. تعالي! فتأتي إليه، وتحشر رأسها الصغير في صدره العريض فيعضّها من أذنها، ثم من عنقها..

وتبتسم المرأة، وتشمّ قبّعة رجلها، ويخيّل إليها أنّ رائحة عرقه لا تزال تفوح منها.

خمّنت المرأة أنّ القبّعة ربما تكون قد سقطت عن رأسه أثناء نزاله مع أعدائه. كان يخيّل لها أنّ زوجها يخوض باستمرار معارك في الجبل، وأنّ الكلب جاء بالقبّعة التي سقطت عن رأس صاحبه بين الدغل، وأنّ حبيبها سيعود.

تمسّكت المرأة به حبيباً أمام فكرة الموت. ثم أراحتها فكرة أن يكون قد سئم هذه القبعة، وأنّه ألقاها واستبدل أخرى بها، وأنّه بين لحظة وأخرى سيدخل الدار بقبعته الجديدة. وفجأة، رأت بقعة كبيرة على القبّعة المرقّطة، ثم بقعاً أخرى أصغر منها. كانت بقع الدم قد اسودّ لونها. كان الولدان قد سهيا عن رمي القبعة في القبر. ولم يفكّرا أصلا بإزالة آثار الدماء من المكان.

– دم.. دم!! – قالتها بهلع وبصوت خافت، ثم صرخت– مات!!

-322-

في ملاقاة المرأة المفجوعة، خرجت النساء. فيما التقى المنحدرون من حارة المشايخ في ساحة الضيعة، مترددين بين أن يكملوا الطريق إلى بيت الوحش وأن يعودوا إلى بيوتهم، ريثما يتبيّن الخبر اليقين. وراح المشايخ، على غير عادتهم، يتشاورون أمام العوام، من منهم سيغسل الميت ومن منهم سيصلّي على الجثة قبل الدفن، ثم من سيقرأ القرآن ومن سيرفع الدعاء؟ ثم راحوا يتساءلون عمّا إذا كان يصلح ما اعتادوا تكراره، من أقوال تناقلوها عن آبائهم وحفظوها عن ظهر قلب، للقول فيه..ثم، وكأن الطير حطّ على رؤوسهم فقد أُخذوا باكتشافهم أنْ ليس لديهم ما يذكرونه به من سوء. فهو لم يؤذ أحداً، كما تبيّنوا، في عين الغار...وأنّ ما كان يُحكى عن اشتغاله بالتهريب باطل. فلو اشتغل بالتهريب ما عاشت أسرته على هذه الحال من الفقر، ولما اضطر ولده للتطوع في سرايا الدفاع. وأنّ المعلّم نفسه كان ينهر التلاميذ إذا ما سخروا خفية من ولديه جلال ونضال، وكان يتحدّث بالخير عن أبيهما.

-323-

وكان المعلّم غضب لاقتلاع الرجل ابنته من مقعدها في غرفة الصف الخامس. فما إن تزوّجت زميلتها التي كانت تشاركها مقعد الصف وانتقلت للعيش مع زوجها في ضيعة يوقوئ دجاجها استجابة لصوت الموج، حتى أخرج بوجلال ابنته من المدرسة إلى غير رجعة. ولم يفد رجاء صديقه المعلّم في إعادتها. وغير مرّة، عاد المعلّم إلى الحديث معه في الموضوع، تحت سنديانات جبل القتيل، إلا أنّ الرجل لم يتراجع عن رأيه. وأمّا حينما افتضح أمر حبس البنيّة في الزريبة فقد كان آخر خروج للمعلّم إليه. ومن هناك عاد مغموماً أيّما غم. وكان قبل ذلك فشل في إقناع الرجل بقبول مجيء التلاميذ بصحبته، هو المعلّم، في نزهة إلى جبل القتيل. نظر الرجل بمرارة شديدة إلى المعلّم، وهزّ رأسه متأسيّاً. ظنّ أنّ المعلّم سيأتي بالتلاميذ للفرجة عليه، ليجعله موضوعاً للإنشاء.

– فهمتني غلط يا بوجلال! وضغط يد الرجل البارزة العروق، غير أنّ الأخير نترها وغادر القرمة التي كان يقتعدها وغاب.

-324-

وخرج الأولاد وراحوا يصيحون:

– هوب.. هوب، بوجلال، خلّصنا من هالأحوال، كل واحد فيه عنده دار، والمزار للزوار.. هووووب هوب بوجلال..

-325-

وأكّد الشيخ الشاب عاكف ذو اللحية القصيرة السوداء والعينين السوداوين والعمامة البيضاء، مرتّلا": " وإذا جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين". فغير صحيحة حكاية تخريب الرجل للمزارات. صحيح أنّه نبش المزار، ولكن أي مزار؟ فالمزار الذي نبشه، كان قبراً لأحد الضباط الرومان. وكيف صار مزاراً وكيف صار الناس يقدّسونه لا أحد يعرف! فلا علاقة له بالعقيدة، إلا إذا كان لبومنخار، المقاول الذي كسر بوجلال أنفه، وانتزع منه مسدّسه، بعدما أشبعه ضرباً، علاقة بها. فالمقاول، وليس الحق على المرحوم بوجلال إذا كان الناس يجهلون ذلك، من عائلة قذرة، كل من فيها يؤذي الخلق على طريقته. وهذا المقاول يخدم الآن عند الآغوات الجدد.

-326-

وتبيّن أن حكي بوجلال عن المقاول صحيح! فقد أكّد الشيخ عاكف أنّ أخت زوجة بوجلال، التي أوقفت عمرها على خدمة أمّها العجوز، وقعت في مصيدته، وباعته الدونمات الثلاثة التي ورثتها عن أمّها بمبلغ زهيد، ووضعت بصمة إبهامها على ورقةِ عقدٍ لا تفقه شيئاً مما هو مكتوب فيها. طمأنها المحتال، بابتسامة ودعاء ليحفظها الله ويبارك تضحيتها في سبيل أمّها المرحومة فبصمتْ.

-327-

وكان بوجلال قد انتظر المقاول في طريق الجبل، عند آخر نقطة تبلغها سيارته الجيب. وكان الحديث قصيراً.. بل قصيراً جداً. رفع المقاول أنفه ظاناً أن تلمّسه مسدسه وابتسامته الساخرة كفيلان بحمايته، فلم يصطحب معه رجال حماية قبل تلك الواقعة. رفع المقاول أنفه، مقدّراً أن الرجل جاء ليطالبه ببقية المبلغ لأخت زوجته، وأن كلمتين حلوتين ستجعلان هذا الرجل البرّي البسيط- كان خطأه أنّه لم يتفحّص عيني محدّثه جيّداً- ستجعله ينصرف عنه، شاكراً، إلى غير يوم. لكن مطرقة خماسية الأصابع جاءته على الأنف، ثم مطرقة على الفك.. واستفاق المقاول على اشتعال سيارته، وعلى خفة وزن جانبه الأيمن بعد فقدان المسدس. ويومها نشب أوّل حريق عرفته عين الغار. وأتى الحريق على سفحٍ من جبل الصنوبر، إلى أن ردّته ريح آتية من جهة البحر.

-328-

وصعد راجي، ساعتذاك، إلى سطح أوضته آخذاً معه العود، وراح يعزف، وكانت هي المرّة الأولى التي يعزف فيها على هذا السطح، وراح يغنّي للنار، متخيلاً اللهيب في مكان آخر. ونظر من هناك نحو شجيرات الورد، فمطت الوردات أعناقها صوبه، وبدت حتى الزهرية منها أرجوانية اللون.

-329-

وبعد الحريق، فرح العطّاس، وغلبت أيمانه محاولات المعلّم التملّص من دخول الدار.

– تكرم عينك وعين بنت الشيخ وعيون المدرسة.. هيّنة يا معلّمنا الغالي.. هيّنة!. كان المعلّم جاء في طلب أشجار حراجية لتشجير البقعة الجرداء التي خلّفها الحريق في سفح جبل الصنوبر الجنوبي الشرقي.

لم يكن الأهلون يفهمون ولا زوجة العطّاس كانت تفهم، كيف يمكن له وهو الذي غُيّب ولده في السجن أن يلصق كل هذه الصور للرئيس ويرفع كل هذه الأعلام. وكان ذلك يزيد من غموض العطّاس في نظرهم ومن سلطة عطاسه عليهم. ابتسم المعلّم عند دخول الدار التي لم تكن غريبة عنه. رأى فيها ما لم يره في زيارته السابقة.

-330-

كان الأهلون قد تحدّثوا عن جرّار رفعه العطّاس وأدخله داره من فوق الجدار. كانوا قد أعانوه في ذلك وضحكوا وشربوا، وهزّوا رؤوسهم، مرددين في طريقهم إلى بيوتهم:" لله في خلقه شؤون!". كان الجرار قد صنعته مديرية الحراج من خشب الصنوبر، للمشاركة في كرنفالات التصحيح. وكان العطّاس عرف كيف يجعل الصور والأعلام ترفرف عليه في طريقه، أمام المنصّة المنصوبة على واجهة نادي الضبّاط. كان العطّاس أصرّ على الجلوس وراء المقود الخشب، وهناك راح يحشو أنفه بالنشوق، ويعطس ويهتف ويضحك ويبكي ابتهاجاً وهياجاً.

وكانت مجموعة من العاملين المُياوِمين قد لعبت دور الخيول. كل عاملين حصان، الأذنان والبوز على رأس الأوّل والسرج على عنق الثاني. لا أحد يعلم من أين جاءت هذه الفكرة الجهنّمية، التي رقص لها طرباً رؤساؤه المسؤولون عن الغابات، إلى رأس الرجل الذي دخل المعلّم داره. ثمانية من الخيول راحت تجر الجرار. وكثيراً ماً انشقّت بعض الأفراس في طريقها إلى المنصّة نصفين. لكنّها كانت تصل في نهاية المطاف. وكان يعلو رأس كل منها صورة للرئيس وعلم للبعث. وما إن انتهى العرض، حتى قامت الخيل بدفع الجرار إلى شاحنة اتجهت به إلى بيت العطّاس.

-331-

جعل العطّاس من مقعد الجرار في داره كرسياً له يتأمّل منه الشارع. لم يَدْعُ العطّاسُ المعلّمَ لاعتلاء الجرار، بل دعاه لدخول غرفة الضيوف. وباستثناء الرابع المتروك لصورتي الشيخين أبيه وجده، كانت جدران الغرفة الثلاثة مغطّاة بصور إبراهيم. كان العطّاس دُهش لمقدرة آلة النسخ، في المديرية، على جعل الصورة عشرات. وفي واحدة من مناوباته الليلية، راحت الآلة تُخرج ابتسامة ابنه المعتقل السوداء. ودخل المعلّم الغرفة. وكانت المقاعد فيها من جذوع صنوبر عليها بسط منسوجة من مزق ثياب عتيقة، كثيراً ما كان ينسج مثلها الأهلون.

-332-

هوب.. هوب! وكان باب العلّية مغلقاً، وكان يصدر صريراً عند فتحه. دنت ابنة مريم منه، مترددة بين أن تفتحه وتغلقه، خشية إيقاظ المعلّم. ثم تراجعت ودارت حول العلّية نحو النافذة الصغيرة المفتوحة على السطح. وهناك أطلّت برأسها عبر النافذة للتأكد من أنّ المعلّم ينام بهدوء وسلام. ساعدها المعلّم، فقد راح لطمأنتها يصدر شخيراً خفيفاً منتظماً، ثم أقلقته حركتها في هذه الساعة المتأخّرة من الليل، فتقلّب في فراشه ليوهمها بأنّه على وشك أن يستيقظ، ونهض. أسرعت ابنة مريم في نزول درجات السلم، فاستوقفها نداؤه. صعدت إليه، وخرج إليها. نظر نحوها محاولاً رسم ابتسامة على وجهه. لم يكن ضوء القمر كافياً ليرى كل منهما الحزن والقلق في عيني الآخر!

– صدري منقبض، وخايفة..! يا خضر مضّي هالليل على خير. قالت بصوت مرتجف. ولم يخبرها المعلّم عن ألمه وقلقه. أراد ضمها إلى صدره، لكنّه خشي أن تلتقط أذنها أسباب الألم في صدره.

– خلّنا نزور راجي!– وسحبها من يدها– راجي لا يفتح عينيه، ولكن أظنه يسمع صوتنا.. نسلّم عليه، ونتمنى لروحه الراحة الأبدية.

-333-

وكانت شاحنة جاءت، ذات صباح، بالغراس إلى باحة المدرسة، وكان الأهلون ينتظرون قدومها مع معاولهم وفؤوسهم. فاليوم ستزرع على اسم كل من أولادهم عشر صنوبرات. ومن أراد أكثر سيكون له ذلك. فكّر المعلّم بأن يغرس كل تلميذ غرسةً باسمه، ويترك الباقي لغابة مشتركة، ثم عدل عن فكرته. فقد خشي أن تيبس غرسة واحدٍ ما من تلاميذه فيرى في ذلك علامة شؤم هو أو أهله فيحزنه ذلك ويحزنهم. عشرة! رقم معقول. وستُنصب وسطها لوحةٌ على حامل تحمل اسم

الزارع. وسيكون على الأهل رعاية الغرسات وريّها في فصل الجفاف، ريثما تكبر وتطاول جذورها برودة الأرض وماءها. لكنّ المعلّم، ما إن وصلوا إلى السفح المحروق حتى رأى أن يترك لكل عائلة أن تختار الرقعة التي ستزرع فيها لابنها توائمه الخضر. وكان ما لم يتوقعه فقد تنازعوا ليس على الأماكن الأهين على فؤوسهم إنّما على المواضع الأخصب. بدوا متحمّسين، مستعدين للشجار. كأنّما هم يؤسسون بساتين ستؤتي ثمرها حين يكبر الصغار، وسيتوارثها الأحفاد عن الأبناء، بساتين، التخم فيها تخم كرامة. وإذا بالمعلّم يضاحكهم، ساخراً من ملكياتهم الطارئة، وإذا بهم يعيدون نشر معاولهم وفؤوسهم. الرجال يضربون في الأرض ويضربونها، ونساؤهم تنقل الماء من الجب إلى السفح لري الغراس.

-334-

وجاء السقّاء بألواح خشب مصقولة صغيرة مسمّرة على أوتاد، كوى على كل منها اسم أحد التلاميذ. تمنّى المعلّم لو أنّهم لم يسحبوا هيكل سيارة المقاول المحروقة. كان ينوي أن يجعل منها بوابة للصغار إلى حيث الأخضر ينتظرهم. لكنّهم سحبوها ليستبدلوا بها أخرى. كانت واحدة من سيارات كثيرة توزّع على قوائم أسماء يضعونها هناك. وفي طريق العودة، اعتلى المعلّم ظهر حمارته، وكان التلاميذ وأهلوهم قد غادروا إلى دور عين الغار.

-335-

وآن كان الغرس حول المدرسة والماء، جاء راجي بعقلات الورد. كان اقتطع العقلات من شجيراته. وراح يمازح الرجال والنساء، طالباً فرصة منافسة بين الورد والصنوبر والسرو والبطم والغار. ضحكوا، وراهنوه على أنّ عقلاته ستموت في منافسةٍ مع جذور غرساتهم. لكنّ السقاء كان له غير رأي. جاء السقّاء بغرسات ورد، كان أخذها من عند راجي وزرعها في داره، في صفائح تنك صغيرة، العام الماضي، وجعلها، بعد رحيل الأهلين، في جور الغراس التي يامنت باب المدرسة وياسرته. وأخذ عُقلات راجي إلى داره ليتعني بها على طريقته. وابتسم لارتسام الورد في عينيه، ومن هناك، قصد حانة سلّوم، وقليلاً ما كان يفعل. فأخذ راجي كرسي صاحب الحانة من أجله، مبتسماً للأخير بمودّة آمرة أنْ بإمكانك الانصراف وترْكنا، فنحن نعرف كيف نخدم أنفسنا ونغلق الباب. وفهم سلّوم أنّ عليه أن يأخذ أحد الثقلاء عن مائدة راجي. ورفع السقاء كعادته نخب ابنة مريم. وأفرح ذلك راجي فأجاب:

- حيّاك الله، وكأس أصلك يا ابن الأصل!

-336-

لم تستطع ابنة مريم نسيان القهر الذي عانته يوم أجبر الأهلون أباها الشيخ على إعادتها من المدرسة في الصف الثالث إلى البيت. يومها، عجز الشيخ عن إقناعهم بإرسال بناتهم إلى المدرسة. ولم يكفّ أولادهم عن الهزء منها، هي الفتاة الوحيدة تجلس بينهم هم الصبيان. عادت تكره الصبيان، وكبر كرهها لهم ونفورها منهم، مع تحوّلهم إلى شباب ثم رجال. كانت تقول إنها تكره الرجال، لكنها كانت تعني نفورها ممن يقصرون رجولتهم على ذكورتهم. كانت أمنيتها، أقرب إلى إيمان بحقٍّ عليها أن تحصّله من الله. لكنها لم تكن تدري كيف ومتى بعد. كانت ما إن تستسلم لإيمانها بالله حتى تعاتبه على مجانبته الصواب في خلقه. كان يصعب عليها التصديق أن الله يخلق البشر على هذا القدر من الضعف والوحشية والقابلية للتردي إلى ما لانهاية له. وأمّا الشيء الذي أصرّت عليه، على الرغم من كل شيء فهو تحصيل العلم.

لتذهب المدرسة والشهادات إلى الجحيم! قالت في نفسها. وراحت تقرأ ما يتيسر لها من كتب في مكتبة المعلّم، وتقرأ القرآن. وراحت تلعن الفقر أكثر مما كانت تلعنه مع كل كتاب تقرأه، راسمةً في ذهنها تصورات عن مدرسة تفتحها من أجل البنات. وكما أنّ كثيراً من الناس يموتون نكاية بالحياة فإنّ كثيراً منهم يعيشون نكاية بالموت. قرأت ابنة مريم نكاية بالجهل.

-337-

وذات عصر، وكان المعلم شكا لها إهمال البنات لدروسهن، وجدت ابنة مريم حيلة لجعل منى وشمّا وسارة ونورا ولمياء يدخلن دارها. وفي الدار قصّت عليهن حكايتها مع المدرسة. وكثيراً ما تذكّرت نورا، في دار المعلّمات، حكاية ابنة مريم. وكثيراً ما حكتها لمياء لأمّها وأبيها لدعم حجتها أمامهما ليوافقا على سفرها إلى الشام. ولم تغيّر تلك الحكاية شيئاً في شمّا وسارة ومنى. فقد ابتسمن لابنة مريم، وبسطن أحلامهن أمامها- الزواج من ضبّاط في الجيش.

- من مِن البنات تقبل اليوم الزواج من معلّم؟ قالت جيداء ابنة العطّاس لابنة مريم، وكانت عازبة لا تزال. وشكا سلمان لابنة مريم أحلام شمّا:

- ناطرة يجيها عريس ضابط!

-338-

وصبيحة عرسها، ولأنّ عريسها كان ابن بارود، لم يكن لمنى أن تطلب من ابنة مريم تصفيف شعرها كما كان غير قليل من بنات عين الغار يفعلن. وكانت ابنة مريم تستجيب لرغبتهن وتصفف شعرهن دون مقابل. كانت تجعل منهن دميً، مزيَّناتٍ بما يتيسر لها من أشياء. وما أقلّها كانت. وكانت ابنة مريم ماهرة في صناعة الدمى وخياطة ملابس من أجلها وابتكار

تسريحات لكل منها. ويوم جاء المعلّم لخطبتها، كانت ابنة مريم تحتضن دميةً كبيرة صنعتها لتؤانسها. لكن المعلّم أخذ الدمية الحيّة ومعها دمية القماش، بعد عشرات الأيام.

-339-

وجاءت الفتيات، وما كنّ يعرفن شيئاً عن كدر ابنة مريم، وعن الخوف الممسك بقلبها. وكان المعلّم يقاوم الألم بانتظار عودة ابنه علي جاد الصغير من المدينة. وقرأن على وجه المرأة التي لم ترفض لهن طلباً من قبل عجزاً عن فعل شيء أو قول شيء. ورحن يتباحثن فيما عساهن يفعلن، ورحن يلعنّ ابن بارود الذي لم يسمح لعروسه أن تأخذهن معها إلى مصففة الشعر. كن ينتظرن أن تهديهن العروس فساتين جديدة ليكنّ وصيفات لائقات لها، وتصطحبهن معها إلى المزيّنة، لكنّ ابن بارود حال دون ذلك، وهي لم يكن لديها من المال ما تنفقه عليهن. أو هكذا أردن أن تكون الأمور قد جرت تفادياً لخيبة الأمل بصديقتهن.

-340-

لم ينعت الشيخ عاكف الرجلَ القتيل بالـ (وحش)، كما يفعل الجميع في (عين الغار) خلا المعلّم، وربما قلّة لا أعرفهم؛ وأكد آخر، يدعى بالـ(مسلوخ) أن بوجلال كان رجلاً شهماً فقد دافع عنه يوم اتهم بالتلصص على النساء. وكانت أمّ شمّا قد غافلت الـ(مسلوخ)، بعدما أحست بأنّه يتلصص على عريها من وراء دغلة قريبة على شاطئ الساقية، غافلته بعلبة ماء يغلي دلقتها في وجهه.

-341-

وكانت شمّا قد وُلدت قبل علي وتلامحت نحو صبية أقرب إلى أمّها من أبيها. ومع ولادة علي، ظلّ الرجال ينادون المرأة منسوبة إلى ابنتها، وأغفلوا ولادة الصبي، وكثير منهم أغفل وجوده حتى بعد أن شبّ وسيق إلى الخدمة الإلزامية. على أنّهم التزموا مخاطبة الرجل بأبي علي، إلى أن كُسر ظهره ففقد اسمه.

-342-

ويوم دلقت أمّ شمّا الماء، خرج الأولاد وراحوا يهتفون، قارعين على التنك:

- لا تنزلوا ع النبعة كل واحد بيصير سبعة.. هووووب هوب يا مختار، بالوادي شعلانة نار.

-343-

وأقسم عيسي أنّ بوجلال لم يظلم بائع الخبز (بوكياس)، كما يسمّونه في عين الغار، حين قلب درّاجته ذات الثلاثة دواليب وحشر في فمه رغيفاً كاملاً من الخبز، فيه من العجين أكثر مما فيه من الخبز المشوي، حتى كاد بائع الخبز يختنق. فالجميع يعلمون أن ثلاثة أرباع الأكياس التي يشترونها من بوكياس مسروقة. وفوق هذا كلّه يبيعهم الخبز (المعجّن) ويسكتون عنه. ولو لم يكن خبزاً، لصلّوا من أجل أن يحشره بوجلال في غير مكان. لكنه الخبز – النعمة. وكان الصغار والكبار في عين الغار حين يجدون قطعة منه ملقاة على الأرض، ينفضون عنها التراب، وينفخون عنها الغبار، ويُقبّلونها، ويضعونها على صخرة أو جدار أو جذع شجرة، راجين من واهب النعمة العذر والعفو. وسرعان ما تأتي دجاجة أو تحط حمامة أو يهوي عصفور دوري. وتُلتَقط قطعة الخبز نحو ديدانٍ لم يُصلِّ من أجل موتها أحد في الدور.

-344-

وابتسم جمعة أخو عيون القط، مؤرجحاً رأسه بأسى، مؤكّدا أنّه كان عند النبع، ساعة وقوع الواقعة، وأنّ طالب البكالوريا صافي بن بارود لم يظلمه بوجلال، حين جرّده من ثيابه وعلّقة عارياً ومقلوباً، حاشراً قدميه في زاوية ضيّقة بين غصنين على شجرة غار. فقد كان شاهَدَه يستدرج ولده الصغير نضال، ابن الصف الثالث، إلى النبع.. شيء ما، كان أوحى للرجل بخطر يتهدد صغيره. وكان، تناهت إلى سمعه أحاديث عن رجلٍ ينتظر الصغار هناك.

وافقه الرجال المتكئون على جذوع الصنوبرات الثلاث، أمام باب اليابوس الحلاّق المنفتح على الساحة. وجاءهم صوت من مقهى (برهو):

– يا جماعة فوتوا عَ القهوة، أحسن من الوقفة بالشارع!

-345-

وترحّموا على بوجلال، وتمنّوا، في سرّهم، لو فعلوا بابن بارود أشدّ مما فعل بوجلال. ولم يكن قد تغيّر فيه شيء نحو أن يحبّوه. فمنذ عودته من موسكو، صار يأتي إلى عين الغار للتباهي برتبة الملازم الأوّل التي علّقها على كتفيه المموهين. وكان الجميع يعلمون أنّ حامل الكتّافيتين الجديدتين كان عشق منى بنت علي هناك– وهذه الـ(هناك) التصقت باسم أبيها، من كثرة ما كان يكرر كلمة هناك– عشقها في مراهقته، وانصرف عنها إلى غيرها، لكنّ عشقه أقام في قلب البُنيّة، ولم ينصرف عن قلبها البائس مع سفر المعشوق إلى روسيا، وعودته ضابطاً للإقامة في الشام.. ويعلمون أنّ الأخير لم يطل به الوقت حتى تزوّج من امرأة شامية ليتباهى بها في (عين

الغار). لكن الحديث عن جمال ولديها، الأسمر منهما والأشقر، سبقه إلى الضيعة وقطع الطريق عليه. فرجع إلى منى، وقبِلت به على أمل أن تنتقم لحبّها منه.

-346-

وكانت منى قد استمالت عامل البرقيات علّوشي راس التيس، كما ينعتونه في عين الغار لعناد فيه يصعب كسره. استمالته ليس حباً به إنّما نكاية بصافي الغدّار الذي أحبّته مذ كانت في الصف التاسع وانتظرت عودته من بلاد الثلج. وجاءها خبر من العاصمة الحمراء عن حبيبها يقول إنّه تزوج من معلّمة اللغة الروسية التي تكبره بعشر سنوات. لكنّ ناقل الخبر طمأنها إلى أنّ صافي لن يتمكن من جلب العروس معه، لأنّهم في هذه الحالة سيطردونه من الجيش. وعاد صافي، ورجا أخاه أسمر التضحية في سبيله. رجاه قبول تسجيل المرأة على اسمه بشرط أن لا يقربها، فهي ستكون زوجته على الورق فقط. لكن الأخ رفض. خاصّة وأن صافي طلب منه أن يتظاهر أمام الجميع في عين الغار بأنّها زوجته فعلاً، وبأن الأطفال الذين سيولدون أطفاله هو. بصق الصغير في وجه أخيه الأكبر، ولجأ إلى أبيه. فنظر الأب في المسألة وفكّر بأن يعرض على ابنه البكر صفقة، لكنّ أصوات تحطّم الصحون استوقفته. كسّرت امرأته دزينة صحون، كان جاء بها ابنها من موسكو، وحدجت زوجها بعينين دائريتين ممتلئتين غضباً، بانتظار أن ينهال عليها بعصاه، كما يفعل عادة. لكنّه هذه المرّة لم يفعل. فقد شعر بأن الفكرة التي خطرت بباله تستحق غضب المرأة. وحين جاء خبر المرأة الشامية، هزّ بارود رأسه وعوج حنكه، وقال " صحيح إنّك ابن شرموطة!"، وغافل زوجته بعصا أقعدتها شهراً ويومين.

-347-

وعاد صافي إلى منى بعدما كان علّوشي راس التيس قد وقع في حبّها، وبعدما أحبته في غفلة من قلبها الراغب في الانتقام. كان علّوشي يكره صافي كرهاً لا يقل عن كرهه لجلال الوحش. قالت البنت لعلّوشي بأنّها ستتزوج من صافي، ولكنها ستريه نجوم الظهر، ولن تسمح له بأن يلمسها. وبكى علّوشي ثم ضحك، حين أوحت له بفكرة برقية يرسلها للعريس، قبلما يكون قد صحا من سكرته إليها، برقية تأمره بالعودة ليلة (دخلته) إلى ثكنته في الشام.

– فكِّرْ ببرقية! قالت له، وضمّت رأسه الباكي، وقبّلته في جبينه، ثم انصرفت عنه.

-348-

وفي عرس صافي بن بارود، كما سترون، جلس علّوشي راس التيس، في صف الكراسي الرابع بين كرسيي أبويه. لم يكن لأبويه الفقيرين أن يحظيا بمكان متقدم على ذلك. جلس قليلاً،

ثم نهض. صعب على علوشي رؤية يد حبيبته بين أصابع يد غريمه، اليد التي تمنّى لو ينقضّ عليها بأسنانه، فلا يبقي منها إلا عظيماتها الرفيعة. صعب على علّوشي الاستقرار في مكان، وهو يرى حبيبته تزف إلى واحد آخر، وليس أي آخر، إنّما واحد لا يطيقه. تمنّى علّوشي لو أن رصاصة طائشة تأتي في رأس العريس. تمنى لو تفلت بندقية الكلاشنيكوف من يد النمر وتطلق رشقة صوب صافي بن بارود من تلقاء نفسها، فتقطع أنفه الأحمر قبل أن تقتله. لكن علّوشي لم يكن يؤمن بأن يحالفه الحظ إلى هذه الدرجة. فالحظ طالما جانبَ أهلَه، وأبقاهم على حافة العوز. خشي علّوشي أن تفلت بندقية النمر، نكايةً بأمنيته، وتطلق النار فتردي حبيبته أو ترديه هو بدلاً من أن تردي ابن بارود. فراح يسحب رجاءه إلى الله، محاولاً إقناع الجلالة بأنّه لم يكن يقصد ذلك، مؤكّداً لها أنّه لا يعني جميع الأشياء التي تخطر بباله، وأنّها يجب أن تنتقي ما يناسب علّوشي منها. وخاف علّوشي من هاجس أن تُقتل حبيبته أو يقتل هو في العرس.

-349-

وكان إلى حين عرس ابن بارود، قُتل طفلان ورجل غريب ومراهقان ورجل ثان من عين الغار وعروس من هذه الديار، في خمسة أعراس. الطفلان قتلا على يد خالهما العائد من العرس. جاء الرجل سكراناً يغنّي بعد منتصف الليل. وعلى صوت غنائه، استيقظ الصغيران، وخرجا من غرفة نومهما إلى حضن الأم التي جالست أخاها. نهض الخال، ورفع أوّل حبيبيه، رفعه من رأسه كما لم يفعل من قبل، وراح يراقص رأس الصغير، فاتلاً إياه بيديه العملاقتين فيما الجسد الصغير مدلى في الهواء، وأعاد الصغير إلى الأرض. لكن الصغير لم ينهض ولم تبدر عنه أية حركة. صاحت الأم مرتاعة، وراحت تتفجع متسائلة عمّا فعله أخوها بصغيرها. أكد لها الأخ السكران أنّه لم يفعل شيئاً، ورفع طفلها الثاني ليريها أنّه بريء من صمت الصغير. أراها ذلك حقاً واستحال الثاني بين يديه خرقة. وفي الصباح دفن الصغيران.

-350-

وأمّا أحد الثلاثة الرجال فقتل، في غير عرس، على يد راقص مغوار مفتول الزند. كان الراقصون يمسكون بمنديل مفتول حول حصاة صغيرة تُربط في وسطه، يحركونه أثناء الرقص كعصا المايسترو مع ضربات الطبل. لكنّ ذلك ما كان يفعله الراقصون العاديون وليس المغوار ابن عيسي. فبدلا من المنديل، رفع ابن عيسي الكلاشنيكوف بيمناه، وراح يطلق الرصاص في حركة دائرية مع ضربات الطبل، خابطاً الأرض بقدميه في دبكة رجراجة لعلاعة. وراء ظهره، سقط رجل.

-351-

وفي عرس شابٍ، شفاه الله من شلل نصفي، من كثرة ما بكت حبيبته عليه، تعلّق مجموعة من المراهقين بحديد نافذة، تطل على مائدة أُعدّت لسكر أقرباء العروسين، قبل الخروج إلى ساحة الرقص. كان هناك مجموعة من الصبايا والشباب يرفعون الأنخاب منتشين، لاهين، مخمورين بالعرق والرغبة والحلم. ورفعت إحداهن نخب شاب تحوّل قلبه، كرمى لعينيها، إلى قدمين راقصتين، فأخرج العاشق مسدسه، ودون أن يلتفت إلى الخلف صوّبه نحو نافذة بحث ظهره العرقان عن نسمة ريح تأتيه منها، وأطلق عدّة رصاصات، استجابةً للنخب، فخرّ مراهقان دون ثديين بارزين كان من شأنهما أن يستحضراهما في أحلامهما السرية. هناك، لا يمارسون العادة السرّية! قال الشيخ عاكف، حين مازحه علي جاد الصغير، في تأبينهما.

-352-

وفي غير عرس، سقط في باحة المدرسة، رجل بين فخذي امرأته. ورأى الناس في حماية رأسُه للجنين معجزة. وبدلاً من التأسّف على شبابه والحديث عن موته، راحوا يتحدّثون عن حكمة الخالق، سبحانه وتعالى. كان الرجل قد جلس على الأرض بين فخذي زوجته وأسند رأسه إلى بطنها وراح يصفّق لخبط أقدام ترفع الغبار أمام عينيه الفرحتين. كان الرجل أسند رأسه إلى جنين أكثر من التقلّب مع الدبكة، في بطن المرأة التي لم تكن تلفت نظر أحد قبل أن تنتفخ شفتاها ويمتلئ ثدياها ويطلّ بريق مبهم من عينيها الغائرتين. وجاءت الرصاصة في رأس الرجل. لم ينتبه أحد إلى الأمر، كما لم تدرك المرأة ما جرى إلا حين دبت لُزوجة ساخنة على يدها التي كانت إلى تلك اللحظة تداعب العنق النابض بالفرح.

-353-

وأمّا العروس فماتت بغير نار. وكان زوجها رفيقاً للمعلّم في الطباشير. لحظتذاك، قفز ابن كرمو في عتمته وصاح، غافلاً عن أنّه من تحت نافذة غريبة يصيح.

- نار.. نار! احترقت العروس!

-354-

فتاةً قتلها الخجل وأشعلت جسدها العفّة، كانت العروس التي اندلعت فيها النار. وكان هزيع الليلُ صبّ كؤوس الراح في البطون ونهض وسطُهُ بالمنتشين والمخمورين، فراحوا يهزعون نحو

ساحة الرقص، تاركين آخره لنارٍ قُدّت من جسدين، يشوى فيها صلصال الحياة حين يكون زلالاً لا يزال. وخجلت الفتاة من فكرة العري فلجأت إلى حيث الجميع يتعرّون في حضرة الماء. دخلت إلى هناك في ثوبها الفضفاض، وراح ينتظرها على السرير في وضعية ابتهال إلى الله ليبارك لحظة الوصل الأولى إيذانا باندغام خصيب يمتد ما امتدّ العمر. وجاءته صرخة من هناك قطعت عليه الصلاة. واندفع إليها فرأى النار تلتهم ثوبها.

كان برميل من الماء وضع على غاز في الحمّام وترك يغلي ليكفي دفؤه جسدي العروسين. وكانت النار المشتعلة أسفل البرميل مدّت ألسنتها لتتفرج على فستان العروس. دخل العريس فرأى النار، ولم يكن قد صحا من ابتهاله بعد، واندفعت يداه نحو الألسنة التي راحت تقرأ النسيج من أسفله إلى أعلاه. راحت الأصابع يلتصق عليها النسيج اللاهب المنصهر.. فاستصرخت غريزته الماء! لكن اليدين لم تكونا تعرفان إلا لغة الحبر والطباشير.

كان المعلّم الشاب الوحيد على ست بنات، أشبه بنبتة نمت في الظل. اندفعت يداه إلى علبةٍ، وغرفتا الماء المتراقص فوق النار، ودلقتاه على جسد العروس، مرة وثانية وثالثة، في هياج.. وبعدها، هل أنتم بحاجة لمعرفة ما حصل بعدها؟ بعدها راح الأطباء يقرأون فسيفساء الجسد المشوي، يرفعون صفحة هنا ويلصقون صفحة هناك، ثم أغلقوا الكتاب وأرسلوه إلى عين الغار، وهناك قُدّ من أجل حفظه إلى يوم الدين، مخبأً في قلب صخرة بيضاء لم تعاند فؤوس الحفّارين.

-355-

ولأمر غريب في سواد البشر، لم يهجر المعلّم المسكين الصلاة التي قطعها احتراق جسد رفعت من أجله، بل أوغل فيها. الشيء الذي هجره المعلّم الشاب هو الماء الساخن. راح منذ ذلك اليوم يستحم بالماء البارد صيفاً شتاءً، وبعد حين لم يَطُل، هجر السبّورة السوداء إلى عمامة بيضاء.

-356-

ووقف راجي وناهلة فوق سرير العروس في المشفى، راسمين على وجهيهما ابتسامة تشجيع. لم يكن وجهها قد لامسته النار، وكان جسدها مغطى بشرشف زهري رقيق، جاءت به أمّها عن سريرٍ كان بانتظار ماء الحياة.

-357-

وكان ابن بارود، ساعة جاء راجي بشرشف آخر متوخّياً في زرقته انطفاء النار، كان يلهث على سرير اللغة في بلاد الثلج، ناشراً بذاءة لم تفهم منها معلّمته شيئاً، في فضاء الغرفة الصغير

الواطئة السقف، في بناء خروشوفي بائس من طوابق أربع، زُرعَ منه كثيرٌ مع الذُرة الصفراء، كرمى لأحياء لم تقتلهم الحرب بعد. وكان كثير من أبناء القوزاق قد أتى عليهم الجوع.

-358-

تمنّى علوشي لو يشتم غريمه ابن بارود، تمنى لو ينشئ برقية على غرار رسالة القوزاق الزبروجيين إلى السلطان العثماني، تمنّى لو يسخر من النجمتين على كتفي ابن بارود، لو يكرر في البرقية التي سيرسلها باسم قائد وحدته إليه، الألقاب التي يطلقونها عليه في عين الغار (طيز السعدان)،(أبو بريص)،(أحمر دنبه)، (المنفاخ)،(أبو صفّيرة)، (الطبل المبخوش)،(الفتّيشة)..تمنّى لو يصف في برقيته البثرات الحمراء التي رآها على مؤخرة ابن بارود ذات مرّة عند نبع كور بينار.

كان علّوشي هناك يغسل وجهه وعنقه وتحت إبطيه بالماء البارد، فجاء ابن بارود وتعرّى أمامه بحجة أنّه سيغتسل بماء النبع. تمنّى علّوشي في تلك اللحظة لو يملك قضيباً أسود كبيراً كغرمول الحمار، يسوط به ابن بارود على وجهه. خيّل لعلّوشي أنّ اللون الأسود كان سينطبع على الوجه المجلود بالغرمول. كان لدى علّوشي قضيب قصير ثخين، تحوّل ذات مرّة إلى ما يشبه الكرة حين وضع عليه عصارة الجيجان الأبيض. لم يصبح أكبر كما وعده ذلك العابر الغريب الساخر إلى الوادي ومنه إلى مكان ما وراء الجبل، بل صار أشبه بكرة مضرب ولكن حمراء مزرقّة. وتذكّر علّوشي قول المعلّم " العِبرة في الكبر"! وكان فهم القول على طريقته.

-359-

وكتب علّوشي برقية عاجلة:" على الملازم أوّل صافي طيزو- ارتكب علّوشي خطأ مقصودا، مستبدلا بحرف الراء حرف الزاي- الالتحاق بوحدته قبل الساعة 22:00 من يوم غد"، وأضاف علّوشي التاريخ. لم يكن علّوشي قد اتفق مع منى على الخطوة التالية. راح علّوشي يحلم بدخول بيت العروس في الليل الذي سيمضيه العريس عائداً من الشام، بعد أن يتفاجؤوا هناك بعودته، ويسخروا منه، ويشيروا بالسؤال إلى رجولته:

- انهزمت قدّام غشاء يا بطل، وغيرك اقتحم خط بارليف!

-360-

لكنّ العروس ما إن سمعت خربشة تحت شجيرات الرمّان الملاصقة للنافذة ونقراً مكرراً، بحصاةٍ، على الجدار، حتى رأت في مصدر الصوت علّوشي، ولعنته، وكفّت عن الرد على تحيّته بعد ذلك الليل.

-361-

لم تكن منى ابنة علي هناك قد هجر قلبها حبها لابن بارود. وكل ما كانت تفكّر فيه تلقينه درساً، مع فرحتها بعودته إليها، عودةً تعيد إليها الاعتبار في عين الغار. وكانت تتمنى لو يشيرون هنا إلى رجولته التي أهانتها ثلاثاً، هنا وفي موسكو وفي الشام. فذلك سيوجعه أكثر من أي شيء آخر، وسيعيد إلى رأسه العقل الذي طار ما بقي منه حين حطت على كتفه نجمتان.

وأمّا هنا، فستعرف كيف ستتهرّب من الإجابات، وتتظاهر بالخجل وبعدم جواز الكلام عن ذلك الشيء الحميمي، إذا سألوها عن تمام الأمر.. وستقول لأمّها ولحماتها، حيّيةً:" كلّ شيء سيكون بخير، إن شاء الله"، وسيكتسب ابن بارود لقبا جديدا (أبو خرقة)، وسيرحل بلقبه إلى تجمّع من بيوت مسبقة الصنع تتبادل فيها النساء الضَجَرَ من ساعات الصباح الأولى، فيما ينصرف الرجال إلى الغبار.

ولم تكن تلك المرّة الأولى التي يرتجل فيها علّوشي برقية، فقد سبق أن أرسل واحدة يوم مقتل بوجلال.

-362-

وكان الرجال المتباحثون في أمر القتيل تدافعوا إلى مقهى (برهو). وإلى هناك، دخل عيون القط، ممسكاً بسرج سرواله وراح يدور بين الكراسي، وهو يصيح:

– بجيرة الله، بجيرة الله، نار حمرا، يا جماعة، نار حمرا!! الله يلعن الفليفلة وأوّل من زرعها! تبيّن أن امرأته لم تكن، هذه المرّة، قد غسلت يديها جيّداً بعد تقطيعها الفلفل الحار، حين راح يحاصرها، تاركاً لها طريقاً واحداً ينتهي بها إلى الفراش. كانت سبّحات الفلفل الأحمر المجفف تزّين دار عيون القط. وكان الرجل وامرأته يتباهيان باللهيب الذي يسكن جوفيهما بعد تناوله. وكان ذلك مصدر فخرهما. فأحداً في عين الغار، لا يقدر على ما يقدران عليه. داعبته بيديها، ففر منها إلى المقهى، بعد أن عضّها انتقاماً منها في ذلك المكان. كان عيون القط قد خرج إلى امرأته من مقهى كرمو المهجور.

-363-

كان كرمو قد هجر المقهى الصغير إلى الشِعر. فحوّل ابنه العسكري المقاتل في لبنان المقهى المهجور إلى غرفة خاصّة له، يضع فيها أشياء مهرّبة من لبنان، ويرّوج لها ويبيعها في الغرفة ذاتها. ترك المقاتل الكراسي والطاولات الثلاث كما هجرها أبوه الشاعر. كل ما فعله

المقاتل، أنّه أضاف إلى التلفاز واحداً من أجهزة عرض الأفلام التي كان يهرّبها من لبنان. وضع جهاز (الفيديو) على رفٍ تحت التلفاز، كانت ترقد عليه، فيما مضى، علب أوراق اللعب. ووضع في درج الطاولة أشرطة لأفلام جنس من أجل ضيوفه الخاصين. إلى هناك كان يُدعى عيون القط، فردود أفعاله على ما يراه كانت تضفي متعةً على متعةِ متابعة ما يدور على الشاشة. وهناك كانوا يختبرون ما إذا كانت عينه قادرة على التأثير في انتصاب الأبطال.

– جرّب نوّمه إذا كنت قبضاي! يقولون مشيرين نحو ذكر على وشك الولوج، فيجيبهم ضاحكاً:

– العمى بعينيه ما أكبره، لو كان يقطينة كان يشبع خمس عائلات!

– قُل العمى بعينه! ما عنده غير عين وحدة يا فهيم!

كان عرض الأشرطة طريقةً خاصّةً جاء بها المقاتل لحسم تردد المترددين في شراء أجهزة العرض.

-364-

وفي واحدة من جولات الفجر، وكان صَعُب على السمّار النهوض عن ثالث فيلم، رأى المعلّم من شقٍّ في النافذة، لم يجهد المقاتل في إغلاقه، رأى ما يدور هناك، ورأى خمسةً من تلاميذه الذين هجروا المدرسة بانتظار أن يوضع السلاح بين أيديهم. رأى المعلّم من الشق ثلاثةَ رجالٍ يعالجون امرأة على الشاشة. بصق حين رآهم، ولكنّه حين تذكر ما رآه غير مرّة، أثارته الذكرى. للحظات فكّر المعلّم بدورية تغلق محلّ (كرمو) ثم حسم أمره:

– المشكلة ليست في كرمو!

-365-

وحين دخل الرجال، رجاهم برهو أن لا يشغلو طاولة الشعراء لأن ذلك سيغضبهم. كان في عين الغار، إضافة للشاعر كرمو، شاعرٌ لم يهجر بيع الدجاج إلى الشعر كلّيا، وشاعر ثالث لا يترك قصبة صيد السمك من يده في المقهى. كان يأتي إلى المقهى من البحر، ويخرج من المقهى إلى البحر. وكان بوفيصل رابع الشعراء، قبل أن يترك الضيعة إلى غرفة في بستانه الذي يشبه البئر لضيقه وارتفاع جدران السفوح من حوله وكثرة الدغل على تخومه.

-366-

وكان المعلّم خرج، ذات يوم، من بستان جاره بو فيصل إلى جبل الصنوبر، ولم تكن قد جُرفت زيتونة (التلفزيون) التي تنزّل عليها لاحقا اسم(أم شاشة). كان طردان خرجا من غصن

أفقي، يعلوه غصن آخر موازٍ له، على مسافة قرابة أربعين سنتمتراً منه. كان المعلّم يعلم أنّ هذين الطردين الخارجين من برعمين جانبيين إلى أعلى يستنفذان غذاء الغصن ولن يثمرا قبل أن يجتازا عتمة الجوف إلى الضوء، وقبل ذلك سيزيدان العتمة عتمة، ومع ذلك لم يقطعهما بشفرة المقص الحادة التي تأتي على أمثالهما في العادة. رأى المعلّم أنّهما سيصنعان مع الغصنين الأفقيين مربّعاً، فأعجبه أن يكون بين خطوط الشجرة المنحنية مربع مستقيم الأضلاع.

-367-

وجاء علي جاد الصغير، وأطلّ برأسه من المربّع، وراح يلقي بنشرة الأخبار، ثم بخبر عاجل:

– أيّها الأخوة المواطنون! أمرْنا لكم بموسم وفير من الزيت والزيتون، وأمرْنا.. عفواً أوعزنا.. عفواً رجونا المشايخ أن يصلّوا من أجل المطر، لكي ينمو الزعتر الخليلي والزعتر الجبلي والسمسم والسمّاق والحنطة والحمّص! وأدركت ابنة مريم أن ابنها يعدد المواد التي تدخل في صناعة الزعتر، وفاجأها أنّه يعرفها جميعاً، وكان فاتها في تلك اللحظة أنّه يساعدها في تحميص هذه المكوّنات!

– والبطم وبزر الجبس والكمّون والشمرة...وأن ينزل المطر من أجل الأقماح في آذار شهر الثورة المبارك، فإنْ أقبلت فآذار من ورائها وإن أمحلت فآذار من ورائها.. كما أننا، أيها الأخوة المواطنون، أمرنا المعلّمين بعدم تلويث أوراق الدفاتر بالحبر السام لأن التلاميذ يلفّون بها قضوضات أو عضوضات أو عروسات الزعتر، سمّوها كيفما تشاؤون، وأمرنا أخواتنا الأمهات بعدم الإكثار من الزيت لأنّه يزرب من القضوضة، ولأنّهن بذلك يبددن الثروة الوطنية، ولأننا لا نحب شكل المريلات الملوّثة بالزيت في الاحتفالات المنقولة على شاشات التلفاز. انتهى الخبر العاجل. والآن أعزائي المشاهدين إلى أخبار عين الغار الليلية: في مقهى كرمو تعرض، في الليل، أفلام ثورية جداً ستقلب مفاهيم المجتمع عمّا قريب. مقهى كرمو مركز إشعاع ثقافي، مع كل فيديو مهرّب من لبنان شريط لو رأت الزيتونة ما فيه لسقط كل ما عليها من أوراق وحَب.

ويضحك المعلّم وينظر إلى عيني ابنه نظرة متسائلة، فيعود علي جاد إلى خبر عاجل آخر:

– جاءنا الآن ما يلي، يمنع بث كل ما لا توافق عليه الرقابة، نعتذر عن خبر الأفلام، فليس كل مسكوت عنه نشره مسموح! ويخرج المذيع من الشاشة إلى المعلّم وابنة مريم، ويقدّم فقرة راقصة تحت الزيتونة التي لم يكن قد بقي فيها كثير من الحَب في ذلك اليوم، وكانت ملآنة بالحُب يوم تراقصت جذورها في الهواء مستغيثة بالتراب.

-368-

وفي مقهى برهو، اسفوا على موت بو جلال، بعدما كفّوا عن نعته بالوحش. فأمّا ابنته التي حبسها في الزريبة فهو حرّ في أن يعاقبها كما يشاء، فهي ابنته وليست ابنة الآخرين. ولا يعاب عليه أن يعاقبها بالطريقة التي يراها مناسبة. ولم يعجب الشيخ الشاب الأسود العينين الفصل الأخير من الحديث لكنّه لم يقاطع القائل. ومثلها امرأته، ومع إنّها، والله ابنة حلال، إلاّ أنّ طريقة تعامله معها ومع ابنتها شأن عائلي، لا علاقة لأحد به. يضربها، يحبسها.. لا دخل لأحد بالأمر، وصرخ الشيخ عاكف:

– النساء أمهاتنا وأخواتنا، يا بَشر، وما هنّ من البهائم!

– كان الله بعونك يا أمّ جلال!

– رحمك الله يا بوجلال.

وكان المعلّم في دار القتيل يجالس تلميذه نضال. وكان الأخير تتجنب عيناه الالتقاء بعيني معلّمه.

-369-

كان قد مضى أقلّ من ثلاثة أعوام على مغادرة عاكف حلقة رفاقه الجامعيين، وكانوا يفكّرون بتأليف حزب. اشتغلوا طويلاً على فكرة جديدة يجمعون الناس حولها، وعلى اسم مناسب، وعلى خطاب يجتمع الناس عليه.. ولما صعب عليهم الاتفاق، أمضى عاكف ليله متقلّباً في فراشه. وفي الصباح، أعلن عن فكرة كثيراً ما راودته، خاصّة في صلوات الأعياد وفي محافل التعازي:

– هناك طريقة أنفع وطريق أقصر للتأثير في الناس! جرّبوا أنتم وأنا من جهتي أجرّب!

-370-

وكان تنزّل، ذات يوم، اسم (الضحك) على إحدى الزيتونات. كانت هذه الزيتونة بيت ضحك عائلة المعلّم. كان المتعب منهم، الفاقد رغبته في متابعة العمل، يتجه إلى تلك الزيتونة، يعانق جذعها المعوج ويبدأ الضحك. ولسبب يصعب فهمه، كان الضحك يطاوع الجميع هناك. ومن هناك، كان يدب ضحك الممسك بها إلى الباقين، ثم إلى البساتين المجاورة.. وترتفع الضحكات في دائرة تتسع حتى عتبات المزارات، وتضحك الجبال. وبكت ابنة مريم حين حكى لها المعلّم محاولة زيتونة الضحك البقاء على قيد الحياة، وكيف امتد فرعان منها كمثل يدين تبتهلان إلى السماء. ثم ابتسمت ونظرت إلى أعلى:

– " واذكر عبدنا أيّوب.."! ذكرناه يا مولانا، ذكرناه! وكان الجند تنادوا للضحك، حين رأوا جذور الزيتونة تمسّك بأنياب الجرّافة رافضة النزول إلى النار!

-371-

وكانت ابنة مريم تجيد رسم الصحة والفرح على وجهها، إلاّ إذا غافَلْتَها حين تكون وحيدة، ونظرتَ إلى عينيها دون أن تراك. ومع ذلك، فقد كانت تعقد على مائدة المعلّم حلقة ضحك بعيد الغداء أو العشاء. لم تكن فكرة القيلولة واردة في تلك الأيام. فتدبر النوم في الليل ممكن وأمّا للقيلولة فلا مكان. كانت ابنة مريم تجمع أربع عشرة عيناً على الضحك، على الرغم من إصرار المعلّم على أنّ الضحك على بطن ملآنة مؤذ ويؤدي إلى عسر هضم. الضحك، بعد الطعام، وأحيانا قُبيله، لأنّها ساعة اجتماع العائلة المنتظمة. كان الاستعداد للطعام يتم بجدّية بالغة. فالقلّة تستدعي الجدّية. تستدعيها حتى عتبة معيّنة، يأتي بعدها العبث والكفر. وكان الطعام لا يُفتتح إلا بعد بسملة تضبطها عينا المعلم الجامدتان على شفاه أولاده. ولا يسمح بكلام أو ضحك إلاّ بعد حمدلة تؤذن بانتهاء الطقس.

كانت تلك قواعد البيت. أمّا في بساتين الزيتون، آنَ الجني، فكان الغناء الساخر المرتجلُ الكلماتِ ينجبل مع التراب والطعام ويصعد إلى السماء. المعلّم تحت الزيتون، غير المعلّم تحت سقف من الطين، وغيره تحت الإسمنت. وابنة مريم تضاحك أولادَها، وتبكي في كل مكان بعيدٍ عن الناس.

-372-

– قُمْ وقف، الله يوفّقك!

ترجو ابنة مريم المعلّمَ فيستجب لها، مدركاً أنّها ستؤدي مشهداً تمثيلياً. وفيما الأولاد يحتلون الأماكن التي يرون من خلالها الخشبة جيّداً، يصعدون إلى الخوان، سرير ابنة مريم السنديان، وإلى الطاولة، ويتعلّقون بحديد النافذة، في الغرفة الشمالية التي يصعب على الجيران رؤية ما يدور فيها، أو يتسلّقون أغصان شجرة الزيتون التي تدور الأحداث تحتها، في عمق البستان، تقوم ابنة مريم بزمّ عينيها ورفع خدّيها وتكوير شفتيها ودفع صدرها إلى أعلى نحو عيني المعلّم، الواقف يصغي إلى رجاء عزيزة، المرأة التي جاءته بطلب مُعلَن وآخر مُضمَر، تظاهر بعدم فهمه، لكن بريقاً في عينيه وشى برغبته الخجولة في تلبيته قبل أن يفضحه لعابه:

– الله يخلّ لك شبابك، بالله أنت يا معلّمنا رجل فهمان وكيّس، لا تِزْعلي منّي ياخيتي! بالله، المعلّم محبوب ونفسه سهلة..

– قصدها خضرة!! يصيح الأولاد من أماكنهم بصوت واحد، كمثل جوقة تدرّبت على الأداء، فيقذفهم المعلّم بشيء مما في يده، وينهرهم ضاحكاً:

– الله يلعن إبليسكم، مثل أمّكم! يتيح تدخّل الأولاد لابنة مريم ضبط أنفاسها والتفكير بتعديلات على أدائها، فتتابع بصوت المرأة الراجية:

– يا معلّمنا، هالصبي مثل أهل زوجي قليل الفهم وأسود، يا شحّاري، لكن البنت بيضا وجسمها حلو مثلي، وإن شاء الله، ب يصير صدرها مثل صدري مكنوز وحلماته كبيرة– يخزي العين! صاح الأولاد– وبلا طول سيرة، يا معلّمنا، لا تبخل علينا بنظرة!! الله يديم لك شبابك، لو تحن وتمر خمس دقائق وتلقي نظرة! وهنا تدفع الممثلة بيمناها ثدييها أقرب إلى عيني المعلّم، فيما يسراها لا تزال هناك إلى حيث تتحول عيناها بحركة ملتبسة بين خجل السائل وحياء المرأة والإيحاء– من الفجر، أنا وحدي بالبيت وزوجي بالبحر، وبيتنا منعزل، لا جار ولا قريب..

– تفوو، الله يلعن شيطانك!! يحمرّ وجه المعلّم خجلاً، ويستدير، مخفياً ارتباكه عن عيون أولاده. ويقفز الأولاد من أماكنهم ويبدؤون رقصاً ساخراً، كأنهم في حفل زفاف المعلّم على المرأة. وتأخذ ابنة مريم نفساً عميقاً، بعد عناء المشهد، وتشير إليهم كي لا يثقلوا على أبيهم بسخريتهم. ثم تقذفه، مداعبة، بحبات زيتون أو بمنديلها الذي خلعته مع بدء المشهد، وتخطو إليه مصحوبة برقص الأولاد وغنائهم " جينا وجينا، وجينا.. جبنا العروس وجينا.."

– لا تزعل! تقول له، فيبتسم مسامحاً، ثم يدفعها عنه حين تقول:

– أي والله، يدك فيها للباط!

–373–

وكان أولاد المعلّم حين يرون عزيزة، المرأة التي لاحظوا أن المعلّم تفرحه رؤيتها، وكثيراً ما ينتظر مرورها، يسرعون لمناداة أبيهم قبل أن تغادر فسحة الشارع المكشوفة على بيتهم:

– أبي..أبي، عجّل! ويضحكون ويفرّون من طريقه، كلٌّ إلى مكان، خاصّة حين ينادونه إلى فراغ. وكثيراً ما كانوا يفعلون حين يلاحظون روح المداعبة حاضرة في عينيه. وكان يجاريهم على طريقته، متظاهراً بأن الأمر لا يعنيه:

– نقمة الشيطان عليكم، ملاعين! ويسرع إلى الشرفة أو إلى بسطة السلّم، ممسّداً شعره براحتي يديه، رافعاً شعر حاجبيه بوسطي اليمنى واليسرى. وتبدي ابنة مريم زعلها:

– قلت لك ألف مرّة لا تطلع بالبيجاما، المرأة متزيّنة وأنت بالبيجاما! وكانت تزعل حقاً حين ترى أن لباسه لا يليق بطلّته أمام امرأة يستلطفها.

–374–

كانت ابنة مريم تحزن لترميم سترة المعلّم بالشحّار، ولكنّها لم تكن تخجل من ذلك. كان الشحّار بالنسبة لها دليلاً على نظافة يد المعلّم ونزاهته وعلى كبريائه. وكثيراً ما كانت تتذكر

باعتزاز، ذلك اليوم الذي أعلن لها فيه، وهما في أوّل حياتهما الزوجية وفي أشد الحاجة إلى المال، عن قراره ترك سلك الجمارك والانتقال إلى التعليم. يومها قال لها:

– خايف من الضعف قدّام المال، بالجمارك مستحيل الشغل بلا أكل مال حرام. فقر نظيف أحسن من غنى وسخ يا بنت الشيخ، المال بِ يروح والخجل بِ يبقى! وكانت عانقته وبكت في ذلك اليوم. ورفعت صورة الشاب في بزة الجمارك وفي (العَمرة) ذات الشعّار اللماع، وأودعتها أسفل خزانة الكتب إلى غير حين، وهناك أكل السمك الفضي الكتافيات والأزرار وشيئاً من العَمرة، ولكنه لم يمس ابتسامة الشاب الوسيم.

–375–

واحتارت ابنة مريم، بين أن تعلّق على ذلك الفرع الذي جاء به المعلّم من زيتونة (الضحك)، وجعله على الحائط، على شكل علامة استفهام مقلوبة، بزّة الجمارك التي لا تزال في خزانة البيت نظيفة مكويّة، وأن تأخذ البزّة وتضعها في المزار، فلعلّه يكون قد نسي ما أقدم عليه الفقير، ذات صباح.

–376–

وكانت أصوات الانفجارات في الجبل قد عادت تقلق ابنة مريم. وكانت تشعر أنّهم إنّما يفجّرون الصخر نكاية بالمعلّم وبها. راحت تبكي جذور الزيتون النحيلة التي ينسفها البارود. كانت تظنّ ذلك كلّه يحدث من أجل أن لا يبقى نسغ أخضر في أبيض التراب. لم يكن أحدٌ قد فجّر الصخور قبل ذلك المغيب الذي غارت فيه الشمس خلف قطيع من بقر وحشي ربطت بأذياله مزق من أسمال، جفّت صلوات ملتحفيها وما انهمر الماء، وأُضرمت فيها النار، استسقاءً لفجرٍ قِيل له تعال بالماء أو لا تأت، فما عدنا نطيق هذي النار التي تلتهم يابس الصراخ في حلوقنا، ولسنا نقدر على ما في الصراخ من نار. فراح القطيع يتثاور قبلما يهوج، حوافره تضرب المائج فتنتزع منه سواد اليم المدلهم وتقذف به إلى السماء، وعضلات ظهوره وأعناقه تتوافز كأنّما هي كتل من غرانيت أزرق مخضرٍّ رمادي الطيف، تدفع به يد أوقيانوس العظيم، من ظلمة اللجة إلى فوانيس بيوت عين الغار التي بدأت تلوح خلف التلال، حيث الأهلون منكفئون، خلف جدران بيوتهم الطينية الهشة، متدرّعين ببخور ميرمية، يطرد صغار الشياطين، وبأشواك جربان، قرئت عليها الفاتحة من أجل أن تفقأ العيون، وعلّقت عليها قشور بيض خرجت منه عيونه إلى البطون، فيما أصاب الباحثين منهم عن لقمة في المالح العظيم خِبٌّ شديد.

-377-

قبل مجيئهم كان الغروب يجتذب الأهلين، فترى رجالهم قبلما يكون ثَور الشفق قد سقط، وقبلما ينشرون صلاة العشاء على صفحة اليم سوراً وآياتٍ، تراهم ينتظرون الطيور الآتية من جهة البحر لتحط على نواتئ الصخور، أو تعبر بياضها إلى سواد الدغل حيث ينتظرها الصيّادون. قبل مجيئهم، لم يكن أحد قد فجّر الصخور هنا. فلكل صخرة منها حكايتها وشخصيتها: الناضحةُ منها بقطر الجبال السلسبيل؛ والمكسوّة بالأشنيات، سجّادةً خضراء موشّاة بطيوف قوس قزح، حيث تغافل جدائلُ الشمس ظلالَ السنديان والغار العتيق؛ والناصعةُ منها، مسلمةً وجهها الأبيض للشمس دون خشية من اسمرار، تُطمئن الأحياء إلى ابيضاضٍ سيحيط بهم يوم تنطفئ السماء.

لم يكن أحد قد رأى معنىً لزحزحة حمائم الأرض العملاقة الراقدة على زلالٍ، دافئاً لايزال، غير معنى منازلة الألوهة في ملعبها. الجبال الراسيات، راحت تهتز، وراحت الوديان تردد صدى الانفجارات، وراح ماؤها يتخضرب، وغادر أواخر الزاهدين غِيرانهم إلى عتمات أخرى تمدّ أجنحتها، بين أخضر مِدهام وأزرق خضير، نحو السماء من أجل أن تتلطخ بالضوء. أم الضوء هو الذي كان يمدّ أصابعه إلى جسدها الخفي، خفيةً عن أضواء أخرى على السفوح الشرقية والقبلية والغربية!؟ الشمال متروك لـ(الخضر).

-378-

وكان المعلّم في خروجه الأوّل إلى المسافة الفاصلة بين الصخر والحديد، تناهى إليه صوت نباح. جاء النباح من باب المغارة، منذراً ثم متوعّداً ثم قاطعاً، على مسافة نهشة من العظم، وعلى مسافة ضغطة زناد من صوت رجل غريب أوعز إلى المعلِّمَ باسمِ آمره أن لا يدخل المغارة. تساءل المعلّم عن معنى منعه من دخول مغارة في أرضه تحفرها يداه، فأجابه الصوت الغريب بأنّهم يحتفظون فيها بالديناميت. فالأسلم لحياته أن لا يدخل المغارة، وأن يتوقف عن المجيء إلى هنا، فأرضه استملكت، وسيضعون فيها تجهيزات عسكرية لا يحق له الاطلاع عليها.

– مفهوم؟!– صاح العسكري– إلى الوراء دُرْ! وضحك عسكريان وقفا غير بعيد عن الحارس المسلّح.

-379-

عند البحر، كان معسكر الجند وما زال. لكنّ المعلّم لم يكن قد صدّق، بعد، أن شرفات الزيتون ستمنع عليه، ولم يعش حتى يدركه اليقين، ومع ذلك فقد عاش بين انفجار وانفجار

ونصلِ جرّافةٍ ونصل سكّين. عاد المعلّم يومها مستعيذاً بالله من شر نفسه وشرّ الدعاء. كانت تلك من المرّات القلائل التي ابتسم فيها لعجزه ولعجز الله فيه. كان موعد صلاته قد حان لكنّه بدلاً من أدائها رمى حجراً باتجاه قاع الوادي، وكسر فرعاً من أجمة ريحان، قضمه بأسنانه وابتسم وبصق. وشعر بالندم على أنّه لم يقبل، يوماً، بفكرة تربية كلب في داره. خطرت بباله صورة ذلك الكلب الذي شُدّت إلى بطنه عبوة ناسفة.

الكلاب لا تهاب الحديد. تُرهبه بأنيابها ونباحها وتدفعه بأجسادها حتى يبتعد عنها نافثاً دخان رعبه. أُخذتْ اللقطة قبلما ينفجر كلب في جسد دبابة. كان ذلك في أرض محروقة!! ابتسم المعلّم، مرّةً ثالثة. ودون أن يستغفر ربّه، أعرض عن الصلاة، وكان الدم يندفع إلى كتفيه ورأسه باحثاً عن مخرج. من حاجبيه الكثين، خرج في موضع هنا وموضع هناك، على هيئة فالقين متجهين نحو السماء، وناداه صدره أن اهدأ، لكنّ الصلاة لم تدانه.

-380-

وذات ظهيرة، كسل فيها الأهلون إلى الأفياء واجتنبوا الماء، وكان عسكري البرقيات علّوشي، في إجازةٍ من برقياته الساخنة والباردة، استلقى على أرجوحة مربوطة إلى جذع شجرة توت، كان زرعها جدّه نكاية بالجيران، وإذا بكلبته الصغيرة جاءت بكلب بارود. وكان علّوشي يضحك عادة أو يبتسم، إذا ما أقعده الكسل عن الضحك، عند رؤيته كلباً يتشمم مؤخرة كلبته. لكنّ علوشي غضب هذه المرّة، وشدّ الكلبة نحوه، متوعّداً كلب بارود بقطع ذكره لو قارب داره. وساط الكلبة على مؤخرتها بفرع توت طري، فنعصت ودارت حوله متألمة، ثم أقعت عند قدميه كأنّما هي تعتذر عن إساءتها إلى سمعته.

-381-

وخيّل إليه أنّ الأشياء تُبرمج في مكان ما في السماء، من أجله هو علّوشي الصغير القد الممطوط الأذنين. كان سمع من المعلّم عن الكلب الذي تفجّر في جسد دبّابة. وضحك علّوشي. ضحك للفكرة. ثم ضحك في الصباح، حين رأى كلبته تغادر إلى كلب بارود. ونادها علّوشي إليه ومسّد عنقها، وأثنى عليها، ثم حزم الديناميت إلى نهاية بطنها، جاعلاً الفتيل طويلا يكفي اشتعاله بلوغها ذلك الكلب المتغطرس كصاحبه. وأشعل علّوشي النار في الفتيل، وأطلق الكلبة نحو حبيبها، وراح ينتظر. غير أنّ الكلبة لم تغادر الدار، بل راحت تدور حول نفسها مادّة لسانها صوب رائحة غريبة راحت تنطلق من بين قائمتيها الخلفيتين. ولمّا عصي عليها فهم ما يدور، لجأت إلى صاحبها ترجوه تفسيراً لذلك النشيش وتلك الرائحة. وبدلاً من أن يخلّصها علّوشي من مصير وضعها فيه فينزع الفتيل، وكان لديه من الوقت ما يكفي لذلك، فرّ مبتعداً عنها، وتسلّق

شجرة التوت. وفي قمّتها أغمض عينيه بانتظار الانفجار. وبعد قليلٍ، صدر صوت اشتعال، واكبه نباح رهيب يقطع أنياط القلب. كان علّوشي قد نسي وضع كبسولة في إصبع الديناميت، فاشتعل البارود دون أن ينفجر. كم تألّمت المسكينة قبل أن تقضي. لم تغادر العاشقة الدار بعد تلك اللحظة. استلقت المسكينة على ظهرها، وراحت تنعص وتنظر دامعة العينين إلى عيني صاحبها علّوشي الباكيتين.

-382-

وفي العصر، جاء كلب بارود، وأقعى إلى جانب كلبة علّوشي الجريحة، وراح يصدر نباحاً عجيباً كأنّما هو يسألها سبب آلامها. ولم ينتبه علّوشي إلى وجوده قبل أن يصدر ذلك النباح، ثم لم ينتبه إلى يده كيف امتدت ومسّدت عنقه، وتركهما وغادر. وكان ذلك قبل العرس بيومين فرأى علّوشي في ذلك دليل شؤم. وغادر علّوشي إلى غرفة راجي، وبدا كأنّما راجي لم يعرفه.

-383-

هوب.. هوب! الرجال نائمون على أسطحة البيوت، والأولاد ضاقت عليهم الجدران، فراحوا يبحثون عن أسطحة أعلى من أسطحة آبائهم، يمضون عليها آناء الليل وأطراف النهار. وعاودت النساء زيارة المقام في جبل القتيل. حيث الحجارة المُلس لم تتدحرج من عامين ونيف على البطون، وحيث لم يزد عدد الحصيات المعلّقة على فروع السنديانة ذات البطن المنتفخة، بل فُقِد كثير منها، كأنّما حملته الريح. كانت النسوة كأنّما يخجلهن طلب الحَبَل في مقام الخضر، فتركن ذلك لمقام الغريب في جبل القتيل. ولكن ليس حالاً، خرجت النسوة مع رجالهن إلى هناك. فالوحش حي طالما لم تكتشف جثّته بعد.

-384-

ولم تفارق أم جلال أرض الدار. تحت شجرة التوت العتيقة، أمسكت بذراع الرحى وأدارتها مرددةً صراخَ العفاريت الذين راحت تطحنهم بين الحجرين. راحت تلمّهم من الهواء المحيط بها، وتلقي بهم في ثقب الرحى، وتديرها ويدور رأسها معها، وتخرج من فمها الكلمات مكسّرة والأصوات مجروشة. وكانت كلما دنا منها صغيرها نضال تنظر إليه بعينين ميتتين فيفهم أن عليه الانصراف والتواري عن نظر أمّه المنكوبة ثلاثاً. كان نضال يشعر بأن الأم تعرف حكاية قتلهما لأبيهما، ولا يسكتها عن البوح بذلك، ويجعلها تدور الرحى بها فترحو، سوى خوفها عليهما. فقد هدّتها فكرة البقاء وحيدة مع ابنتها المسكونة بالرعب والتي تلوّح بيديها أمام وجهها وتحركهما

بعشوائية دافعة عن نفسها الأشباح بعد تلك الشهور التي نامت فيها بين قوائم البقرة، في زريبةٍ تكاد لا تستطيع أن تدور فيها بقرة حبلى.

-385-

– لا تهرب يا نضال! تعال الحق بي إلى البيت.

– أمّي وحدها!؟ نظر نضال نحو أمّه راجياً أن ترحمه فلا تتركه بين يدي معلّمه. خرج الرجاء من عيني نضال وتضوّأ، ثم عاد مسرعاً قبلما تلتقطه الأم. نظرت الأم نحو ابنها، فنهض، ولحق بمعلّمه الذي لم يجد في كلامٍ يقال للمرأة نفعاً، فانصرف عنها صامتاً. ووراءه، جرجر نضال قدميه، مثيراً الغبار.

– لا تمش متل الأغنام! قال المعلّم بصوتٍ باردٍ دون أن يلتفت إلى الخلف. فأصوات الجرجرة كانت توتّر أعصابه. ولست أدري لماذا كان المعلّم يكره الأغنام. كان يحب الماعز، يحبّ الأبقار، يحب الخيول كثيراً، ويكره الأغنام والدجاج. أصلح نضال مشيته. وكانت رجله تؤلمه فقد سقط أمس عن درّاجةٍ كادت تصطدم بزوجة عيسي، سقط وسحجت ركبته وكانت ما زالت تنزف.

-386-

وذات عصر، وكانت امرأة عيسي تجالس جاراتها على مصطبة بالقرب من ذلك المكان نفسه الذي غادر فيه زوجها إصبَعه، علا صخب درّاجات نارية خارجة من الزاروب. كان ثلاثة مراهقين استغلّوا قيلولة العساكر أصحاب الدرّاجات، فخرجوا بها يصخبون في زواريب الضيعة. كان على كل درّاجة مراهق، وخلفه صغير يتشبث به. كان الصغار قد سرقوا مفاتيح دراجات أخوتهم، موعودين بدرسٍ على قيادة الدراجة بين البساتين. أكّد لهم المراهقون أن تكون عسكرياً، يعني أن تجيد قيادة درّاجة نارية على الأقل. فرح الصغار للفكرة، وراحوا يتخيّلون أنفسهم كباراً يحتذون أبواطاً ثقيلة، ويلبسون بزات مبرقعة، ويعتلون درّجات سوداء كبيرة، والمسدسات على أجنابهم والرشاشات على ظهورهم، وعندئذ سينتقمون من الكبار الذين يضربونهم على مؤخراتهم ويشدّونهم من آذانهم. وعند خروج الدرّاجين من الزاروب إلى الشارع الذي غادرته كاترينا إلى رحلة العصر، ولم تكن قد عادت بعد، رسمت الدرّاجات قوساً كبيراً انتهى بالمصطبة حيث النساء. كانت هناك امرأة عيسي وجارتها التي من أجل عينيها يقفز عيسي من الحافلة ومن الجرار، وثالثة سمراء، جاء بها (أسْوَد البحر) من وراء الجبال، وهو لقب صيّادٍ شاب، حرقت الشمس المالحة بشرتَه فباتت أقرب إلى سواد لامع. وسرعان ما نمت بطن سمرائه، وانتفخت شفتاها وكبرت حلمتاها، فراح المراهقون يحلمون بأن يأخذه البحر ويتركها لهم. كادت الدرّاجة

الثالثة تأخذ في طريقها قدمي امرأة عيسي المنتفختين، فدفعت سائقها بعصاها السنديان، بعد أن كان أجفلها رفيقاه، وسقط الولدان، درّاجتهما إلى جدار وهما إلى جدار آخر، وبادرتهما بصوتها البارد المعهود

– مستعجلين يا عيوني، رايحين تحرروا فلسطين؟ ما من هنا الطريق يا حبايبي!

-387-

وفي البيت، وكان علي جاد الصغير كعادته يمضي ساعات ما بعد الجامعة في مكان ما، سأل المعلّم تلميذه نضال إن كان يعرف شيئاً عن مقتل أبيه. كان خبر القبّعة الدامية قد انتشر في عين الغار. أنكر نضال معرفته بأي شيء. وعن سؤالٍ عمّا إذا كان قد رأى أباه من وقت قريب، أجاب نضال بأنّه لم يره من عشرة أيام. نسي نضال أنّ أباه دفن من ثلاثة أسابيع. وعمّا إذا كان جلال قد جاء إلى الضيعة في الفترة الأخيرة، أقسم نضال بالخضر أنّ أخاه جلال لم يدس تراب الضيعة منذ غادرها إلى سرايا الدفاع. أخبر المعلّمُ تلميذه أنّ الأمن الجنائي سيأتي من كل بد وأنّهم سيطرحون أسئلة كثيرة عليه وعلى أمّه وعلى أخيه في الشام. لم يقل المعلّم لنضال إنّه رأى أخاه جلال في ذات فجر مسرعاً إلى بيت أهله، وإنّه رآهما ينحرفان معاً عن البيدر نحو درب وادي القتيل.

– أبوك كان شديد القسوة عليكم، لكن كان أقسى على نفسه، أبوك مسكين يا نضال!! وأجهش نضال في البكاء فعانقه المعلّم، ورجا ابنة مريم أن ترعاه، وانصرف إلى محضر الرجال. لكنّ نضال سرعان ما عاد إلى أمّه، وفوجئت به يجثو عند ركبتيها، ويفعل ما لم تستطع المرأة الإمساك بعاطفتها دونه. رفع الصغير يد أمّه عن ذراع الرحى، وطمر رأسه في حضنها، فعانقته وانفجرت عيونهما عن دمع حار.

-388-

لم يطل الوقت حتى جاءت سيارة جيب من مخفر الناحية، فيها ضابط وأربعة عناصر مسلّحين. وما كاد الناس يتفرّقون عنها، ممتثلين لأمر مدير الناحية حتى سُمع صوت مكابح سيارة الأمن الجنائي، وترجّل منها ضابط وثلاثة عناصر حاملين بنادق كلاشنيكوف. أمرَ ضابط المخفر المعزّين، نساءً ورجالاً، بالانصراف إلى بيوتهم. ابتسم ضابط الجنائية وكان أصغر رتبة:

– يعطيكم العافية سيّدي، أُفضّل أن نبقى وحدنا.

– لكن!

– سيّدي، أرجوك، التحقيق شغلتنا. فانصرف مدير الناحية وعناصره وانصرف معهم المختار.

– خلّيك ببيتك يا مختار! مع السلامة سيّدي!

لم يذهب مدير الناحية مع المختار إلى بيته، بل فضّل التوجّه إلى الساحة حيث تجمّع الرجال. وهناك عرضوا عليه دخول مقهى برهو، لكنّه فضّل الشارع. فجيء بعدة كراسٍ وضعت تحت الصنوبرات، أمام دكان (اليابوس) الحلاّق. وكان أحدهم قد أطلق عليه هذا الاسم بعدما عرف أنّه لا يطيق البحر، ويكره الاغتسال.

–389–

أمام دكان اليابوس، كان وقف الرجال الذين لم يتسع لهم مقهى برهو يتبادلون الحجج حول القاتل المحتمل. ومع وصول مدير الناحية، خرج بعض من كان دخل المقهى. واستمر النقاش. وأطلق الشيخ عاكف بضع كلمات عن القاتل المحتمل بما يشبه الهمس، تاركاً لها أن تلامس أذن الملازم المُسرّح محمود.

–390–

كان محمود قد تقدّم إلى امتحانات الثانوية العامّة خمس سنوات متتالية دون جدوى، وفي السادسة نجح جميع من تقدّم إلى الامتحان في تلك الغرفة.. وأُلحق المساعد محمود، الذي كان يكتب الخطب لقائد وحدته في المناسبات الرسمية، فيقدّمها الأخير إلى ضابط التوجيه السياسي، وتنفتح عينا الأخير عن دهشةٍ على قدرة قائده البذيء على كل تلك الفصاحة.. أُلحق محمود بدورة طلاّب ضباط في الكلّية الحربية وصار طالباً ضابطاً عجوزاً. ثم، وقبيل تسريحه من الجيش لعلّة في توازنه النفسي كما جاء في التقرير، بعام ونيف، تخرّج ملازماً في الكلّية.

وكان محمود مع عودته ملازماً إلى عين الغار، خطرت بباله فكرة أن يترشح لانتخابات مجلس الشعب، باسم أخيه التوأم أحمد. فإذا ما نجح، يترك هو الجيش ويلتحق بمجلس الشعب، ويضع النجمتين على كتفي أخيه الحلاّق. كيف ذلك؟ اسألوا محمود. وبدأ محمود بتنفيذ خطّته. وأصدر بياناً انتخابياً، وعد فيه الجماهير بالعمل على (تعزيل)– هذه الكلمة جاءت في البيان– أذن الحكومة لتسمع صوتهم، وبأن حرّية أن يقول الإنسان ما يشاء أهم شيء في الدنيا–(أن يثرثر! كتب أحدهم باللون الأحمر بعد كلمة حرّية، ورفع آخر سهماً منها وكتب بالأخضر أن يلعي، وأضاف ثالث أن يعلّك، وبالفحم كتب آخر: أن يطق حنك)– ووعدهم بجعل الماء يجري في بيوتهم أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، وبتوسيع شبكة الصرف الصحي، وبتأمين وحدة عسكرية ترابط على تخوم الضيعة، فصبايا عين الغار أكثر من شبابها، ولا بد من تأمين أزواج لهن! هذا لم يأت في البيان، إنّما تناقلته النساء. وهو أخوهم البار سيعمل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك. وجاء في بيانه أنّه سيحاول مع المشايخ الصالحين المحبين لأبناء ضيعتهم، الإفتاء

بإمكانية تقليل عدد الثيران التي تنحر في الأعياد. ففي ذلك وفر كبير ورأفة بالحيوان. وأضاف أحدهم بخط أحمر على ورقة البيان (وابن الحيوان). وهذا بعض ما جاء في بيان الحلاّق أحمد الانتخابي. ولكن الملازم محمود حكى لزوجته عن خطّته المحمكة، فسخرت منه. وحين تجرأ عليها بالضرب، وشت به. وطُلب محمود إلى التحقيق.

-391-

وخرج الأولاد في المساء. وفي الليل الذي أعقب خروجهم، وكان بيان محمود الانتخابي وُزّع في جميع أرجاء عين الغار، وفيما يحيط بها، فُجّ رأسُ الشاعر بوفيصل، وكثيراً ما كان يتعرّض للضرب أو الشتم بعد خروج الأولاد. خرجوا يصيحون:

– محمود عاشق قرباطية..اسمها ديموقراطية.. محمود لازم له حرّية، حتى يعكّر نبع الميّة..

-392-

كان الحلاّق أحمد توأم محمود يسكن غير بعيد عن ساحة الضيعة. وذات صباح، مات. فيوم أبلغ الملازم محمود أخاه أحمد بأنه تقدّم بطلب ترشيح لانتخابات مجلس الشعب باسمه، وحصل على الموافقة وأصدر بيانه الانتخابي، مات أخوه أحمد من الضحك. مات أحمد من الضحك فعلاً وليس مجازاً. وهذه حقيقة بمنتهى الجدّية وليست مزاحاً. كان المعروف عن أحمد أنّه رجل ضحوك. (كَرجَت) ضحكة أحمد طويلاً، ثم راح يخالطها صوت سعال، ثم تناهى صوت خبطات مكبوتة، أشبه بصوت الضرب على الظهر لإخراج ضفدعة من الحلق. وهدأ كل شيء، وخرج الملازم محمود. وفي المساء أرسل المعلّم ابنه في طلب الحلاّق أحمد، فوجد ضحكته لا تزال عالقة بجثته، وراح الناس ينتظرون موت محمود. لكنّه لم يفعل. كانوا عرفوا أنّ التوائم الحقيقية لا يطيق أحدها العيش دون الآخر، لكن معرفتهم خذلتهم.

-393-

كان المعلّم حتى شهر قريب يحلق عند اليابوس، وفجأة جاءه خبر من ابنه علي جاد الصغير جعله ينفر من فكرة الحلاقة في مكان عام. كان علي الصغير اكتشف فجأة، أنّ شعر رأسه طال وبحاجة إلى الحلاقة حالاً قبل لقائه بحبيبته الجديدة. دقّ الشاب باب الحلاّق اليابوس، وفي اللحظة نفسها دفع الباب بقوّة تبّين أنّها كانت كافية لانتزاع الخطاف الصغير الذي أُمسك بواسطته الباب في وضعية انغلاق. وفوجئ الشاب باليابوس يحلق شعر عانته بالموس نفسه الذي يحلق به ذقون الرجال. حكى ابن المعلّم لحبيبته الجديدة في ذلك المساء ما كان شاهده قبيل مجيئه إليها فسألته " يابوس! يعني من البوس؟"، وحكى لأبيه المعلّم صباح اليوم التالي،

قبيل ركوبه كاترينا إلى الجامعة، ما كان. فأوصاه المعلّم بشراء موس حلاقة ومقص، وصار يرسل في طلب الحلاّق أحمد إلى داره.

-394-

وما إن التقطت إذن الملازم المسرّح محمود تلميح الشيخ عاكف إلى شبهة تدور حول المقاول الذي حرق بوجلال سيارته وكسر بوزه وانتزع منه مسدسه، حتى صاح ماطّاً عنقه نحو مدير الناحية:

– يا سيّدي، ما أحد له مصلحة بموت بوجلال غير خصومه. شوفوا يا سيدي، هناك واحد، الله نفسه لا يعرف قرعة أبيه من أين ، اشترى نصف المنطقة..

– الله سبحانه وتعالى يعرف كل شيء! قاطعه مدير الناحية.

– أكيد.. أكيد يا سيّدي.. هذا الذي يعرف الله عنه كل شيء، كان المرحوم أهانه.. وبعض الظن إثم يا سيّدي، والله أعلم...وقطعت حديثه صرخة شاب لم يستقر صوته بعد:

– لسانك ما له رباط، أمّي معها حق!

– من أنت؟ سأل ضابط الشرطة.

– أنا ابن هذا العبقري الذي لا يعرف معنى كلامه!

-395-

وصمت مدير الناحية، ثم ابتسم مضمراً في نفسه أمراً. فقد كان فشل مرّة وثانية وثالثة في كسب حصة لنفسه مما يجنيه المقاول من الأراضي التي يشتريها. كانت حجة الأخير أنّه لا يشتري الأراضي لنفسه، وأنّ حصته الهزيلة لا تحتمل أن تُقتسم. وحين حاول مدير الناحية دخول اللعبة ومنافسته على قطعة أرض ذات موقع يكشف البحر من جهتين، ما أدى إلى رفع ثمنها ثلاثة أضعاف، جاءه هاتفٌ من مكان يجهله يهدده بالنقل إلى البوكمال، وبقطع لسانه إذا زاد السعر ليرة واحدة بعد اليوم. فسكت الرجل وأضمر ضغينة للمقاول.

وراحت الأحداث القادمة تتوضح على راحة مدير الناحية كما تُعرض الصور اليوم على شاشات مسطّحة بألوان زاهية: يعتقلون المقاول بتهمة القتل، ويرسل هو مدير هذه الناحية والعارف بأسرارها وأوكارها مع أحد عناصره المؤتمنين بولاّعة السجائر التي تركها المقاول على طاولة المطعم، إلى حيث دعاه آخر مرّة للتباحث معه في البيع والشراء، ويرميها في مكان حدوث الجريمة. بل ويرسل من يجمع أعقاب سجائر من الماركة التي يدخّنها المقاول عن الدرب الذي يسلكه إلى السفوح المطلّة على البحر. وينقل عقبين أو ثلاثة، ويرميها قرب الولاّعة، وما إن يأتي المحققون حتى يجدوا الدليل. وبعدها..بعدها، لا بد من أن يأتيه ذلك الصوت الذي هّدده

المرّة السابقة، يأتيه ملاطفاً، راجياً المساعدة. وعندئذ سيعرف كيف يتصرّف، ولن يكون هناك " لا البوكمال، ولا قطع اللسان!". وضحك مدير الناحية ضحكة شِرطيةً، بدت للمتحلّقين حوله خرقاء.

-396-

– إخرس، يا ولد، يا عاق، يا ابن أمّك! صاح محمود بابنه. وكان واضحاً، من نبرة صوته، أنّه نادم على التصريح بشكه بالمقاول، وأنّه شعر بالخوف من العاقبة، فسيكون عليه انتظار ما سيفعله به رجلٌ من الواضح أنّه خطير.

– اخرس، ينقطع لسانك!– قالها هذه المرّة لنفسه، وأضاف– يعني أنا ما قصدت أنّه هو الذي قتله، قاتل الله الظن– تحوّل محمود إلى فصحى خاصّةٍ في مرافعته– الذي قصدته أنّ هذا الرجل، يا سيدي، قصدي يا أسيادي وإخواني، يزور الجبل كل أسبوع، وأحياناً مرتين في الأسبوع. وهو والله، يقال عنه رجل فهيم وحاذق ومتسامح. ولولا أنّه متسامح لانتقم لنفسه بعد الحادثة مباشرة..

– حاول.. حاول، وما طلع معه شيء!! جاءته أصوات تقاطعه، فقد وجد هنا من رأى في الوحش مصدر اعتزاز لأهالي عين الغار. فليس في كل ضيعة تجد وحشاً قاتلاً مثله يهابه حتى الضباط المدعومون.

– ومع ذلك يا إخواني– تابع محمود– أنا قلت لنفسي لعلّ الرجل رأى القاتل أو يعرف عنه شيئاً ما.

– تفضّلْ والبسْ نظارته السوداء وشُفْ إذا كان رأى يا بو رأى! قال أحد الشباب ساخراً.

-397-

وصعدت الفتيات إلى الأسطحة المطلّة على الساحة ومدخل دكان اليابوس الحلاّق ومقهى برهو، صعدن بانتظار رؤية رجال الدولة الغرباء. كان الزي الرسمي يعطي هيبة وجاذبية للرجال الغرباء، تثير غيظ شباب عين الغار. لكنّهم كانوا أعجز من أن يمنعوا الصبايا من تدبّر حيلة لاختلاس النظر إلى غريب عابر، خاصّة وأن بيتين من البيوت المطلّة على الساحة لا يخلو سطحاهما من الصبايا. كان يمكن أن تجد هنا شمّا حبيبة الجميع ولمياء بعدما أعادها مقاتلو عين الغار الثلاثة علي وفيصل وجلال من الشام، وتجد نورا الحجار ومنى هناك، وسارة ابنة بوفيصل مؤنسة ليالي علي جاد الصغير.

-398-

ومن الساحة، حيّاهن راجي ذات مساء، وألقى إليهن بباقة ورد قطفها من أجلهن أو من أجل غيرهن، ممّن قد يصادف في الطريق. وضحكن، ورحن يتدافعن، بغنج، لالتقاط الباقة فيما دخل هو دكان اليابوس. كان راجي يحلق عند حلاّق في شارع هنانو غير بعيد عن مخفر الشيخضاهر. لكنه حين سمع بتسريحة (بَد غرشوك) أراد أن يجربّها على شعره الطويل، بعد أن كان على مسافة صرخةٍ من حلاقة رأسه بالموس حتى اللمعان. وجلسن ينتظرن خروجه من هناك. ورأين علي جاد الصغير يرجو عمّه الخروج للحظة، قبل أن يبلل شعره ماء اليابوس، ويهمس في أذنه شيئاً ما، وينصرفان. وأمّا اليوم ففي الساحة غرباء وحديث مشوّق عن جريمة قتل.

-399-

كان يصعب أن ترى شرطياً في المدينة له شعر مایاكوفسكي قبل أن يحلقه بالموس، نكاية بعاشقات الشَعر وليس الشِعر. كان الرؤساء يبتسمون لشعر الشرطي ويصرفون النظر عنه. كان شرطياً من نمط خاص، لا طعم للمدينة من دونه.

-400-

وكانت ناهلة نظرت إلى شعر حبيبها ثم إلى عينيه، يوم جاءها مودّعاً، وأرادت أن تقول شيئاً يخصّ شَعره، لكنّها أدركت أنّه لا يراها. كان ذهب إلى المشفى، حين قرّر الرحيل، وكان اختار أن يكون موته بطيئاً، وقرّر أن لا يدعها ترى احتضاره. وكان راجي يتشبّه بشاعر أعجبته كبرياءه. كان علي جاد الصغير كثيراً ما حدّث عمّه راجي عن بوشكين وحكاية موته، فأكبر راجي في الشاعر نيّته عدم السماح لنتاليا برؤيته يحتضر. كم أحبَّ الشرطيُ الشاعرَ، وكم أقنع نفسه بأن الموت المبكر أفضل ما يمكن أن يفعله الشاعر. ابتسم الشرطيُ للشاعر، وكان يعجبه أن يفكّر بأنّه ليس من أجل امرأة مات، بل من أجل شيء آخر أهمّ.. وها هو نفسه يختار الموت دفاعاً عن الحدّ الفاصل بين أن يكون الإنسان إنسانا أو لا يكون، وليس من أجل امرأة. مع أنّه آمن بأن المرأة هي الشيء الوحيد الذي يحوّل الرجل من وحش إلى إنسان. وابتسم الشرطي، ثم غامت عيناه حين تراءت له صورة والدَه الشيخَ حبيس شرّ النساء، فهزّ رأسه متأسّياً، ورحل.

-401-

لم يتغير شيء في مقهى برهو، في تلك العشية التي أعقبت دخول الرجال الناظرين في أمر القتيل. فالشعراء الثلاثة- ثلاثة لأن بوفيصل كفّ عن منازلتهم حين رأى أن مستواهم لا يليق

بـه– كـانوا شـغلوا أمـاكنهم علـى طاولـة ملتصـقة بنافذة المقهـى لا تتسـع لكرسـي رابـع. وأمّـا النافذة نفسها فكانت تتسع لتلاميذ المعلّم الذين راحوا يحفظون شيئاً مما يقال هناك، وينقلونـه للمعلم الذي يبتسم لهم، قائلاً: " كل ما يقال في حالة سكر شعر"، ويستنتج التلاميذ أنّهم يجب أن يسكروا من أجل أن يكتبوا الشعر. ولـم يكن شـعراء المقهـى يحفظـون شيئاً مـن الشـعر أو يعرفون شيئاً عنـه. ومع ذلك كانوا يتناظرون فيه بعد الكأس الثالثة من عرق التين.

–402–

– ريشة!

– شص!

– سمكة سكمبري– يصيح سكّير من الزاوية البعيدة– عجّل يا برهو، هاتها ساخنة.

– تنزلق من اليد. يجيب شاعر البحر.

– إلى كـ.. أمّك! يصيح مراهق من النافذة ويهرب.

– لا تشغل بالك بما يقال! يقول بائع الفرّوج.

– بالغمغاء! يشارك شاب من حيث طُلبت سمكة السكمبري.

– الغوغاء قصدك يا ابن الـ...يعترض كرمو.

– إياك، لا تقل شيئاً! يحذره الشاب.

– يصـفّق الأولاد علـى النافـذة، ويهتفون: غَـم غـاء..غَم غـاء..غم غـاء..عَو عـاء..عَو عـاء فيتجرع كرمو كأسا رابعة، ويصيح بهم:

– يا أولاد الـ...

– أولاد من يا ابن الـ...

– الدكان.. قصده الدكان! يصيح ابن (عيون القط) من النافذة.

– يا ابن أبيك!

– يعرف ما يدور هناك.

– صبّ يا برهو.. ابن كرمو ونساء قبرص العاريات في المقهى المهجور.

– والبوري وأم الجدايل..

– ومؤخرات الدجاج.. والنعاج..

– كرمى لعلي جاد!

–403–

هوب.. هوب! وقفز من قاطرة جرّار عتيق، شبابٌ كانوا لتوهم عادوا من الحقول. ولم يكن في عين الغار حفّارو قبور. كل من تقوى يده على الفأس، هنا، حفّار. فالشباب، يتسابقون إلى الفؤوس والمعاول ويسابقون أقرانهم إلى (الكشفة) و(البيدر) و(كرم الجراد)، حيث تتجاور قبور الأقرباء، كأنّما ليحمي بعضها بعضاً من فؤوس العابثين. لم يكن أحد قد كسر شاهدة قبر قبل امتلاء المقابر والكروم ببزات رمادية راحت تظهر من اللامكان. وأية دار هذه التي تخلو من فأس ومعول ونصل من فولاذ دمشقي لنحر القرابين وتقطيع اللحم!

-404-

كان اليابوس قد جعل من الرأس جزأين حين مرّوا حاملين فؤوسهم من أمام دكانه. ليس إلى المقبرة كانوا خارجين إنّما إلى جبل القتيل. التفتَ حاملو الفؤوس إلى اليابوس وحيّوه. والتفتَ نحوه، مبتسماً، رجلٌ في طقم رمادي لمّاع وربطة عنق حمراء، بدا أشبه بمغنّ في طريقه إلى حفل راقص. وتوقّف قليلا عند باب الدكان، وأمعن النظر في يد الحلاّق وفي رأس الصغير المقصوص إلى نصفين.

لم يكن الطبيب الشرعي قد أكمل عامه الثاني، بعد عودته من دراسة الطب الجنائي في أوكرانيا، حين استدعاه الأمن الجنائي للكشف على جثة محتملة في عين الغار. لحظة مرورهم، رفع اليابوس اليقطينة عن رأس صغيرٍ جلس على الكرسي، وهذا ما دفع الطبيب الشرعي إلى التوقّف.

-405-

كان القادم لفحص الجثّة، قد رأى في الريف الأوكراني حلاّقين يحلقون رؤوس الكبار والصغار (بَد غَرْشُوْك)، وكانت التسريحة انتقلت إلى روسيا من هناك. وكان آخر ما يتوقّعه الطبيب أن يرى تسريحة مشابهة لـ (بَد غرشوك) في عين الغار، بل تسريحة مطابقة لها. لم يكن الحلاّق الأوكراني يحتاج لإنجاز هذه التسريحة، إلى أكثر من قِدر فخارية. كانت النساء هناك تطبخ طعاماً لذيذاً في الفخار. وهناك، تُخرَج القدر من الموقد فيُدخِلُ ربُّ الأسرة، الذي لم تترك قِدرُ الحلاّق إلا قرصاً صغيراً من الشعر الطويل على رأسه، يُدخل ملعقتَه في القدر. فإذا ما تراجع عنها، على شبعٍ، تناوب الصغار، الذين رفعت القدور عن رؤوسهم، أمس أو أمس الأوّل، غَرْفَ ما بقي من طعام. وأخيراً، يأتي دور الأم في مدّ يدها. تمسح الأم ما بقي من مرق أو دسم أو أي طعام علق بالقدر بقطعة خبز. تلتهمه وتشكر الرب.

-406-

هوب.. هوب! وكان بائع الخبز الجوّال، الذي انتظرت ابنة مريم عودة ابنها معه، يأتي على دراجته ذات الثلاثة دواليب بين الخامسة والنصف والسادسة صباحاً. كان قلّة من الناس قد واظبوا على شراء الخبز من فرن شيبان. راح مالكو الفرن يبيعون الطحين بدل الخبز ويخبزون من الأخير كمّية قليلة للراغبين فيه، ولفقء عين الدولة المفتوحة على تهريب الطحين. وأمّا بائع الخبز الجوّال فلم يكن يبدأ جولته لبيع الخبز قبل أن يلجأ إلى بيته قادماً من فرن الدولة، ويغلق وزوجته الباب وقتاً يطول أو يقصر، تبعاً لكمّية الخبز.

يخطر ببال أي أحد سواه، أنّ الرجل لقلة عقله يتجاوز القرى المفترشة التلال على جانبي الطريق العام، في حين يمكنه بيع ساكنيها الخبز في طريقه إلى عين الغار، بدلاً من عودته إلى هذه القرى ثانية. فما الحكمة من صرف الوقود وإضاعة الوقت!؟ لم يكن الرجل قليل العقل. فقد كان لا بد من هذا الإجراء. فالخبز كان يُخرج، في دار البائع، من أكياسه المنتفخة إلى أكياس أخرى نحيلة. كان كل كيس مشترى في الفرن يصلح للإفراغ في ثلاثة أكياس وأحياناً أربعة. ولا تسيئوا الظن بالرجل، فهو لم يُنقص يوماً عدد الأرغفة في الكيس. إنّما كان هناك عامل مخلص، يُكافأ على عمله، بناءً على تعليمات خاصّة من إدارة الفرن ومحاسَبته، عامل لا يُحصي عدد الأرغفة التي يضعها في أكياس صاحبنا، أو على العكس من ذلك يحصيها بدقة. وكان الميكانيكي يعرف كيف يعيّر الآلة التي تقتطع أقراص العجين، ويعرف كيف يعيّر الزمن الذي تمضيه الأرغفة في بيت النار دون الحاجة إلى تعديل الحرارة، تحسباً للحظة قد يلجأ فيها شارٍ ما لوزن ما اشترى من خبز. وكان المحاسب على معرفة جيّدة بطرائق تلافي النقص، وبأساليب توفير السكّر والحليب.

-407-

كان لدى اليابوس قدر فخارية، لكن رأساً مفلطحة أسقطتها فتحطّمت على أرض الدكان. لم تستقر القدر على الرأس. تبيّن أن رأس الزبون أكبر من فتحة القِدر. لم يكن الفخّارون هنا، قبل اليابوس، يأخذون بالحسبان أن تتسع فتحات قدورهم لرؤوس عين الغار. راح اليابوس يبحث في سوق الفخّارين عن قدر تناسب تسريحةً كان سرقها عن خبراء روس آن خدم إلزاميته. قال الخبير الروسي لليابوس الذي كان اسمه آنذاك سليم:

– احلق لي بَد غَرْشُوْك، يعني تحت طنجرة! ضحك سليم ضحكته المعهودة التي تشبه دوران محرك سيارة (زيل) متعثّر، فأضاف الخبير:

– يعني، اترك لي دائرة فوق، واحلق الباقي بالموس، مفهوم!؟ ولمّا لاحظ أنّه لم يفهم أرسله إلى المطبخ لإحضار طنجرة، فأمتعت اللعبة سليم، ولكنّه عاد من المطبخ بطنجرة تفرغ محتوياتها، عادة، في خمسين قصعة طعام، فيئس الخبير الروسي، وقال فاقداً الحيلة:

– طيّب، معليش حلاقة إنكليزية! وفرح سليم، وتطايرت من تحت ماكينته قصاصات الشعر الروسي الأشقر. ولكنّ اليابوس ظلّ يفكّر بـ(تحت الطنجرة).

-408-

وفي نهاية المطاف، فهم اليابوس أنّ الطنجرة يجب أن تكون أصغر من الرأس. ففرح للفكرة أيّما فرح، وراح من لحظة عودته إلى عين الغار يجرّب على رأسه طناجر الفخّار، التي في بيت أهله وفي بيت أخته، حتى استقرت إحداها أعلى أذنيه بخمسة سنتمترات. ثم كان ابتكار اليابوس، ساعة جاء بيقطينتين يابستين، قطع كل منهما إلى نصفين، وأكل بذورهما، واحدة للصغار وأخرى للكبار.

-409-

هوب.. هوب! وكان يمكن إحصاء عدد زبائن اليابوس في الحافلة كاترينا، كما يمكن معرفة أصحاب الرؤوس المسطحة التي تُكسبها تسريحة (تحت الطنجرة) استدارةً محببة من فوق. فلكل رأس تاريخان، واحد شخصي وآخر اجتماعي. فأنت يمكنك أن تحصي على الرأس كم مرّة فُجّ بيت الدماغ، وبأية أداة. وكان على رأس علي جاد الصغير فجوة على شكل قوس تخلو من الشعر. كان ذلك بمثابة اعتراف سارة الأوّل بحبها له. رمته سارة بحجر من السطح لأنّه لم يولها الاهتمام الذي انتظرته، فانفجر الدم. ثم هبطت إليه، وراحت تقص الشعر من حول الجرح وتكبس عليه البن. وبعد ذلك صار يتسلّق الجدار إليها في الليل. وقال له عمّه راجي:

– اعرف كيف تحفظ رأسيك! وفي واحدة من غيبوباته الطويلة قبل الموت، تذكّر راجي ذلك وابتسم للرأسين الأعلى والأدنى، وكان، خلاف غيره، يؤمن بأنّهما يمكن أن يعملا معا.

-410-

وابتسم الطبيب الشرعي لتسريحة (بَد غرشوك)، هازّاً رأسه باستحسان، ولحق بحاملي الرشاشات وحاملي الفؤوس. وراح أحد المسلّحين يتعثّر في مشيته، فقد كان طويلاً، وكان قُيّد إلى معصمه معصم نضال. كان خطوات الصغير قصيرة، وكان على الطويل أن يمشي على هوى القصير، حتى إنّه فكّر عدة مرّات بحمله، وصعود الجبل مع الحمل، لكنّ الضابط الذي أمره بالإسراع، لم يسمح له بذلك.

-411-

وهناك، توسّل نضال، وبدت عيناه أشبه بعيني وحش صغير محاصر في وكر.

– لا تكسروا التينة، أبي زرعها، وأوصاني برعايتها!

فكّر المعلّم بمعنى أن يحرص الصغير على شجرة تين زرعها أبوه، وقام وأمسك بالجذع الصغير، راجياً الحفّارَين أن لا يقطّعوا جذورها، وراح يسحبها بهدوء. ثم حملها وأسندها إلى صخرة المزار.

-412-

– على مهلك على مهلك! لا تخرّب الجثة! صاح الطبيب الشرعي. وكان لا يزال يفكّر بالحلاّق. وفجأة سقطت الفأس من يد أحد الحفّارين، فيما انفتح بوز جقل على الثانية.. وراح الذي سقطت الفأس من يده يصيح:

– يا إلهي.. يا إلهي انمسخ جقلا بقبره يا ناس.. يا ناس! وظلّ يصيح ويقفز في مكانه حتى أمسك به الضابط وصرخ في وجهه:

– أي جقل؟! جقل برأسك! ولكنّه ما إن وصل إلى حيث جمدت فأس الثاني حتى صاح، ولكن هذه المرّة بالصغير نضال:

– وتضحك علينا يا ابن الحرام، تجلبنا إلى قبر جقل وتقول هذا قبر أبيك! تفووه، لعنة الله عليك وعلى الأم التي ربّتك هذه التربية! يا الله، اردموه.. قتلتنا الرائحة، ملعونة أمّك.

وكان نضال قد تلقى في هذه الأثناء عدّة صفعات، وسال الدم من أنفه، ولم تفد خطوات المعلّم نحوه في رفع غضب الضابط عنه. ولولا أن الضابط أستسلم للغضب، وأغلق فم الصغير باللكم والصفع لما أصدر أمره بردم القبر. فقد سحقت الصفعةُ الأولى رجاءً كان على شرفة لسان نضال بأن يرفعوا الجقل ويتابعوا الحفر لإخراج جثّة أبيه.

– ملعون أبو الجثة، ما فيه إدعاء شخصي، ما فيه جثّة، ما فيه جريمة!! جقل يا ابن الذئبة. هيّا انقلع من وجهي!

وبذلك أعلن الضابط إغلاق الملف. لكنّ البحث عن القاتل لم ينته بالنسبة لمدير الناحية، فهو لن يفوّت فرصة النيل من المقاول ونيل الفوائد المرتجاة من شراء الأراضي.

-413-

وتغيّر شيء في عين الغار إلى الأبد. كانت المرّة الأولى التي يشهدون فيها على عملية مَسْخٍ، المرّة الأولى التي يرون فيها رجلاً يمسخه الله في قبره جقلاً، المرّة الأولى التي يشهدون فيها على معجزة يحققها مزار الغريب. فلولا قدرة هذا المزار وعظمة اسمه وموقعه عند العرش، لما تحوّل الرجل إلى جقل وهو في قبره. وأخذ المعلّم شجرة التين التي لم تيبس على الرغم من كل شيء، إلى داره لتورق هناك.

-414-

– جقل، يا شحّاري!– صاحت أم جلال، وغادر الدمع عينيها فجأة إلى ما يشبه الجنون– من امرأة الوحش إلى امرأة الجقل! هذا جزاء دموعي على ثوبك الأخض يا خضر! وتقبل بمسخ واحد يؤمن فيك إلى جقل!؟

وفي مساء ذلك اليوم، اتجه وجهاء عين الغار إلى بيت شيخ عجوز ليسألوا " هل لمن في صدره ذرّة إيمان، ومن للإمام فيه قيد أنملة أن يُمسخَ جقلاً في القبر؟".

-415-

وفي الليل، تخرج بنات آوى ويخرج بنوه إلى الدور المطلّة على وادي الجراد، وإلى المتاخمة منها للبيدر، حيث السفح يصل بين مقبرتين، وإلى التي تتلطى في وادٍ غير عميق ينحدر نحو (جورة الأعور)، وإلى البيوت التي أدارت ظهرها للمدرسة وللـ(بقجة) نحو الدروب الضيقة الصاعدة من (خليج جبّور) ومن (كور بينار)، حيث الماء الممنوع، أجاجه وسلسبيله، ببنادق تخيف الكبار لعلعتها، هناك، وثعبان يخيف الصغار فحيحه، هنا. لكن خروج بنات آوى وبنيه لم يعد يقلق الأهلين على الدجاج، بل راحوا ينتظرون ابن آوى عملاقاً يقتحم ظلمتهم المؤقّتة نحو ظلمة أبدية. وكان بيت علّوشي عامل البرقيات واحداً من بيوت منفردة ينعب طائر بوم على مقربة منها، فوق شجرة سرو تتوسط الخطوات الثلاثين بين البيت وطرف الغابة.

وراح الأهلون يحتطبون، استعداداً لليالٍ، النارُ فيها والدخان والصلاة. قبل أن يتوافقوا على خروجٍ، بعد أن كفروا بالقلق، إلى الجبال. ولكن ليس نحو السفوح المطلّة على البحر، حيث الجند يحمون أسلاكهم الشائكة بالنار.

وخرجوا حاملين البنادق والفؤوس والأمخال والعصي والهراوات، بحثاً عن كائن عملاق شبيه بالجقل لا بد أن يظهر في مكان ما، ولا بد من أن يقتلوه من أجل أن ترتاح روح الانسان فيه، وترتاح أرواحهم، بعد خوف واضطراب.

-416-

وفي ليل ذلك اليوم الذي أطلّ فيه بوز ابن آوى من القبر، وكان عامل البرقيات علّوشي مناوباً في قيادة المنطقة الساحلية، وصلت برقية إلى قيادة سرايا الدفاع، مخالفة للبرقية السابقة التي تطلب إحضار جلال مخفوراً للتحقيق معه في مقتل أبيه واختفاء جثّته. وكان قائد وحدة جلال قد أرسل لإحضاره وأبلغه بأنّ تعليمات القائد تقضي بأن يحققوا معه في قيادة السرايا وأنْ

لا يسلّموه إلى أية جهة أخرى. وكانت تلك المرّة الأولى التي ينظر فيها إليه باحترام. وبعد تبلّغه أوامر القيادة، حُوّل جلال إلى سجن الوحدة بانتظار تعليمات جديدة.

-417-

كان علّوشي راس التيس فرح لخبر المسخ، وأنشأ برقيته التي اجتمع حولها ضباط قيادة السرايا وراحوا يضحكون، طالبين من عامل البرقيات في القيادة تكرار تلاوتها عليهم، فيما هم يقهقهون. ولو كانت شواربهم طويلة لحسبهم الناظر إليهم خارجين من لوحة ريبين (القوزاق الزَبَروجيون يكتبون رسالة إلى السلطان العثماني!)، وهذا ما تمنّى لو رآه فيهم الملازم الأوّل راسل العائد من موسكو، حين خطرت بباله لوحة ريبين.

-418-

كان القوزاق قد كتبوا للسلطان العثماني محمّد الرابع رداً على رسالة طالبهم فيها بالاستسلام له والخضوع لسلطته:" أنت أيّها السلطان، أيّها الشيطان التركي، وأخ الشيطان الملعون ورفيقه، والعامل بأمر إبليس ذاته، أيّ فارس أنت، إذا كنت تعجز، بمؤخرتك العارية عن قتل حتى قنفذ صغير. الشيطان يخرا وجيوشك تأكل الخراء. لن يخضع لسلطتك أبناء المسيح، فنحن لا نخشى جيوشك، وسنحاربك في البر والبحر، وسوف ننيـ.. أمّك، أيّها الطبّاخ البابلي الخرائي والثرثار المقدوني، والمنفاخ المقدسي، والتيس الاسكندري المخصي، وراعي الخنازير في المِصرين، أيّها الشرير الأرمني، والوحش التتري، والجلاّد الكامينيتسكي..ما رأينا أبله منك، يا حفيد الثعبان السام يا سنّارة لأُيورنا، يا بوز الخنزير، يا طيز الفَرس، يا الكلب الكلبان، يا جبهة لم ترسم عليها الصلبان، سنني.. أمّك، وهذا جوابنا نحن الزبروجيين البسطاء، ولن نترك لك أن ترعى حتى خنازير المسيحيين. والختام. لا نعرف تاريخ اليوم، وليس لدينا تقويم. الشهر الذي في السماء والعام الذي عند الأمير، عندنا كما عندكم، ومن أجل ذلك قَبّل أطيازنا. التوقيع: الأتامان سيركو، عن جميع جيوش زَبَروجيتس".

-419-

كان الملازم الأوّل راسل ضابطاً في سلاح الإشارة، لم تمض إلاّ أشهر على عودته مهندسا عسكرياً من روسيّا، وكان قد رأى اللوحة الأصل في المتحف الروسي في بطرسبورغ، في رحلة إلى هناك رافقه فيها إبراهيم بن العطّاس. لكنّ الشجاعة والاستعداد للموت كانت تنقص الوجوه التي يراها أمامه هنا، خلاف الوجوه التي خلّفها ريبين هناك.

-420-

وكان السلطان يعرف أي رجال أولئك القوزاق، والملازم الأوّل راسل يحدس بما ليس متيقّناً منه بعد. كان السلطان قد كتب للقوزاق، على غير عادة السلاطين في التهديد والوعيد رسالة يطلب فيها ودّهم، دون أن يستطيع التخلي عن كلمتي استسلام وخضوع " أنا السلطان ابن محمّد، أخ الشمس والقمر، الحاكم بأمر الله، مالك الممالك المقدونية والبابلية والمقدسية والمصرية العظمى والصغرى، سلطان السلاطين وحاكم الحكّام، وفارس الفرسان، والمحارب المقدام الذي لا يقهر، حامي تابوت المسيح وراعي الإله ذاته، أمل المسلمين وأمانهم، مُخضع المسيحيين وحاميهم العظيم، آمركم أنتم، أيّها القوزاق الزبروجيون، بأن تعلنوا استسلامكم لي طوعاً، ودون أيّة مقاومة، وأن تتوقّفوا عن إزعاجي بإغاراتكم. التوقيع السلطان محمد الرابع".

-421-

ولم تكن لتخفى على الملازم الأوّل راسل نبرة الضعف في هذه الرسالة. فقد قارنها برسالة كان قد أرسلها السلطان نفسه للامبراطور ليوبولد الأوّل في فيينا، وكان قد تلمّس ضعف الأخير:" أعلن لك أنني سأصبح سيّدك. لقد قرّرتُ، ودون إضاعة للوقت، أن أفعل بالامبراطورية الجرمانية ما يحلو لي، وأن أترك في هذه الامبراطورية ذكرى عن سيفي البتّار. سوف أبسط ديني وألاحق إلهك المصلوب، وسيطيب لي إذا شئت أن أسحل قديسيك وأعرّي أثداء نسائك وألقمها للكلاب ولغيرها من الوحوش. يكفي ما قيل لك لكي تفهم ما الذي سأفعله بك، هذا إذا كان لديك عقل يكفي لفهم ذلك. التوقيع السلطان محمد الرابع".

-422-

مسح الملازم الأوّل راسِل عينيه، فقد تراءى له ليوبولد يبول خلف جدار الغرفة التي اجتمع فيها القادة يضحكون. كان يبول، استعداداً للفرار. فلم يكن من اللائق أن يبول في الطريق أمام نساءٍ لا بد من أن يرافقنه في موكبه الامبراطوري. فكّر الملازم الأول بالحصول على نسخة من اللوحة وإهدائها للضباط الذين خرج أحدهم يبول من شدة الضحك، لتعليقها في غرفة القيادة بعد أن يحدّثهم عنها. ثم عدل عن فكرته، فقد خشي أن يفتلوا شواربهم استعداداً لنزال سلطان تركي غادره ضعفه إلى اللوحة، وبقي على الأرض شيء آخر. لم تَرُق له لوحة نزال الأتراك في هذه الغرفة، ولذلك مسح الفكرة من ذهنه، وعاد إلى برقية علّوشي، عاجزاً عن مشاركتهم الضحك، فصرخ كبيرهم في وجهه:

– العمى بعينيك، ما أبلدك، ما فيك دم، اضحك! هذا أمر عسكري، يالله اضحك! وانقلب وصحبه من الضحك.

-423-

لحسن حظ الملازم الأول راسل، جاء رفض أهله تزويج ابنتهم لمرتضى، زميله وإبراهيمَ في الدراسة بموسكو. فقد حال ذلك دون تواصلهما في الغربة، وبالتالي دون دخوله السجن، خلاف إبراهيم. ففيما عاد هو، من مجلس القوزاق الزبروجيين إلى مجلس قيادة السرايا، واستقبله أهله مهللين في المطار، وصل إبراهيم بِكر العطّاس إلى مطار دمشق لكنّه لم يخرج منه إلى أهله الناطرين الحلم. خرج بعد أربع عشرة سنة من بوّابة أخرى ليس إليهم إنّما إلى بشر غادرهم الحلم.

-424-

كانت أم إبراهيم انتظرت ابنها العائد من موسكو عند البيّاضة. وكانت قد أعدّت الفطائر من أجله. وكانت أخته لمياء قد زرعت البصل ليأكل من ورقه الأخضر الذي يحبّه. وراحت تتأمل الورقات الخضراوات الصغيرات، وتتمنى لو تشدّها إلى أعلى لتنمو أسرع. كان إبراهيم يرسل لأخته التي جاءت تنتظره في منطقة البيّاضة، دفاتر للرسم وعلباً من الألوان المائية مع القادمين في إجازات من بلاد الثلج. وكان أبوه العطّاس يحيط صورته المعلّقة على الجدار بحلقة من فروع الغار، وكانت الأم تشبع الصورة والغار بالبخّور.

-425-

وكانت لمياء في المرّة الأخيرة التي تسلّمت فيها هدية من أخيها إبراهيم، لامست أصابعُ ناقلها الطويلة أصابع يدها، فَسَرت في عروقها كهرباء، احمرّ لها وجهها. وسيماً مرتضى كان، ومن جبل بعيد، يفصله عن جبالها قطيع من الغيم، في الشتاء، وسرب طويل، في الربيع، من الطيور الراحلة إلى الشمال، نحو ربيعٍ تبشّر به أزهارٌ تطلّ برؤوسها من تحت الثلج. وكان حامل الهديّة يكتب الأشعار والحكايات وأشياء أخرى. وكان يتعلّم هناك كيف يوزّع رفاقه على خشبةٍ، النورُ عليها والظلام.

ولم تكن البنيّة تدري أنّ هذه اليد نفسها التي زرعت في نبضها كهرباء لم تغادرها إلا إلى سوادٍ حول العينين، هالتين من الخيبة والمرارة، أنّ هذه اليد هي التي أشاحت بالضوء عن عيني أخيها أربعة عشر عاماً وبضعة أيام. علمت بذلك بعد عامين. آن زيارةٍ أولى لأخيها، كانت تدبرت أمرها اليد نفسها التي دبّت أصابعها، زارعةً ألف سؤال على جسدٍ لم يكن قد تهجّأ الضوء والعتمة من قبل. ولم تصدّق لمياء ما قاله أخوها إبراهيم.

-426-

هوب.. هوب! وراحت الأسئلة تشدّ لمياء أكثر فأكثر إلى الشام. قالت لأمّها وأبيها إنّها تحضّر للبكالوريا أفضل عند أختها جيداء، قاطنة مخيم الزاهرة عند تخوم الشام، بعد رسوبها العامين الفائتين، نتيجة أجواء عين الغار الباعثة على التثاؤب. ولم تكن مضطرة لقول شيء لأخويها الصغيرين. باركها والداها، وأوصيا بها أختها المتزوّجة من رقيب كان يقود سيّارة مرسيدس بلوحة لبنانية، وينام نهاره، بعين واحدة، مستعداً للقفز إلى سيارته، كلّما رن الهاتف العسكري في بيته. كانت السيارة تذهب، في مهمّات خاصّة، إلى لبنان وتعود من هناك، غالباً قبيل الصباح. وكان سائق المرسيدس كثير الصمت، على غير عادة أهالي عين الغار. ولم يكن يقودها أحد سواه. لم يكن الهاتف العسكري يرنّ في غيابه. وفي المرّة الوحيدة التي فعلها الهاتف، خرج منه صوت آسف يخبر الزوجة الشابّة بأن زوجها لن يعود إلى البيت بعد اليوم، وأنّ من مصلحتها ومصلحة صغيرها أن تنساه ولا تسأل عنه، وأن أحداً سيأتي أوّل المساء بمعونة إليها، ويرحل مباشرة. ونصحها بأن لا تثير أيّة ضجة.

-427-

جمدت جيداء في مكانها. لم تصرخ ولم تندب ولم ينهمر دمعها. هي فقط شعرت بوجع في عينيها، وأرادت تحريكهما لكنّ ثقلاً فيهما حال دون ذلك. قامت تبحث عن صورة له، فاكتشفت أن لا صورة له في البيت. بحثت عن بطاقة ما قد تكون عليها صورته فلم تعثر على شيء. حاولت استحضار صورته في عينيها فصعب عليها تذكّر ملامح وجهه. حاولت أن تستحضر دخوله إلى البيت، وكان يفتح الباب بالمفتاح بهدوء وينسل إلى الداخل، وكانت تعلم أنّ الباب يجب أن يبقى مقفلاً، فارتسمت أمام عينيها هامةٌ لا تشبهه في شيء. اتجهت إلى المغسلة، وكانت تقف عادة بالباب المفضي إلى هناك وتتأمله فيما هو يحلق لحيته باعتناء، فعجزت عن رؤيته. عندئذ فقط صدرت عنها أنّة مكبوتة أعقبها عويل مخنوق، وانهدّت على الأرض تحت المغسلة عند باب الحمّام. كانت صورته كأنّما ذُوّبت بالأسيد، فبات من المستحيل تجميعها.

استنجدت جيداء بأختها لمياء فلم تجدها. نسيت جيداء أنّها أذنت لأختها بالخروج للدراسة عند رفيقة لها تقطن الحارة المجاورة. ولم تكن تعلم أنّ سيارة جيب تنتظر لنقلها إلى القابون.

-428-

حين أخبرت لمياء أخاها إبراهيم السجين بأنّ صديقه مرتضى يزورهم عند مجيئه في إجازة إلى اللاذقية، ويجلب لهم الهدايا، ويسأل عنه، ويبدو عليه التأثّر كثيراً عندما يذكره، صرخ إبراهيم من وراء القضبان:

– إياك، لا تسمحي لهذا النذل بتدنيس عتبة بيتنا! لم تقل البنت لأخيها إن أوان الرجاء قد فات، وإنّه ينتظرها عند باب السجن، وإنّه حكى لها عن خشيته من أن يظلمه أخوها كما ظلمه الآخرون، وإنّها من الأفضل أن لا تناقش أخاها، فهو على أية حال في السجن، حيث السجناء يجعلون من الحَبّة قبّة، ويتقاتلون حتى على حبّة زيتون أو سيجارة أو عرض إصبعٍ من المكان، وأن أعصاب أخيها بالتأكيد متوترة، وهو آسف جداً لحاله، ويتمنّى لو أن لديه (واسطة) تخرجه وتريحه من معاناته، وأنّ السجين، مثل أخيها، يريحه أن يلقي بسبب سجنه ومعاناته على أحد ما، كائناً من يكون هذا الأحد، وأنّ الأصدقاء المقرّبين عادة ما يكونون أوّل الضحايا، ولذلك، فعليها أن لا تستغرب إذا ما سمعت منه اتهاماً لهذا الصديق أو ذاك، وأن لا تغضب حتى لو كان هو نفسه حبيبها المتّهم. قالت له لحظتذاك: "حبيبي.. حبيبي.. حبيبي!"، وطمرت رأسها في صدره. ورجاها أن تصغي إلى أخيها إبراهيم، وأن لا تقاطعه وأن تراعي مشاعره وتوافقه في الظاهر على كل ما يقول، وأن تسأله عن حاجاته، فهو صديقه وسيرسل له عن طريق أصحابه كل ما يحتاج إليه، فالأمر سهل عليه طالما هو مقيم في الشام، وأنّه كان يتمنّى لو يزوره، لكنّه تناهى إليه أنّ إبراهيم يقول كلاماً جارحاً بحقّه ويظلمه كثيراً، وأنّ يوماً سيأتي يتبين فيه هذا العزيز على قلبها وقلبه أنّه كان مخطئاً، وعندئذ ستسوى الأمور وستعود المياه إلى مجاريها، وستغدو الأشياء الأخرى أسهل. لم يقل لها ما هي الأشياء الأخرى التي ستغدو أسهل، تاركاً لها أن تخمّن أنّ الأمر يتعلق بعلاقتهما.

–429–

ومن أمام باب السجن، ركبا سيّارة الجيب التي خُصَّ بها مرتضى في مؤسسة الإسكان العسكري، فيما زملاؤه الأقدم منه والأعلى مرتبة يركبون سيارات أصغر منها وأعتق. واتجه بها إلى دارٍ صغيرة في القابون. ولم تكن لمياء تعلم أنّ داره المستأجرة تقع قبالة الدار التي استأجر فيها غرفةً أبناء ضيعتها الثلاثة الشبّان، جلال وفيصل وعليّ. وفي السيّارة عبّرت عن أسفها على أنّ أخاها وقع في حفرة الشك والضغينة، وأنّ أحداً ما هناك يتقصّد تخريب علاقته بصديقٍ طالما امتدح كرمه وشهامته ورعايته في رسائله، وأنّها لولا عرفته على مدى هذين العامين لاستجابت لرجاء أخيها لكثرة ما رأت من ألم في عينيه. ثم صمتت وهي تقول في نفسها:

– يا إلهي، ما أبرعهم في تشويه الناس، وما أبسط أخي! استسلم لهم فغسلوا دماغه دون أن يحس..مهندس وذكي ولعبوا بعقله بهذه البساطة!

-430-

وكان راجي في صحوة بين غيبوبتين تذكّر أوّل مرّة دخلت فيها لمياء جنينة الورد. يومها عبّر عن أسفه على أنّ ورداته ما إن ترى روعة عينيها وخديها وشفتيها حتى تسقط بتلاتها.

– لو يزرع أبوك الورد تحت الشبابيك بدلاً من تكديس قرم الصنوبر التي يأكلها السوس! قال راجي، وكانت القرم تياسره في طريقه إلى خمارة سلّوم، وتيامنه في طريق عودته إلى البيت. وشكت لمياء عناد أبيها وقسوته، وقالت لراجي:

– أكره المدرسة والضيعة.. وأحب الشام. الضيعة مثل القبر! ولم تكن لمياء تدري بعد أن جلال وفيصل سيطبعان على مؤخرتها ذكرى خاصّة للشام، ولم يكن جلال قد قَتل أباه، وأبرق إليه علّوشي راس التيس مهنئاً إيّاه ببراءته بعد.

-431-

جاء في برقيّة علّوشي:" العريف جلال الجقل الذي كان جلال الوحش.. عفواً المقصود جلال البرّي! لا تأتي إلى الضيعة، أبوك صار جقلاً، والقانون لا يحاسب على قتل الجقل. مبروك، وألف الحمد لله على سلامتك، وتهانينا لعموم آل الجقل والضبع والواوي وأنسبائهم وأقربائهم بالسلامة!"

-432-

وفي القابون وبرزة واليرموك والزاهرة والحجر الأسود ونهر عيشة وال(86) والسومرية وركن الدين والعائدين والوافدين.. للثلاثة المقاتلين من عين الغار، علي وفيصل وجلال، رفاق في السلاح، يرتدون بيجامات من الفانيلا، مخططة بالطول، ويشربون المتة، مستندين بعضهم على مرفق يسار وبعضهم على مرفق يمين، فيما هم على حصر بلاستيكية يستلقون، أمام شاشات يتصارع فيها توم وجيري ويأكل بَبّاي السبانخَ، وتفوح من المطابخ رائحة البيض المقلي بزيت الزيتون، وتزم النساء عيونهن نحو بزات أزواجهن المعلّقة على مسامير مدقوقة إلى جدران، ينسلخ عنها الكلس طبقات، يستحضرن نجوماً ونسوراً على (كتّافيات) ذابلة فتطالعهن أسهمٌ متجهة إلى أعلى أو أسفل ومعين على الزند يحبس النجوم، وتخرج النساء إلى النوافذ، يطالعن وجهَ الغبار، وأكياساً طائرة من البولي إيتيلين، وأحذيةَ صغارٍ مقطّعةٍ، وبقايا جرذان مدهوسة، وتأتيهن من خلف أصواتٌ شاكرة " الحمد لله رب العالمين" ثم شخير، ثم ضحكات الصغار يفرحهم تمكّن الفأر من القط، ضحكات تنقطع على " يلعن أبوكم! اخرسوا يا أولاد الكلب"، ويحل الصمت، ويخرجون إلى الغبار.

-433-

هوب.. هوب! ولم يكن مرتضى حبيب لمياء يدري أنّ اثنين من هؤلاء الثلاثة، الذين يترفّع عن إلقاء التحيّة على وجوههم الناعسة في الصباح، سيدخلان بيته على غير ما يخطر بباله المستكين إلى الأمان.

كان جلال قد رأى ابنة ضيعته لمياء تترجل من سيارة الجيب وتدخل الدار الغريبة مع غريب، وسمع صوت الترباس يُغلق باب الدار من الداخل، بعد أن يدور في القفل المفتاح. ويصرخ الحديد موقظاً الحديد.

سأل جلال رفيقيه إن كانا يعلمان شيئاً عن زواج لمياء ابنة العطّاس من المهندس المتغطرس. فأكّدا أنّهما لم يريا دبلة في إصبعها أو إصبعه. فرأى جلال أمراً وافقه عليه فيصل، بينما رجا عليٌّ رفيقيه إعفاءه من المهمّة التي ينويان تنفيذها، فأتاه صمت القبول.

– هذا الحيوان يلعب بعقل البنت! قال فيصل.

كانت للمياء ملامح مهرة تتقافز بانتظار أن تصفع يد الريح مؤخرتها فتعدو، نصف مغمضة العينين الخضراوين، غير آبهة بفالقٍ، جدرانه هواءٌ عابث يبتلعها، جاعلاً نداءها صفيراً يوقظ اللصوص والحرّاس. واستفاق الحراس.

-434-

هوب.. هوب! وفي طريقها إلى عين الغار، توقفت كاترينا لالتقاط راكب جاء لأداء واجب العزاء، وكان المساعد بوعلي أدرك فضيلة الاستسلام. وكانت لمياء، في بيت الساموك، تمسك بيد شمّا وترجوها التوقف عن البكاء. بدت شمّا كما بدت لمياء، رائعتين مع الدمع. وبعد احمرار الوجنتين، استأذنت لمياء الانصراف. كانت سارة ونورا بانتظار لمياء، استعداداً للعرس. ابتسمت شمّا، وتركتها تتصرف مطمئنة إلى ما يشغل بالها عن الموت.

-435-

في ساعة لمياء تلك، كان العسكر قد عادوا من ثكناتهم إلى حجراتهم الناتئة من السفوح المحيطة بدمشق، والملقاة كيفما اتفق على هضباتٍ، الرملُ فيها والشوك سيّدان. وكان الثلاثة العسكريون التحفوا رماداً جاؤوا به من عين الغار إلى الظل الساخن. لم يكن لديهم في حجرتهم ما يحرّك الهواء. كانوا يقارعون الحر بالحر فيبتردون. وبين حين وحين، وبعد صمتٍ طويل، يقهقه أحدهم فيقهقهون. وينقلبون على ظهورهم، راكلين الهواء بأقدامهم المتشققة، كأنما واحدهم يقود درّاجة هوائية في وضع مقلوب. ثم يهدؤون. فمنهم من ينهض ومنهم من ينام. ولكنّ أياً

منهم لا يسأل عن أسباب الضحك وأسباب الصمت. وكان جلال خيّب ظن القائد فيه، حين تملّص من أداء مهمّة خاصّة.

– ما لي قلب اقتل عصفورة! قال جلال. فأعادوه إلى وحدته، وأنّبَ القائدُ الضابطَ الذي أوهمه بقسوة قلب جلال، وبكذبة قتله لأبيه.

-436-

أخرج جلال السكين الكبّاس التي جاء بها من عين الغار، بعد أن وضع بندقيته الكلاشنيكوف في زاوية الحجرة، بينما احتفظ فيصل بمسدسه محشوراً في زنّاره، وخرجا بعد ترددٍ بين أن ينتظرا مزيداً من الوقت، يكفي لضبطه معها في وضعية لا يكون بعدها كلام، وبين عدم رغبتهما في رؤية ابنة ضيعتهما على ما يتوقّعون بين يديه. فآثرا الخيار الثاني. لكن الدقائق القليلة بين الصمت وصخب القلب، ثم الحديد، كانت كافية لينخلع باب الغرفة عن عري.

-437-

وعلا صفير الأولاد في الزقاق، وقَرْعُ التنك وحمحمات النساء وصهيلهن، وخروج عيونهن من ثقوب الجدران، ثم اندفاع الرجال عراة الصدور، إلى الغبار المتصاعد مع ذلك الخليط العجيب من صخبٍ أعقبَ اندفاع سيّارة الجيب، خارجةً من الحي إلى مكان مجهول، تحمل رجلين وامرأة وصرير أسنان.

راح صغيرٌ " شاطر" في الحساب يدفع رفاقه عن مؤخرة المهندس البيضاء، ليحصي عليها عدد البثور الحمراء " عشرة على اليمين وثلاث عشرة على اليسار!" صاح مبتهجاً، تاركاً لرفاقه أن يسوطوا الكيس الأسود الذي حَبسَ فيه المقاتلان خصيتي المهندس وقضيبه. لم يكونا يعلمان أنّ اسمه مرتضى. كانت يدا المهندس قد قُيّدتا إلى الخلف وعصبت عيناه. ثم رُكلَ إلى الشارع، وأغلق وراءه الباب بقوّة. وقفز جلال إلى سيارة الجيب. وكان فيصل قد أدار محرّكها، منقّلاً نظره بين دوّاسة البنزين ويد لمياء الممسكة بمؤخّرتها المعضوضة. كان فيصل قد عضّها في مؤخرتها بناء على أمر جلال.

-438-

هوب.. هوب! فالعض في المؤخرّة طريقة ابتكرتها إحدى نساء عين الغار لضبط سارقي، أو بالأحرى سارقات، بستان زوجها. قبل اهتداء أم مصطفى إلى طريقتها الناجعة تلك، كان بومصطفى قد توسّل لدى المختار حلاًّ. قال له إن محاصيله تتعرّض للسرقة يومياً، وإنّه رأى نساءً يخرجن من بستانه، وأنّه حين حاول إيقافهن صرخن، فانقلبت الآية عليه، وبدا كأنما كان

يحاول التحرش بهنّ. تعرّف الرجل على ملامح إحداهن. وأخبر المختار عنها. كانت زوجة سائق شاحنة عسكرية. فحذّره المختار من شرّ زوجها، طالباً منه التروّي.

-439-

أمّا السارقات، فضحكن حين وجدن صاحب البستان يفرّ مبتعداً، خوفاً من الفضيحة. وظنن بأنّه لن يجرؤ على التعرض لهن مرّة أخرى، حتى لو ضبطهن يقطفن الثمار. ومرّة أخرى، جاء وجئن. وكان الوقت وقت قيلولة. لم يخطر ببالهن أن يكون بومصطفى قد روى لزوجته ما حدث. وفجأة ظهرت المرأة القوية من وراء الدغل، وأمسكت باثنتين من النساء الثلاث في شعرهن، وبطحتهما أرضاً. اندفع بومصطفى للإمساك بالثالثة فاستوقفته زوجته:

– اتركها، فضيحتها عندي، تعال لعندي، كشّف لهن أطيازهن..

نظر بومصطفى إلى زوجته مفزوعاً. ظنّ مسّاً من الجنون أصابها. استماتت المرأتان لحماية مؤخرتيهما. ظن الرجل أنّ زوجته ستطلب منه اغتصابهما. لاحظت أم مصطفى أن زوجها ينظر إلى آلته غير الجاهزة، فصرخت به:

– تعال، العمى في عينيك، هلكت يدي.

حين مدّ الرجل يده صوب سروال الأقرب إليه منهما، راحت ترفس وتنتفض حتى كادت تفلت، تاركةً فروة رأسها في يد أم مصطفى. عندئذ صرخت المرأة بزوجها:

– عضها بطيزها، عضّها، وجّعها، خلّ محل أسنانك يبقى علامة بطيزها! تنفس بومصطفى الصعداء. فهذه المهمة، كانت أسهل عليه. ونظر صوب زوجته، متنفّساً الصعداء. وما إن سحب أسنانه من مؤخّرة المرأة الثانية المشدودة، حتى وجد نفسه ينظر بفزع نحو امرأته. ضحكت المرأة ولم تكن قد أفلتت شعر المعضوضة الثانية من يدها، وقالت متشفّية:

– الفضيحة بعدين، بودري طيزك وحضّريها لعيون الناس!

-440-

وخرج الأولاد يصيحون:

– أوعَ أوعَ يامختار، لا تحشر أنفك بالنار...راح الشتا وإجا الصيف، أهلاً.. أهلاً بهالضيف، قل لرجالك يا لينين ما أحلاها كروم التين!

لماذا التين وما علاقة لينين بمؤخرات النساء المعضوضة؟ لا أعرف. عليكم سؤال بوفيصل عن الأمر. لو قال بوفيصل: " الشتاء ولّى والصيف جاء، شكرا للحزب على هذا العطاء!" لكان مفهوماً أنّ أحداً ما أخبره بما كانوا يقولون في الاتحاد السوفياتي. وأما الأولاد الذين خرجوا فكانوا

يعرفون معنى تعرية المؤخرات. فقد كان سبق أن تعرّضوا لذلك في المدرسة. كم غضب راجي يومها وكم اجترع من الخمر بانتظار لحظة مواجهة الفاعلين.

-441-

ضحك المعلّم حين سمع بقصة أم مصطفى، وفي العلّية، راح يرسم مؤخرات عارية عليها آثار أسنان. لكنّ ذلك لم يطل. فقد تذكّر يوماً غُوفِلَ فيه تلاميذه في المدرسة، وصعد الدم إلى رأسه، ولم يعد يرى في المؤخرات العارية شيئاً مثيراً.

-442-

في مساء ذلك اليوم، انكشفت مؤخرات كثير من النساء اللواتي تجاوزت أعمارهن الثامنة عشرة. لم يفكّر بومصطفى أو المختار بالتقيّد بعمر البلوغ الرسمي. لكنّ الرجل أصرّ، أمام أسئلة المختار التوضيحية، على أنّ إحدى المعضوضتين في حوالي الثلاثين من عمرها والأخرى في حوالي الأربعين، وأمّا التي فرّت فكانت رشيقة، عمرها بين العشرين والخمس وعشرين. لحسن حظ النساء، حدّد الرجل ساعة الواقعة. وبذلك أعفى نساءً كثيراتٍ من كشف مؤخراتهن. كثيرات، حمدن الله على أنّهن لم يذهبن في تلك الساعة لإحضار الماء البارد من العين، وعلى أنّهن لم يستجبن لنداء جاراتهن لقضاء فترة القيلولة تحت أشجار الخرنوب. وأمّا الشكر الأكبر لله فكان على أنّ أزواجهن تواجدوا في البيت في تلك الأثناء. لم تنس النساء المحظوظات شكر بومصطفى على اختياره لساعة يكون فيها معظم الأزواج في بيوتهم. ولم يكن من الصعب رؤية الفرحة على وجوه المحظوظات، وهن يغربلن نساء الضيعة، أيّهن تسرق وأيّهن تملك تلك المؤخرة القوّية التي تحدّث عنها المختار. وكان يمكن الاستغناء عن الكشف. فالبيوت التي لا ترى عيباً في السرقة معروفة للجميع. لكنّ اللعبة كانت أكثر إغراء من أن يَنصح أحدٌ بترك أمر المؤخرات لأهلها. يومها، حلم المراهقون بالفرجة على مؤخرات نساء تكشف في باحة المدرسة.

-443-

لتعرية المؤخرات في المدرسة وقع خاص. أشياء أربعة، كانت تدفع إلى النفور من المدرسة: رائحة أدوية قمل الرأس؛ وأدوية الجرب؛ ووجبة الحليب المجفف الإلزامية التي لو عرفها شالاموف لكتب عنها، كما كتب عن وجبة (الستلانيك) اللعينة؛ وموازين الحرارة التي حشرتها الصحة المدرسية ذات يوم في مؤخرات التلاميذ الصغيرة، في غفلة من أهلهم.. وأمّا الأشياء المحببة في المدرسة فكان أقربها إلى القلوب اجتماع الأهالي في باحة المدرسة، بدعوة من الشيخ القاضي، وهو أكبر الشيوخ سنّاً، لفض خلافاتهم، والحكم في نزاعاتهم، ومعاقبة المدان منهم،

على مرأى من الجميع. كان ذلك قبل مجيء الجند إلى عين الغار. كان يُنادَى على الناس للتجمع، ساعةَ العصر، في باحة المدرسة.

-444-

خيّب المختار والشيوخ رجاء المراهقين. لم يناد أحد إلى اجتماع لكشف المؤخرات المعضوضات. أوكلت مهمّة الكشف للرجال والجدّات في البيوت. في ذلك الليل، ركض الناس حاملين ما تيسر لهم من أوعية صوب البساتين. انتقلت ألسنة النار من بستان بومصطفى إلى بساتين الجوار. إحدى المعضوضات، أُطلق عليها بعد تلك الحادثة لقب (أم الطيز الحجر)، والثانية (طيز القدّاحة)، وأمّا الثالثة فصارت (الطيز الهربانة). أطفأ المزارعون الحريق وكفّ بومصطفى عن زراعة بستانه. وحسناً فعل، فقد خيّم فيه الجند. رابطت فيه وحدة الملازم الأوّل الذي حضر عرس ابن بارود ولم يخرج منه. وكانت الأرض قبلاً للتين والزيتون والفوم والفول والقثاء...

-445-

وكان تنزّل اسم (عتبي عليك!) على زيتونة شمخت بقامتها فوق السفح. وكان المعلّم زرع الزيتونة قريباً من التخم، فنمت بسرعة وكبرت كما لم يتوقّع منها أحدٌ أن تفعل. ولم تعد قامة المعلّم تكفي، حتى لو رفع على كتفيه ابنَه علي الصغير لقطاف حَبِّها من جهة البطمة النحيلة التي بدت في بحثها عن الشمس كأنما تتغزل بشجرة الزيتون. وكانت ابنة مريم، حين يعتب المعلّم على الزيتونة الصعبة الجني، تقول (عتبي عليكَ!) أنت. كان رأس الزيتونة يطلّ على مجرى وادي الغار، وكان المعلّم يتوقف عن قطاف الرأس متملّياً الدخان الأبيض المنبعث من أثافي النسوة هناك. وكان يخيل إليه أن رائحة صابون زيت الزيتون والغار تملأ هواء البستان. وكانت ابنة مريم تجلس، مسندةً ظهرها على جذع الزيتونة، متذكّرة، بعينين دامعتين، الجرح العميق الذي انفتح على عظمة ساق المعلّم حين أعدّ لشجرته مهدها بين الصخر والشوك. وذات نهار رمادي، رُفعت الزيتونة بين أسنان الجرّافة ودُفعت لتتدحرج عبر السفح، فانهارت على البطمة النحيلة. وإذا بالبطمة النحيلة تسندها، مخفّفة عنها وطأة السقوط. ولأمر لم يشاؤوه، تمدد جسدها في الدغل المجاور للتخم، وانهال عليه تراب الجرّافة، فعادت الحياة إلى أخضرها المتخفّي في الحرش.

-446-

وفي ذلك اليوم، الذي وصلت فيه سيارة الصحة المدرسية، ظننا بأنّهم جاؤوا ليفلّوا رؤوسنا بحثاً عن القمل، ويطلبوا منا، كعادتهم، مد أيدينا إلى الأمام والمباعدة ما بين أصابعنا بحثاً عن الجرب. لكنّهم، ومن لحظة وصولهم، بدا أنّ ما سيطلبونه منّا أخطر بكثير من تفتيش الرأس والأصابع.

فيما مضى، كانت امرأة سمينة قصيرة سمراء يرافقها رجل نحيل أطول منها قامة بقليل تأتي إلينا، في مهمات الصحة المدرسية. في الحقيقة، لم نكن نعلم أيهما الطبيب وأيهما الممرض. قالوا لنا مرّة إنه الطبيب وإنّها الممرضة. كانت تعطي أوامرها بصوت مرتفع، وكنا وإيّاه ننفذ. وأمّا هذه المرّة فجاء شابّان، ليس بينهما ذلك النحيل ولا تلك القصيرة السمينة. جاءا، على غير العادة، بروبيهما الأبيضين. كان زوّارنا السابقون يرتدون أروابهم البيضاء، هنا في غرفة الإدارة، وليس كزائرينا الجديدين.

كنّا في غرفة صف واحدة، تلاميذ الصفين الثالث والخامس معاً. ودخل الروبان الأبيضان، تخرج من كمّ كل منهما علبةٌ مليئة بموازين الحرارة. كانت الأكمام أطول مما يجب. وعموماً، كان الروبان الأبيضان أكبر من مقاس صاحبيهما.

استأذن الروبان الأبيضان معلّمَنا نصفَ ساعة لفحصنا فخرج إلى غرفة الإدارة. أغلق أحدهما باب غرفة الصف، وطلب من التلميذات أن يشغلن صف المقاعد الخلفي، فيما جمّعنا، نحن التلاميذ، في مقاعد الصفّ الأول. أمَرَنا الثاني أن نقف باتجاهين متعاكسين، وجوه الصبيان نحو السبّورة ووجوه الفتيات نحو الشبّاك الكبير. كان هناك شباك كبير في الجدار المقابل للسبورة، وكان هذا الشبّاك مصدر الضوء الوحيد.

تزاحمنا في مقاعدنا كي يتسع لنا المكان. بدا أن الأمر أصعب من أن يتحقق. بدا الانشغال على الروبين الأبيضين. جاءا بمقعد من النسق الثاني، وحشراه في الفراغ المخصص للممر. صار لدينا خمسة مقاعد، في كل منها أربعة منّا. تضاحكنا. بقي ثلاثة تلاميذ لم يستوعبهم المحشر. تبادل الروبان الأبيضان النظرات، ثم بادر أحدهما:

– اطلعوا برّه، دوركم بعد رفاقكم! وخرج الثلاثة زعلانين.

-447-

كان علي بن سلمان الساموك من بين المبعدين إلى خارج الصف، ويمكن القول من جماعة الـ(بَعدين)، وكان نحيلاً إلى درجة يبدو معها دون مؤخّرة. ومع أنّه كان في وسط المقعد بين اثنين من زملائه، إلا أنّ اليد الغريبة امتدت إليه وأخرجته، مستبدلةً به فيصل المستدير المؤخرة. وأمّا جلال فكان مع أبيه في الجبل في ذلك الصباح.

-448-

وفي غرفتهم في القابون، وكان الثلاثة المقاتلون علي وفيصل وجلال ينزعون البيجامات المخططة عن أجسادهم، نحو بزتين مرقطتين وواحدة رمادية، سقطت القطرة الأخيرة في الكيل. كان فيصل استدار عن علي ساخراً من ضآلته، فانبطح علي. وبدا كأن جسده تحوّل إلى ألياف. ودون أن يقول شيئاً راح يخبط بيمناه على الحصير. فهم فيصل أنّ عليه مكاسرته. وبات واضحاً لديه أنّ الأمر لم يعد يحتمل السخرية، فانبطح قبالته هو الآخر. لم يكن لديهم طاولة في الغرفة للمكاسرة. وانعقدت القبضتان. وقرفص جلال قبالة عقدة القبضتين. وانفتحت عيناه على اتساعهما، حين رأى يد علي النحيلة تتحول إلى قضيب من فولاذٍ ثقيل، تنهار تحت وطأته يدُ فيصل الممتلئة المتوترة العضلات. ووقف الثلاثة، ولم يقل أحد منهم شيئاً، وارتدى كل بزته، وصفقوا الباب نحو غبار لم ينهض كله بعد.

-449-

في غرفة الصف، أمْرُ البنات كان أسهل فعددهن كان أقل من عدد الصبيان، ولذلك استوعبتهن المقاعد الأربعة الموضوعة أصلاً في النسق الأخير. أُغلق باب غرفة الصف من جديد. وَضع أحد الروبين كرسيّ المعلّم خلف الباب، فيما اتجه الثاني نحو البنات. وفيما يشبه الهمس، بادرنا روب(نا) بأنّ علينا أن نكشف مؤخراتنا لأن التعليمات تقضي بقياس حرارتنا عبر فتحة الشرج، وأنّه هو من سيقوم بإدخال الميزان وقياس الحرارة. وكان على البنات أن يسمعن عَرَضَاً تعليمات الروب. تضاحكنا وتغامزنا بين خجلين ومتسائلين، غير فاهمين ما يجري. وأنزلنا سراويلنا الصغيرة وانحنينا فوق الجزء المخصص للكتابة، كما أُشير إلينا. لم يكن يتناهى إلينا بوضوح ما يقوله الروب الثاني للبنات. كان يهمس بشيء ما. وحلّ صمت قصير، ثم زعقت منى ابنة علي هناك، وراحت تبكي. كانت والدتها ممرضة، وكانت رأتها تقيس الحرارة عن طريق الفم. التفتنا إلى الخلف، فرأينا مؤخّرتين عاريتين. لم تستجب الفتيات كما استجبنا نحن الصبيان. أنّبتنا أمهاتنا كثيراً في ذلك اليوم، ولعنّ مديرية التربية وأجداد المدراء والوزراء. انتهى الفحص الطبي عند ذلك الحد. لملم الروبان الأبيضان موازينهما، وانطلقا مسرعين إلى سيارة اللاندروفر. بيضاء كانت. وفي صباح اليوم التالي، سمحوا لمن جاء إلى المدرسة بعدم تناول كوب الحليب اللعين. وفي المساء، دار معلّمنا على البيوت، متأسّفاً.

– ما تخيّلت أنْ تصل الأمور إلى هذه الدرجة! لعنة الله على هذا الزمان.

-450-

هوب.. هوب! وبين حين وحين، كان علي جاد الصغير يعود مع بائع الخبز ويبتسم للأكياس المنتفخة بطونها.

– معها غازات، منتفخة من البرد؟! يقول للبائع، ضاحكاً، فيجيبه بجدّية

– لا والله يا ابن أخي، الشغلة وما فيها، الخبز طري وساخن، ولهذا السبب الخبزات منتفخات، الله لا ينفخ بطن محب إلا بالشبع والحبل! وينتزع رغيفاً، كان ينتش منه ويأكل، وكان الرغيف لا يزال دافئاً، ويرميه في حضن علي جاد– كل يا ابن أخي.. كل، الخبز الساخن أطيب شيء في الدنيا!.. ويضحك.

-451-

كان بائع الخبز الابن البكر لرجل ضرير يحفظ القرآن عن ظهر قلب. وكان للرجل ابنتان حسناوان. تطوّع الابن الأصغر في الجيش، وتابع الأكبر عمله مع صيادي السمك إلى أن تزوّج الصغرى محاسبٌ في المخبز الآلي، فصار الصيّاد إلى بائع خبز. وكان عيون القط تزوّج الكبرى منهما. وراح ابن الصيّاد يبيع الخبز دون خشية من أن (يبيت) لديه من الخبز شيئاً. فكل ما لا يباع، يعاد في المساء إلى المخبز. فيوزّعه عامل التعبئة المخلص بمعدل رغيف أو اثنتين على أكياس معدّة للتوزيع في غير مكان.

-452-

– إن شاء الله ب يرجع مع بيّاع الخبز! صلّت ابنة مريم من أجل عودة علّيها الصغير، وانصرفت إلى الخوان الملاصق للنافذة، مرقدها الخشن، حيث الأخشاب تتحرك تحت ظهرها تاركة خطوطاً طولانية لا يحول البساط الرقيق دون انطباعها على الجسد.

-453-

هوب.. هوب! واستغلّ القزيّطا لحظةً صَمَتَ فيها المتلاسنون في كاترينا، وخاطب السائق بوسلطان:

– يا سبحان الله، لكل شيء عدّانه وأوانه! اسمعوا يا أوادم كلمة عرزال ما لها فعل، الكلمات المتقاطعة بنت كلب! ما رأيك يا بوسلطان لو تعرزل سيارتك، قصدي لو تعمل فيها فوق المقاعد عرزالاً للأوادم الذين يفضّلون النوم على الكلام. سبحانه قال: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب!

– سبحانه قال هذا الكلام يا فهلوي!؟ سبحانه يقرف رقبتك عن قريب بجاه الحبيب! قال الشيخ الغريب الصغير القد! ثم فطن إلى إمكانية أن يكون رد فعل القزيطا عنيفاً، فالتجأ إلى مغالاة في ضرورة الإيمان وحفظ القرآن، وراح يدعو إلى الجهاد ضد من يشوّه كلامه عزَّ وجلّ. فاكتفى القزيطا بثلاث كلمات:

– صدّق حاله أخونا! وأضاف علي جاد الصغير:

– وحضرتك، معك وكالة من العرش للدعوة إلى الجهاد؟

-454-

وكان تنزّل اسم (العرش) على زيتونة فرشت أغصانها على سبعة مستويات. لم تترك للمعلم أن يُقوّمها بطريقة أخرى، فما كان منه إلا أن استسلم لإرادة النسغ فيها، مخلياً جوفها الأخضر من الياس، جاعلاً للنسيم معابر فيها، وللضوء. وكانت قمّتها قد توقّفت عن النمو بعد الطابق السابع عن خمسة فروع أفقية. وكان المعلّم تمنّى لو أضاف لها النسغ اثنين آخرين. وقال علي جاد:

– لو كان وزني مثل وزن العصفور، كنت فرشت الحصير فوقها ونمت.

– لو كان عقلك أكبر من عقل العصفور كنت فكّرت بطريقة ثانية! مازحه المعلّم.

– لولا كان عقلي أكبر من عقل العصفور ما كنت تمنيت النوم على العرش!

– يقولون استوى على العرش وليس نام على العرش، يا فهلوينا العظيم!

– كل شي ممكن على العرش يا معلّمنا!

-455-

وبعد صلاة الصبح، اتجه سائق الجرّافة بحديده نحو جذورِ ذاتِ الطبقات السبع. وبعد هدير وأنين، مُرّغ الأخضر بالتراب، وتعرّت الجذور فبدت متشابكة كمثل سلّة تتلقّف بيضة ستسقط من السماء.

– العرش! قال المعلّم في نفسه وارتسمت على وجهه ابتسامة يصعب فهمها.

-456-

وفي نصف غيبوبة، على سرير الجد الذي لم يكن أكثر نعومة من خوان ابنة مريم، تذكّر راجي ما قالته ابنة مريم ساعة جاؤوها بالخوان:

– لو يفرع ويورق! تخيّلوا سريري تحت السنديان! وحزن لسماع ما قالته علي جاد الصغير وانتابه القلق. فقد خشي أن تكون أمّه شعرت بقرب الموت، وبقبرٍ لها يكون تحت شجرة سنديان.

واطمأن للحظةٍ حين تذكّر أنْ لا أشجار سنديان في مقبرة الشيخ. ثم انقبض لوجود سنديانة عتيقة عملاقة ترسم التخم بين المقبرة القديمة ومقام العجمي.

-457-

كان الخوان الذي تنام عليه ابنة مريم، صنعه سقّاء المدرسة ونجاّرها ومراسلها وممرضها في آن. وكان السقّاء أخاً شقيقاً لعلي جاد، الذي كثيراً ما داوى مخيلتنا بمراياه. لم تكن هناك وظيفة نجار ومراسل وممرض في المدرسة بالطبع. إنّما كان السقّاء، الذي يتقاضى مرتّباً زهيداً لقاء جلبه الماء من العين وإسقاء العطشى من التلاميذ، كان يُفرحه أن يرسله المعلّم إلى الأهلين، رجاء حضورهم إلى الإدارة أو أن يأتي بولدهم المريض إليهم، ليستلقي في الفراش بناء على نصيحة المعلّم يومين أو بعض أسبوع.

-458-

حلّ السقاء، بمجرد استخدام المعلّم له على اسم الماء، محل الآذن، الذي كان خلاف المعلّم ينهرنا نحن التلاميذ، ويصرخ في وجوه من يخطر بباله أن يراجع إدارة المدرسة من الأهلين. كان الآذن يلعب الدور الذي رآه ناقصاً أو مفقوداً في شخصية المعلّم. وكان المعلّم يبتسم. وأخيراً، وكأن شيئاً لم يكن يحدث، تمكّن المعلّم من تقليص دور الآذن، ما زاد من كراهية الأخير للسقاء. وتابع السقّاء على الرغم من كل شيء الاعتناء بقدم الآذن السكّرية التي بترت بعد حين. " ارفعوه! وقعّدوه على الكرسي!" يأمرنا السقّاء بتودد. وكان صنع كرسياً خاصّاً للآذن يجلس عليه قبالة باب المدرسة الفائض عن الحاجة.

-459-

كان أهم ما في باب المدرسة العتبة. قبل العتبة، أنت ابن أهلك وأمّا بعدها فأنت ابن الحبر المسفوح على ورقٍ، لم نكن ندري من أين يجيء. كان يسري دبيب من النمل على قفا الواحد منا عند تلك العتبة. فهنا يقف الآذن رافعاً عصاه في وجوهنا قبل أن ينقضّ بها على مؤخراتنا.

-460-

وأمّا الأهلون فكانوا يبتسمون للسقّاء حين يدخل بيوتهم، ويأتونه بقدح من عرق التين، وبعده، بخصلة نعناع من حضن الدار. فلم يكن يرضيهم أن يعود الرجل الوسيم إلى المدرسة ناضحاً برائحة يعرفها كل طفل وكل عجوز وكل قطة وكلب في عين الغار.

-461-

كان السقّاء يصون مقاعد المدرسة بما تيسّر له من أخشاب التوت. ولم يكن الأهلون يبخلون بجذوع التوت من أجله ومن أجل المعلّم. كان السقّاء يقوم بعمله في الطرف الشمالي من باحة المدرسة، تحت شجرة إزدرخت عتيقة. وكان يفرحنا نحن تلاميذ الصف السادس أنّ نمسك بقبضتي المنشار الطويل ونتحرّك معه. وكنّا حين يغصّ المنشار، ونعجز عن تحريك شفرته من مكانها، نزمّ أعيننا بانتظار تلقّي صفعة على مؤخراتنا من اليد نفسها التي وخزتنا بإبرة، أمس الأول أو الذي قبله، إبرة أعادت شيطنتنا إلينا. كان يخيّل إلينا أنّ المنشار هو الذي يسحبنا ولسنا من يسحبه. كان السقّاء يعرف جيّداً كيف يفلّج أسنان المنشار وكيف ينظّفها مما علق بها من مسحوق الخشب الرطب. وكانت نشارة الخشب تعبق برائحة الحنين.

-462-

وكانت قلوبنا تملي علينا أن نسقي الذي يسقينا. لم يكن السقاء يطلب منّا شيئاً. كان يبتسم فحسب. فنتغامز نحن، ويذهب منّا من يعلم أنّ حال بيتهم يسمح بملء بطحة السقّاء والعودة خفية عن الأهل. لم يكن السقاء يتناول أي طعام بعد جرعات العرق الذي يدلقها من البطحة في جوفه مباشرة. كان يقرّب أنفه من الخشب، يشمّ رائحته، يزمّ عينيه، ثم يبتسم ويعود إلى صفوه:

– يا الله إلى دروسكم يا شياطين! يصرفنا وينصرف إلى (الفارة) لتسوية سطوح الخشب، أو إلى الأزاميل لصناعة الثقوب اللازمة فيها.

-463-

ويوم صنع السقّاء الخوان لابنة مريم، اصطحب معه أربعة من تلامذته الأقرب إلى قلبه، وربما أمكن القول إلى بطحته، علي بن سلمان وفيصل بن الشاعر وجلال بن الوحش وعلي الصغير. وكانت مؤونة المعلّم من عرق التين تنقص على الدوام. ولم يخطر ببال المعلّم سوى أنّ ابنة مريم تجترعه في غيابه، وتخجل من إعلان ذلك. وكان ذلك يفرح المعلّم.

وخرج السقّاء بصغاره إلى الجبل، حيث أطراف الغابة المحيطة بمقام الخضر تترك لبعض أشجارها حرّية الانفصال.

كان على الأولاد تدبّر أمر الحمير. كان يمكنهم فك رسن أية أتان يرونها في البساتين أو في الحواكير. لم يكن أهالي عين الغار يقتنون ذكور الحمير، خشيةً على بناتهم من أن يرين ما يصعب بعده تدبّر الحال. كان في بيت علي بن سلمان حمارة شابة يبدو على وجهها، حين تهزّه، الاستمتاع بصعود الجبال. ولم تكن حمارة المعلم قد جيء بها إليه بعد، ولم تكن قد فُك رسنها وكُتب على جسدها الرمادي بطلاء أبيض " 1+1= بارودة ". وأخذوا أتان الحجّار. ربط الأولاد

الأتانين، واحدة إلى شجرة قطلب، وأخرى إلى شجيرة ريحان، وجلسوا على صخور مستلقية بين الدغل بانتظار أن يأمرهم السقّاء بفعل شيء ما. وسرح علي جاد الصغير مع العصافير.

-464-

صُنع خوان ابنة مريم من أخشاب مشبعةٍ، من جهة المقام، برائحة البخور، ومن جهة عين الغار، برائحة اليانسون. هناك، راحت الأشجار الأكثر بعداً عن المقام تبعد كل يوم مقدار خطوة عصفور دوري عن احتشاد الأخضر المدلهم.

-465-

كان علي الصغير ملأ بطحةً وأخفاها في جيب مريلته من أجل السقّاء. وكان قَرّب فتحتها من فمه مرتين. في الثانية منهما، تمتع بطعم العرق المشبع باليانسون. خال أنّ رغبته في الإمساك بطيرٍ ما، ستتحقق دون أن يكون لديه ما يصطاد به الطير.. خال أنه هنا بالذات، في حضرة المقام، يكفيه أن يريد.. أن يريد جداً وليس كما يريد عادة، ولن يكون بمقدور ما يريده إلا أن يتحقق.

وغادر علي الصغير مكانه، وصعد باتجاه أجمة لاحظ حركة عصافير فيها. خال أنّه سينسلّ إلى العصفور، دون أن يراه الأخير، فإذا بأصابع يديه تمسك به. أعدّ يديه كلتيهما لهذه المهمّة، وركّز نظره على العصفور الذي كان عليه أن يَثبُت في مكانه ويغمض عينيه. لم يفعل العصفور ما انتظرت منه روح علي الصغير. فسقط الأخير منكبّاً على وجهه. وحين وقف، كان الدم ينزّ من أنفه ومن جبهته. كان إحساسه بالخيبة أكثر إيلاماً من الجرح، الخيبة من عدم صحة نظريته. لم يفقد ثقته بنفسه، لكنه فقد ثقته بالمكان. ومن مكانه، لاحظ دخاناً يتصاعد من حضن المقام. كان الدخان يشي بأن ثمة قرباناً يقدّم هناك، وأنّ لحم الضحية يُطبخ، وسيكون بمقدوره أن يأتي من هناك ببرغل ساخن مع اللحم. لحسن الحظ، لم تنكسر البطحة في جيب مريلة علي الصغير حين سقط، فأخرجها ومسح، بقليل من عرق التين، أنفه وجبهته، كما كان رأى المعلّم يفعل. وكان السقاء في هذه الأثناء يقطع المسافة بين أواخر أشجار الغابة المتراصة والأشجار المبتعدة عنها قليلاً بخطوات موزونة ثابتة.

-466-

بعد أطراف الغابة، تجد البطم والقطلب والزرّود والريحان والخرنوب وأشجاراً وشجيراتٍ أخرى، لكنّك لا تجد أشجار البلّوط. كان السقّاء يقيس المسافة الفاصلة بين أشجار رآها هدفاً لمنشاره ولمّة الغابة المتكاتفة أشجارها واحدتها مع الأخرى. كان يفعل ذلك ليتأكد من أن الشجرة التي

سيقطعها هي الأبعد عن المقام، شجرة لم تعد تنتمي إليه. وكان يفعل ذلك لخشيته من أن يرى المعلّم في خشب الخوان تطاولاً على حرمة المزار. وريثما عاد علي الصغير حاملاً غضارتين مملؤتين بالبرغل، وحصة من اللحم خُصّ بها (المْعلم)، كان السقّاء قد اختار الشجرة التي سيقطع جذعها.

– والله، أنت ابن أبيك، أصيل! ودعا الأولاد لتناول الطعام، متابعا القول:

– الأكل بعد الشغل أفضل، لأن الشغل بعد الأكل صعب، لكن البرغل ساخن و" النطرة عَ الغضارة بتفقّع المرارة!" ياالله يا شباب.

كم كان يفرحهم مثل هذا النداء! يومها شرب كل منهم بأمر من المْعلّم جرعة من العرق.

-467-

وفي المساء، أقفلوا راجعين إلى عين الغار، وراء أتانين محمّلتين بنصفي جذع ثخين. هبطوا السفح في صراع مع خطواتٍ مترددة. أرادوا البقاء أطول، لكن لم يكن بينهم من يرد الشمس إلى كبد السماء.

وفي طريق عودتهم، وفي مكان ضيق من الدرب المحفور في السفح، يكاد لا يتسع لقوائم أتان، مال حمل السنديان الأخضر الثقيل وكاد يُسقط الدابةَ معه في الوادي. فأسرع السقّاء إليه، وراح يرفعه بجسده النحيل. خيّل إليهم أنّ السقّاء سينهار تحت حمل الدابة الثقيل، وأنّها بدورها ستنهار عليه. وقفوا كاتمين أنفاسهم خشية أن يؤدي زفيرهم إلى سقوطه في الوادي. ابتسم السقّاء، حين تمكّن من إعادة الحمل إلى موضعه وموازنته على ظهر الأتان، وأمرهم بصوت متقطع، ولم يكن قد استعاد أنفاسه بعد، أن يمسكوا بطرف الحبل فيما انشغل هو بتثبيت الحمل على ظهر الدابة.

-468-

وعلى مدى عشرةٍ من أيام الشتاء، ترك السقّاء للأولاد أن يتوهّموا صناعة الخوان معه، من الجذع الذي استحال إلى ألواح. راح علي جاد الصغير يدلّه على المواضع الخشنة في الألواح. كان يعلم جيّداً أي بساط ذلك الذي سيوضع على الخوان، وأي فستان رقيق لباس ابنة مريم الشتوي. وأمّا الغطاء فلا علاقة للخوان به. كان ذلك منذ سبع شتاءات أو أكثر، وكان البرد يعرف كيف يبيت على سطح الماء.

-469-

كفرت ابنة مريم بأخشاب الخوان، مرّاتٍ، واستسلمت لها مرّات. لكنّ تعبها كان ينتصر في نهاية المطاف فتغفو. واليوم أيضاً غفلتْ عن قلقها، وجفلتْ حين اكتشفت غفوتها. لم تكن تعلم كم مضى من الوقت، لكن الوقت الذي مضى كان كافياً لخروج المعلّم إلى الجبل، خروجاً لا يشبه سواه.

-470-

قبيل خروجه، صحا المعلّم على شعور بأنّه، ودون إرادةٍ منه، يعدّ العدة للغياب. راح يحزنه أن يرى أشياءه الحميمة يُعبث بها. وتلك الأشياء التي طالما أرادها خَفيّةً حتى على ابنة مريم، راح يراها مكشوفة أمام عينيها. وفي العلّية، راح يعاين لوحاته الصغيرة، فأخرج واحدة منها من بين رفيقاتها وقام بتمزيقها..

-471-

لوحات المعلّم الصغيرة المرسومة بالباستيل لا تشبه لوحات أحد آخر. فالوجوه فيها، في حال وَجْد، والأجساد العارية في حالة تداخل سحري. واللوحة التي مزّقها كانت مليئة بأجساد عارية، من ماء...وفكّر بتمزيق لوحات أخرى، لكنّه أحجم عن ذلك حين تذكّر ساعة كاشفه علي الصغير بمعرفته بما يرسم، معتذراً له عن الفضول الذي دفعه إلى إخراج اللوحات من مخبئها.

امتدح علي لوحات أبيه كثيراً، ورجاه أن يحتفظ بها من أجله، مؤكّداً أن ليس في أجساده ما يخجل. فليس الجسد بمعناه المدنس هنا إنّما بمعناه القدسي الطاهر، والجنس هنا رمزي صوفي بدلالة الوجد المرتسم على الوجوه. وعد المعلّم ابنه بأنْ يحتفظ بالرسومات لأجله. كان يسخر من تسميتها لوحات.

وابتسم المعلّم لواحدة منها، وأعادها إلى محشرها.. ثم تمشّى على السطح حافي القدمين، مردداً صلاته السرّية، داعياً بعودة ابنه سالماً، وبنوم هادئ لابنة مريم. وفي الفجر خرج.

-472-

ولمّا أزفت ساعة الانصراف عن كل شأن آخر غير العرس. نفض العائدون من بيت الساموك غبار الأسى عن ملابسهم، ومضى بعضهم إلى الساقية للاغتسال، قبل ارتداء ملابس جديدة من أجل عرس ابن بارود.

وليس محبّة بأصحاب العرس كان يأتي الناس ويدبكون. فالعرس للناس وليس لأصحابه. والناس يشاركون فيه من أجل أنفسهم وليس من أجل أحد آخر. ولا يندر أن تجد هناك من لا يلقي التحية على العريس أو أهل العريس أو العروس، وفي الوقت نفسه يكاد لا يغادر حلقة

الدبكة، وقد يندفع في أوج حماسته لتقبيل العريس، دون أن يعني ذلك أنّه سيُلقي عليه التحية غداً أو بعد غد حين يراه. فالعرس شأن والحياة اليومية شأن آخر.

-473-

وكانت ثلة من الشباب تباحثت على مدى ثلاثة الأعراس الأخيرة بتشكيل فرقة للدبكة في عين الغار. راح الشباب يجتمعون في غرفة راجي، بحثاً عن طريقة لفرحٍ جماعي جميل. خطرت ببالهم فكرة تشكيل فرقة دبكة حين علموا بحب راجي لناهلة. وفرحوا لفكرة أن يقيموا له عرساً يليق به. ولم يفتح راجي عينيه اليوم. وكان المعلّم شعر في غرفة راجي بضيق في الصدر، وألم في الكتفين، صَعُب عليه تناسيه، فانصرف من حزنه على أخيه إلى قلقه على نفسه.

-474-

وقبيل بدء الدبكة، كان على الأولاد حمل كراسي الخيزران من بيوتهم، ووضعها في أفضل مكان ممكن حول (المرسح). هكذا يسمّون ساحة الرقص في عين الغار، لتكون ابنة عم المسرح. كنت تجد هنا قليلاً من الخيزران وكثيراً من خشب التوت. كان على الأولاد احتلال مكان للكراسي قبل بدء العرس بساعات. فالدائرة ضيقة، وعدد الكراسي التي يتسع لها الصف الأوّل محدود. وكان على الأولاد، حراسة الكراسي التي سيشغلها أهلهم في المساء. فما أسهل أن يقتلعها من موضعها أحد الطامعين بالمكان. بيد أنّ الأهم من ذلك كلّه هو تحديد المكان الأنسب للكرسي. وهكذا، فكان على الأولاد، أن يخمّنوا، أيضاً، بجوار من يقبل أهلهم الجلوس وبجوار من لا يقبلون. فالجلوس هنا ليس مجرّد وضعية جسدية، إنّما هو انتماء. وكان الأهل يفصحون أحياناً عن أسماء الذين يفضّلون الجلوس بقربهم. لكنّهم كانوا يحجمون عن تناول ذكر خصومهم بأسمائهم.

-475-

الشامان، يحرق قشةً هنا من أجل أن يحترق بيت هناك، يحبس فأراً هنا من أجل أن يُحبَس أحدٌ ما هناك، يلغي اسماً هنا من أجل أن يُلغى حامل الاسم هناك.

-476-

لم يكن عسيراً على الأولاد تحديد مكان الكراسي الأفضل لأهلهم. فسكوت الأهل عن ذكر أسماء من لا يحبّون، لم يكن يغيّر في واقع الأمر شيئاً. كان ما يتناهى إلى سمع الأولاد، عَرَضاً، من أحاديث الأمسيات كافياً لتحديد درجات التفضيل.

-477-

للاسم حضور طاغ لا تُدرَك عظمته إلا عند محاولة إلغائه. كان إلغاء اسم أحد ما، يشكّل جذراً مولِّدا لعشرات الأسماء. وإلغاء الاسم، لا يتم دفعة واحدة. إنّما يفقد الاسم بالتدريج تاجه، فصولجانه، فشاراته، فبزّته..وليس من قبيل أن محمود يصبح محيمود وجميل يصبح جميّيل الكر..لا، فهذه كلها أشياء خفيفة ولطيفة ومحببة تحصل يومياً. فكثيراً ما ترى شخصاً يخاطبه آخر، وكلاهما مبتسم: يا كر، يا بهيمة، يا جحش..! يمكن لأم محمود أن تصبح أم محيمود، ثم فاطمة، ثم فطيمة، ثم (الشَيعه) فطيمة، ثم تكتسب اسماً ما مشتقاً من شكلها، كأن تنادى بـ (البقرة) أو (أم طيز). ويمكن لتدهور الاسم نحو الإلغاء أن يمرّ بالزوج، إذا كانت الزوجة هي المعنية بفعل العداء. فتتحول سلمى، مثلاً، إلى (امرأة بومحيمود)، ثم (امرأة الكر)، ولا يُنسى أن يقال هنا " سامحني يا ربّ، والله الرجل آدمي، ظلمناه".. يقال ذلك تخففاً من الذنب، كما نقول لنملة قبيل أن نسحقها على جدار بيتنا "سامحينا، مضطرون"!

-478-

ومع وصول كاترينا، في رحلتها الأخيرة من اللاذقية إلى عين الغار، سيبدأ طقس غسلها استعداداً للعرس. لن يكون لأحد حاجة بكاترينا للانتقال من مكان إلى مكان. فالجميع هنا، وكل شيء سيتم هنا. ولكاترينا، حلّتها في الأعراس. وبحلّتها، سيكون عليها أن تدور ثلاث دورات في عين الغار. وسيكون عليها أن تقل أولاد عين الغار في دوراتها الثلاث دون مقابل. سيقود بوسلطان الحافلة النظيفة المزيّنة والمضاءة الأنوار. وستجلس أم سلطان إلى جانبه، ومن حولهما سيجلس أولادهما. وبعد ذلك ستمتلئ الحافلة بالأولاد. وستعلو زماميرها، أثناء خطوها البطيء، في شارع عين الغار الدائري الذي يبدأ بالساحة وينتهي إليها. زمامير كاترينا هي زغرداتها.. ثم، ثم سيجد لها بوسلطان مكاناً وراء صفوف الكراسي، ويضع لنفسه ولزوجته ولمن يحب من الركاب كراسٍ على ظهرها، ويتابعون من هناك الدبكة ويطلقون الرصاص.

-479-

أخيراً، وضع الصبيان الكراسي، بما يتيح لهم الهروب من العيون إلى حبيباتهم الصغيرات، وبما يحقق معادلة صعبة أدخلوا أنفسهم فيها كطرف غير قليل الأهمية. فبات على الكراسي، أن تضمن عدم وقوعهم في شَرك العيون.. بات عليها أن تعدهم بذلك. كان الصبيان على يقين من أنّ انكشاف هواهم على النساء سيكون كفيلاً بإطلاق تفاعل الإلغاء، التفاعل ذي الروائح الكريهة.

-480-

وإذا ما كان العاشق من عائلةٍ معتبرةٍ وكانت الفتاة من عائلة أقل شأناً، فسيلغى وجودها بحكمة مثيرة للغثيان. يكون الإلغاء، في هذه الحالة، بطيئاً، ومحسوباً، بحيث لا يخطر ببال أي من الأولاد، البعدَ الطبقي أو العائلي للإلغاء. فالثورة آخر ما يريده الكبار. ثمّة كيمياء، هنا، تولّد دخاناً قاتلاً للنار. ولكن ليس كل نار. و(تَنسّ) الأسماء وتنزّ جروحها، وينظر الكبار إلى وجوههم في المرايا ويسدلون أجفانهم على رضى عن النفس، ويبتسمون.

-481-

في المرحلة الأولى، يُؤتى على ذِكر الفتاة عَرَضاً، كلّما التمّت العائلة حول مائدة الطعام. يوضع اسم الفتاة في سياقِ حديثٍ سلبي، دون أن يُشار إليها شخصياً بالسلب، بحيث يُجرّد كل من يخطر بباله أن يعترض على ما يقال من سلاحه، إلا إذا خطر ببال الفتى أن يدخل في لعبة تحليل نفسي مع أمه وأخواته الأكبر من سناً، ينتهي من خلالها إلى هدفهن غير المعلن. الأخوات، غالباً، يلتقطن لعبة الأم، ويساعدنها في إنجاحها. دون أن يعلن أي طرف للآخر شيئاً ممّا يدور بخاطره.

وفي المرحلة التالية، يأتي دور الخالات. إحدى الخالات لا بد من أن تلتقي صدفة بإحدى أخوات الفتاة التعيسة أو بأمّها أو بجدتها أو بخالتها.. وهنا، يتم الحديث عن لقاء طيّب وتحيات. يتم، هنا، الإطراء على من جمعت الخالة الصدفة بها. ثم! ثم يقال مثلاً: " لكن المسكينة بشعة! يا أختي بنات هذه العائلة يتبشعن في كبرهن!".

وأمّا في المرحلة الثالثة، فلن يصعب استحضار حوادث مؤسفة من سجل عائلتها. كأن تكون جدّتها قد اغتُصبت من قبل جدّها. هي لم تُغتصب، ولكنّها لم تكن تريده زوجاً لها، وكانت تخافه وتنفر منه، فما كان من أمّها، أي أم الجدة، إلا أن أمسكت بها، في اليوم الثالث، ودعته لإتيانها عنوة، قبل أن تفلت من بين يديها... ولم يكن يخطر ببال الأمهات والخالات أن عيون الأولاد تمتلئ بأسئلة عن تلك الألغاز، فيوغلون في البساتين متلمّسين طراوة الليل.

-482-

وبدأ العرس الذي أُعدّ كلّ شيء من أجل أن يستمر ثلاثة أيام. وراحت خصلات من نار (المرسح) تنفصل عن أمهاتها إلى السماء. في كل عرس، لا بد من نار لإحماء الطبول. واشتد اللظى. ومع اشتداده، راح قرع الطبل يشتد. وراح مزمار جمعة حزّيق يحوّل خدر الرؤوس إلى حركات راقصة. وراحت أقدام الراقصين ترسم دوائر في الهواء قبل أن تدق الأرض.

-483-

ومضت الساعة الأولى من العرس متقطّعة مضطربة، كما في كل عرس.

في الساعة الأولى، يقتصر الرقص على أهل العريس وأقربائهم، وعلى بعض الشباب الذين لم ينالوا اعتراف شيوخ الدبكة بعد. تمضي الساعة الأولى على هذه الشاكلة، ريثما تكون الخمرة قد دارت في الرؤوس، ويكون أبناء العائلات المعتبرة قد حضروا. الخفيفون، هم من يأتون أولاً. تمضي الساعة الأولى دون إطلاق نار. أمّا بعد اكتمال حلقة المتفرجين والراقصين فحديث آخر. هنا، يبدأ استعراض (الدبّيكة). تدفع كل عائلة بدبّيكها الأوّل إلى (الأوّل) ليمسك برأس الدبكة. على الأوّل، قبل أن يُدوّرَ المنديلَ المفتولَ في يده، في مباراة مع الزمّار والطبّال، وأن ينقد الزمارَ لـ(يشوبش) الأخيرُ تحيةً لهذا وذاك. وهنا تبدو واضحة الانقسامات. فكل يحيي جماعته، دافعاً نحو الزمّار بأوراق نقدية، تكبر أو تصغر، تبعاً لوزن المُحيَّى. وهنا، تبدأ لعلعة الرصاص. فمع كل تحيّة، يطلق واحدٌ ما أو أكثر من معسكر الدبّيك الأول رشقات رصاص في الهواء. القواعد هنا، يعرفها الجميع، ولا يخل بها أحد. ذلك أنّ من شأن الإخلال بها أن يفسد العرس، وهو أمر يقف الجميع دون وقوعه. فعين الغار، تنتظر العرس ليس أقلّ مما ينتظره أهل العروسين.

على (الأول) أن يسلّم الأوّلوية بعد دورة أو اثنتين لغيره. ومع غيره، ينطلق رصاص جديد. وإذا ما بدا أن الرصاص الثاني فاق الرصاص الأوّل لعلعة، انطلق رصاص في مواجهته، دون انتظار دور آخر في الدبكة.

-484-

ليس دائماً كانوا يطلقون الرصاص. وليس لأن التقليد كان يقضي بأمر آخر، إنّما لأنّهم كانوا يفجّرون الديناميت. قبل قرابة عقد من عرس ابن بارود، لم يكن لدى الأهالي بنادق آلية يتباهون بها في الأعراس. لكنّ الأعراس لم تكن تمضي دون رعد ونار.

-485-

كان فيصل يحب شمّا أخت علي. وكانت شمّا تنتظر رسائله، ببرود ظاهر ولهفة خفيّة، كنت أشعر بها دونه. كنت أوصل لها الرسائل التي يكتبها فيصل أو نكتبها معا. وكنا نُدخل فيها شيئاً من قصائد بوفيصل، بعد أن ننزع منها البذاءة كما ننزع أشواك قنافذ البحر من أقدامنا. كان فيصل يُعبّر عن عواطفه بلغة عسكرية وكنت أترجمها إلى اللغة المدنية. كان يعجبه ذلك، فيضحك مسروراً عندما يكتشف أنّه هو الذي قال ما هو مكتوب بين يديه. يوقّع الرسالة وأحملها إلى شمّا.

-486-

وذات ليل، جاء فيصل إلى شمّا. غادر دبابته وجاء إليها. وكانت أمّه نذرت جدياً أبيض على اسم مقام الخضر من أجل أن تتكحّل عيناها برؤياه، لكنّ العجوز لم تر ابنها في ذلك الليل. جاء ملتاعاً لرؤية شمّا. وصل بُعيد منتصف الليل. كان الجميع في بيتنا نياماً وكنت أجلس تحت عريشة الدوالي أقرأ عن أيّوب، في نسخةٍ من الكتاب المقدّس لم أعدها إلى المعلّم حتى اليوم، وكانت ابنة مريم طالبتني بإعادتها مرّات..أقرأ على ضوء مصباحٍ بحري تكوّمت الفراشات المحروقة عند قاعدته. كان ضوء المصباح مغرياً، يجذب الفراشات من بعيد ف(يحترقن) على عتبته، أو (يحترقون). فذكر الفراشة فراشة أيضاً. لكن أحداً على أسطحتنا لا يهتم بجنس القتيل المخدوع بالضوء.

جاء فيصل وأخبرني بأنّه سيموت إن لم يرها قبل الفجر. وأنّه سيغادر بعد ساعتين مع رفيق اصطحبه في سيارته العسكرية. كان عليهما أن يعودا إلى ثكنتهما قبل التفقد الصباحي، وكان يخجلني أن ينتزع همسي شمّا من بيت أبيها المكسور الظهر.

-487-

وكانت روح سلمان تبترد بثلج أيوب. كان الشيخ يأتي بثلج أيّوب إلى سلمان كلّما زاره، فيغفو الكسير على دمعة وَجْد.

-488-

وكنت عدت من أربعاء الماء مع أبناء ضيعتي الذين ما كانوا يكتفون بقراءة الآيات العشر الأولى من الأصحاح الثاني في سفر أيّوب، بل كان يعجبهم الأصحاح الثالث أكثر من سابقه. وكانت ابنة مريم ترتّله. كانت حفظته عن أبيها الشيخ: " ولا كان نهار ولدت فيه، ولا ليل قال: حبل برجل- وكانت ابنة مريم تضيف من عندها: ولا بامرأة-. ليكن ذلك النهار ظلاماً لا يتعهّده

الله من فوق ولا يشرق عليه نور. يتولاه الظلام وظل الموت، وعليه يحل السحاب وتباغته كواسف النهار. ليت السواد أمسك ذلك الليل فلم يحسب بين أيام السنة ولا دخل في عدد الشهور. ليته كان عاقراً ولا يسمع فيه هتاف الفرح...وحين تصل ابنة مريم إلى: لماذا لم أمت من الرحم أو فاضت روحي عندما خرجت...حتى إذا بلغت: لماذا النور للتعساء؟ تصيح ساخرة:

– ويقولون: أيّوب ما كفر!؟

-489-

ومع مجيء فيصل، أغلقتُ العهد القديم وأطفأتُ مصباح الكاز، وانطلقت إلى بيت شمّا، وكان الشيخ زار أباها في المساء. فراشة ما ستعيش يوماً آخر بفضل شمّا. وبعد سويعة علا صوت شخير محرّك سيارة الجيب العسكرية. غادر المقاتلان.

-490-

وساعة سقط المعلّم على صخرة بيضاء، رفعتها أصابع سنديانة عتيقة خارجة من التراب، كما يرفع صديقٌ صديقَه البحّار الجريح من كتفيه ليرى البحر قبلما يغمض عينيه إلى الأبد، ساعتها اتكأتْ الصخرةُ برأسها إلى الجذع الدافئ، وراحت تتفحص موجات الألم على وجه المعلّم، وترى السؤال في عينيه، فتدعوه إلى النظر صوب البحر. وكان قطيع من الموج الأبيض يأتي من بعيد، ويختفي في مكان ما خلف أواخر أشجار الخرنوب المطلّة على البحر. ساعتها، لم يتسع فضاء البيت للضحك ولم يكن أحد قد علم بسقوط المعلّم بعد.

-491-

وكانت ابنة مريم، على غير عادتها، استيقظت متأخرة عن خروج المعلّم، في ذلك الصباح الذي سقط فيه. فحين استيقظت، كان ظلّ السنديانة قد بدأ يستقل عن ظل السفح. كانت ابنة مريم قد أشعلت النار في الأثفية تحت الغسيل، وصعدت إلى السطح، وراحت تتملى بعضاً من الطريق الصاعد إلى الجبل تضيئه الصخور البيضاء، فلم تره. راحت تنتظر خروجه من ظلمة الدغل، لكنّه لم يخرج. راح يتراءى لها أن الدغل هناك يتحرّك، وكان الهواء ساكناً كما لم يكن من قبل.

-492-

وفي طريقها نحو أولى درجات السلّم المفضية إلى فسحة من الإسمنت، لم يتناولا عليها القهوة هذا الصباح، رأت ابنة مريم تلك المرأة التي كثر حضورها في حفلات ممازحة المعلّم. لم

يكن إحضار الخبز من فرن عين الغار، يستدعي مرور عزيزة من أمام بيت المعلّم كل صباح، ولا زيارتها للعجوزين أبويها تستدعي ذلك، لكنّه الطريق الذي يخرج منه المعلّم إلى المدرسة وإلى الجبل.

-493-

لحظة سقوطه، نده المعلّم " يا خضر!". وكانت الحُفر في بستانه تسابق الصخور المفتتة إلى عينيه. كان طريق المزار لا يزال سالكاً رغم قِطع الصخرِ التي أعاقت المرور فيه. وكانت زيتونة (المزهزهة) قد شلع نصفها وألقيت جثّة الغصن على الطريق، قبل أن تجرّ أمّه إلى النار، وحال لون البطم والعشتم والقطلب والخرنوب والزرّود إلى الرمادي. وكان المعلّم شعر بضيق في الليالي العشر الأخيرات، فراح قلبه يردد صلوات أفسح فيها مكاناً للزيتون، وللصغار الراحلين عنه، وللماء الممنوع، وللطباشير والحبر.. فيما العينان ساهمتان في ما وراء العتمة.

لا أحد في بيت المعلّم كان يعلم متى يغفو رب البيت. لكنّهم كانوا يعلمون بأنّه يتناول القهوة مع ابنة مريم كل فجر.

– فأل خير! كان يقول لها حين تندلق القهوة من الفنجانين في طريقها إليه، فتجيب:

– أي خير برجفان اليدين!

-494-

وكان المعلّم يخرج إلى السماء لتبديد الضيق، يجعل من غمّه حصيات صغيرة، يقلّبها بين أصابع يديه، يقذف بها إلى الهواء، ويتلقّاها من جديد، ويعيد ترتيبها، ويلوّنها، ويرسم عليها أعيناً وشفاهاً وأنوفاً، يبتسم لها وتبتسم له.. ثم يلقي بها إلى الحاكورة ويعود إلى تلاميذه...لكنّ حصياته لم تفده في العشرة الأخيرة المظلمات.

حاول المعلّم أن يجعل من همومه حصى (منقلة). وبدأ اللعب، وبدا له في أوّل الجولات أنّه يهزم خصمه، حتى إنّه ابتسم لانتصاره. لكن الحصيّات، راحت تتراكم في قبضة خصمه، وتكشّر له عن ابتسامة ساخرة من هناك. حاول تلوينها بالزمزريقي، بالقطلبي، بالدفلي، بالعصفري..لكن الألوان كلّها راحت ترتد إلى الأسود، والحصيّات.. الحصيات التي كثيراً ما زرعت فيها يداه كهرباء السكينة، راحت تُجرّح أصابعَ يديه، ثم راحتيه، ثم تمزّق الجلد فتتوغل في الشرايين.

-495-

ومع وخزة حادة وسط الصدر، سبقها شعور بالضيق وتعرّق بارد شمل أعلى الجسد كلّه، انهدّ المعلّم على صخرة (المِضلة). وليس من الظل اسمها إنّما من التضليل.

-496-

غير بعيد عن صخرة المضلّة، كان الصيادون يكمنون للبواشق. كانوا يضللون الطيور الجارحة بعصافير حيّة يضعونها تحت الشبكة. هي بضعة من عصافير الدوري مربوطة بخيط إلى يد صياد، عيناه تبحثان في قبة السماء عن باشق، فإذا ما رأتاه شدت اليدُ خيطَ العصافير، من أجل أن ترف بأجنحتها وتزقزق، كأنما هي تنده للباشق ليخلّصها من الخيط.

لم يقل للعصافير أجدادُها شيئاً عن خيطٍ إذا ما شُدّ ماتت. فكلّ من يُشدّ خيطه، تُخطف روحه، ولا يُتركُ له أن يخبر أولادَه عن الخطر، ليتوارثوا معرفته ويتربّوا على الحذر منه وتجنّبه. وحين دُنوّ الباشق، تدرك العصافير معنى الخيط، لكنّ أوانها وأوان الباشق يكون قد فات، هي إلى الموت، وهو إلى القيد.

يحاول الباشق الإفلات من الشبكة دون جدوى. فمع كل انتفاضة يخسر المزيد من قواه، وتتضاءل أمامه فرص النجاة. ثم تُقدّم له العصافير، التي أُوقعه نداؤها في الشِباك، ليأكلها، وتغطى عيناه بطمّاشتين بانتظار الغد. وفي الغد، يؤتى به إلى باحة المدرسة، ويتلقّى أول دروس الطاعة: الانطلاق مربوطاً بخيط إلى مسافة محددة، والعودة إلى يد مالكه. لا يحتاج الكاسر وقتاً طويلاً حتى يفهم وضعه الجديد، ويشكر على طريقته وليّ نعمته.

-497-

حاول المعلّم النهوض، لكنّ الصخرة شدّته إليها. واندلق سائلٌ حامض من فمه، فاستنجد بذراعيه القويتين للابتعاد عن السائل، كي لا يلوّث قميصه الأبيض الخارج إلى جسده من غسيل الأمس. وأفلح بالابتعاد، لكن الصخرة أعادته إليها، فاستسلم لها. وراح الألم يصعد إلى الكتفين. صلّى من أجل أن يأتي أحدٌ ما من صيّادي البواشق، فيخلّصه من مخالب نسر انقضّ على قلبه من أعالي السماء.

- يا خضر، أملي فيك! يا خضر لا تتركني أمت على الطريق! وأغمضَ المعلّم عينيه.. لكن الألم في صدره لم يترك له أن يغفو. أدرك المعلّم أنّه ممتحن في عضلة القلب. القلب للخضر وسبق أن نجح في الامتحان، وأمّا عضلته فللتراب. ابتسم المعلّم " القلب أكثر من قلب"! واستسلم للصخرة، واثقاً من أنّ أحداً سيأتي لإنقاذه من كل بد. كان يدرك أن العودة مشياً إلى البيت ستؤدي إلى هلاكه. لكنّ الباشق تحرّك.

-498-

كانت ريح مراهقة دخلت باحة المدرسة، دون استئذان، ودارت هناك دورتين، هازفةً ريش العصافير، ليعلو فيهبط في غير مكان، فيما الوبر يتابع طيرانه إلى حيث لا أحد ينتظره من الأهلين.

-499-

ترتسم ابتسامة ساخرة على وجه المعلّم. فالريش، حين يطير مع الريح ويتناثر على الأرض، ينذر بموت أو انهيار ونهاية لشيء ما طيّب.. لكنّها المدرسة، والشمس تختلس النظر إلى الريش من بين أشجار السرو! وريش كثير متنوّع يأتي بربحٍ من عالم الغيب! لكن، من أين للربح أن يأتي؟ ولمن ينتظر خبراً طيّباً أن يلتقط ريشةً واحدة بيضاء في حلمه، فإذا ما التقطها جاءه الخبر الطيّب من مكان ما. ولا تلم شريكتك إذا نبت لك قرنان! فالعلّة في ريشة حطت على فراشك في الحلم.

ويتابع المعلّم رحلة الريش، متذكّراً كم لعب بالأبيض منه في أحلامه. فاللعب بريش أبيض في المنام يعني تغييراً جدّياً تأتي منه الفائدة. وقد لا تأتي، بل من أين لها أن تأتي!؟ ويسخر المعلّم، وينظر إلى العسكر في باحة المدرسة يهزفون الريش ليحط على الأرض، خبط عشواء، ويهرفون. ويطير الريش، وتطير معه عينا المعلّم ويحتشد الغيم فيهما. كثير مما كان يطير ريش أسود. الريش الأسود يأتي بالحزن لمن يعثر عليه، خلاف من يملكه أو يراه على جسده فله العزّة والعزّ..أليس ملاّكو الريش الأسود من ينثره ليعثر عليه البشر في سعيهم هنا وهناك؟ وليتهم تركوه يطير بعيداً. فمع تطاير الريش الأسود، يُقتَل الشرير ويتبدد الشر. تمنّى المعلّم لو تتسع باحة المدرسة لتربية النعام فبيضة نعامة واحدة تغني عن عشر بيضات دجاج. وريشة النعامة جلاّبة سعادة مصدرها الحبيب. وابتسم المعلّم، فقد راحت الشمس تضوّئ الريش فتبرق هذه وتتلألأ تلك. الغواية قادمة. برّاقة تكون. تأخذ الأبصار وتسلب الألباب وتنوّم العقول. غواية وإغراء!! غواية مَنْ لمن؟ المبرقع هنا والرمادي والبنادق! ولو قصرت الخديعة والغواية على الأسرّة لهان الخداع والإغواء.. ولكنّ سفل بطوننا يشغل رؤوسنا أكثر من سفل إنسانيتنا!. المعلّم حزين. وأمّا من يرى ريشة بين فخذيه، وينتزعها فيأتيه الأذى من شهوة الجماع، أو من جماع يقوم على اشتهاء. وكأن الجماع يتم دون اشتهاء!. يضحك الحزن في عيني المعلّم. فلا تنزعها إذن، وعش هواك على هواك.

-500-

يبتسم المعلّم ساخراً من معاني الريش في المنام، مستطلعاً وجوه العسكر الذين جاؤوا لأخذ دفعة جديدة من شباب عين الغار. ويعود إلى باشقه الذي تركه على كرسيّ أُعدّ من أجله في غرفة الإدارة. كان المعلّم قد جعل بين جدارين في زاوية الغرفة، على يمين مكتب المدير، عصاً، وعليها حطّ الباشق الذي أبلى عصر أمس بلاء حسناً في اللحاق بالعصافير والإمساك بها، متفوّقاً على ستة بواشق جاء بها أصحابها لتربيتها على تنفيذ الأوامر في باحة المدرسة. لم يكن المعلّم يعلم أن ذلك سيكون آخر يوم يداعب فيه عنق باشقه. ورسم المعلّم ريشتين، إحداهما مغروزة في الأرض، والأخرى رأسها إلى السماء.

أيهما للحبر وأيّهما للدم؟ حاول المعلّم الإجابة عن السؤال الذي راوده بابتسامة، غير أنّ عضلات وجهه خذلته. يقولون: على من لا يستطيع أن يبتسم رغم المحاولة، أن يفحص قلبه!

-501-

وكان عسكريٌ صغير القد، يمناه مشغولة بتدوين أسماء الراغبين في الانتساب إلى سرايا الدفاع، نظر، نظرة شرّ، إلى الباشق الذي جاء به، في غفلةٍ من المعلّم، أحد التلاميذ ووضعه على الطاولة أمام المدوّن، نازعاً اللجام عن منقاره.

جاء التلميذ بالباشق للتباهي به أمام أصحاب البزات المبرقعة. ولم يكن له أن يخمّن نتيجة منازلتهم بباشق معلّمه. انتصب الباشق، ونفض جناحيه، وهزّ صدره العريض، وبدأ يتلفّت يمنة ويسرة كأنما هو يبحث عن المعلّم.

-502-

وكان المعلّم، في هذه الأثناء، يعالج اعوجاجاً وخشونة في أخشابٍ اختارها السقاء من أجل إصلاح مقاعد التلاميذ. وفجأة اصطدمت (فارة) المعلّم بعقدة يابسة سوداء، فنظر نحو السقّاء، ومدّ يده صوب الإزميل، وتنفّس بعمق قبل أن يقوم بمحاولته التالية.

-503-

- سجّل اسمه! - صاح التلميذ- مقاتل ممتاز! وبدلاً من أن يتناهى إلى سمعه ضحك واستحسان، ويرى يداً تمتد ليحط عليها الباشق، وأصابعَ تُمسّد عنق الكاسر، سمع شتيمة ورأى يداً تتحرك بعصبيّة نحو أن تدفع بالباشق بعيداً عن الطاولة المشغولة برشاشي كلاشنيكوف وسجلٍ خاناته صغيرة سوداء. ارتفع الباشق عن الطاولة سنتمترات قليلة، خابطاً بجناحيه بندقيتي

الكلاشن، ونقر اليد المتوتّرة أمام عينيه، فأدماها. ولكنّه لم يكد يوغل في تقطيع جلدها بنقرة ثانية، حتى امتدت إليه يدٌ باردة ثقيلة من يسار، وأمسكت بعنقه ولوته .

غرز الباشق مخالبه في يد المدوِّن، متألّماً منتقماً لروحه التي راحت تنسل من بين الأصابع الخشنة. كَسرت اليد الباردة جناحي الكاسر. ثم أخرجت مخالبه ميتاً، وألقت به غير بعيد عن طاولة التجنيد. وفيما راح التلميذ الذي جاء بالباشق يبكي ويشتم، تداخل صراخ زملائه:

– قتلوا الباشق يا أستاذ.. قتلوا الباشق!!

– قتلوه من زمان، وحوش! برّا المدرسة، برّا يا وحوش.. صاح المعلّم. وفيما ركل الواقف في مقدمة الراغبين في الرحيل إلى سلاحٍ مبرقع جثّةَ الباشق، فبدا كأن الأخير يعاود الطيران، حال تلاميذ المعلّم السابقين المنتظرين دورهم لوضع بصماتهم في خانات التطوّع، بين المعلّم وبين المقاتلين الغرباء. ونهض الضابط، وقال بنبرة متوعّدة:

– لا تكبّر كلامك يا أستاذ..أنت أدرى، الكلمة ثمنها غال! اسحب كلامك يا فهمان، موت طير تافه لا يستوجب كل هذا الغضب!

–504–

وبصق المعلّم في طريقه إلى غرفة الإدارة، وهناك رفع دواة الحبر عن الطاولة، وكسرها وغادر إلى البيت. وراح زملاؤه يطيّبون خواطر العسكر، ويرجونهم تفهّم أنّه قال ما قال في ساعة غضب، وأسرعوا في طلب الشاي للضيوف.

–505–

وعند أبواب عين الغار، راحت حجارة تنهال على السيارة من خلف التخوم. كسر زجاج السيّارة من جانبين، واختار ركابها الفرار بها، وراحوا يطلقون النار من بنادقهم الآلية صوب الأشجار.

–506–

حين يئس المعلّم من مرور أحد على الدرب القريب من الصخرة، استجمع قواه وهمّ بالنهوض، محاولاً تخفيف العبء عن القلب ما استطاع. ونهض. كان يعلم أنّه يجب أن لا يتزحزح من مكانه، ولكن آخر ما كان يريده هو أن يموت هنا، وأن يعثروا على جثته بعد أن تكون قد انتفخت، فنهض. ومع كل خطوة من خطواته، راح يندِه " يا خضر!". وشعر كأنّما هو يسير من تلقاء نفسه، دون ضغط على العضلات ودون إجهاد للقلب.

كانت العودة إلى عين الغار تقتضي ليس فقط الانحدار عبر سفح جبل الصنوبر، بل وتسلق السفح المقابل من جهة الضيعة، بعد بلوغ قاع وادي الجراد. ومع ذلك مشى المعلّم، ووصل بيته

لحظةَ كانت ابتسامات عزيزة تفرّج الكرب عن قلب ابنة مريم." طالما هي تبتسم فهو بخير! " فكّرت ابنة مريم.

وقبل تخطيه عتبة الدار، رآهما معا فكشّر عن ابتسامةٍ لم تتبينا ما تحمله من ألمٍ من خلال أغصان شجرة السرو الفاصلة بين وجهه وعيونهما.

-507-

هوب.. هوب! وتابعت كاترينا سيرها نحو عين الغار، صبيحة ذلك اليوم، واستسلم من فيها لقرقعة الحديد وشخير المحرك وصوت أم كلثوم، حتى وصلت منطقة (البيّاضة) التي يفصلها عن أوّل بيوت عين الغار قرابة خمسمائة الأمتار. عندها، تذكّر بوسلطان أن ثمة جنازة في الضيعة، فأخرج شريط أم كلثوم، وحشر بدلاً منه أحد شريطين من القرآن الكريم، كانا لديه.. أدار بوسلطان الشريط من حيث أوقفه في الميتة السابقة فعلا صوت المجّود " يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربّك وإنّهم آتيهم عذاب غير مردود..."، فصاح العطّاس:

– يا معين، يا كريم! يا جماعة، بالله عليكم اسمعوا.. اسم أبي بالقرآن.. يا سبحان المنتقم الجبّار! أبي مزار يا قليل الإيمان.

– استغفر الله العظيم على هالعلقة! بدا المساعد أبو علي مغتاظاً، وفي حيرة من أمره.

– وتستغفر ربّك!! ما أعجبك كلامي..

وقهقه بوسلطان. ووبدا كأنّه يريد إطفاء المسجلة، إلاّ أنّه استبدل بالشريط الذي جاء فيه ذكر إبراهيم آخرَ، فتدفّق صوت عبد الباسط عبد الصمد في فضاء الحافلة " وإذا الموؤدة سُئلت.."، فطرب له الركاب وراحوا يصيحون، بمن فيهم العطّاس والمساعد " الله".

-508-

هوب.. هوب! سأل المعلّم عن علي جاد الصغير، ولم يكن قد عاد بعد. كان المعلّم يعرف أنّ المزيد من الحركة أو الانفعال يعني المزيد من اقتراب الموت. فقد شعر بأن هذا الألم الذي لم يعرفه من قبل، أقرب إلى عرضٍ لاحتشاء في عضلة القلب منه إلى أي شيء آخر. لكنّه لم يرد تصديق ذلك.

في البداية، أفرحه وجود امرأة كثيراً ما رسم تصورات عنها على أوراقٍ حشرها تحت سريره في العليّة. ثم أثار وساوسه أن يكون القدر قد جمعها وابنة مريم ليموت بينهما. ابتسم للخاطرة: " موت شاعري!" قال في نفسه، وقرر للحظات أن يستسلم للقدر، فابتسم ثانية. تذكّر لجّةَ البحر ووشاح الخضر، فابتسم ثالثة. ورأى أنّ مكروهاً لن يصيبه. وحين لاحظ أنّهما تكثران من النظر

إلى يده المتنقّلة على لوح صدره، توقّف عن جس مواضع الألم، وراح يغنّي بصوت خافت متقطّع " يا وابور قل لي رايح على فين...".

–أين علي؟ مع تكرار السؤال، شعرتْ عزيزة بأن عليها الانصراف، لكنّ قلبها أمسك برجليها.

–509–

الصلاة تُرفع عن سطح البيت دون أن ترتطم بالحيطان وأغصان الشجر. كان مقام الخضر يفصله عن سطح بيت المعلّم بيوت الحارة المائلة الجدران، كلٌّ على طريقته، نحو الشرق والغرب والجنوب والشمال، والمنفتحة أسطحتها على الجبل حيث المقام.

–510–

– أين علي؟ بقي السؤال عالقاً في ذهن ابنة مريم، فخصّت عودة ابنها بصلاة أعقبت صلاة شفاء المعلّم. ثم اندمجت الصلاتان معاً. كأنّما من تلقاء نفسيهما فعلتا، حتى عجز لسان ابنة مريم عن فصلهما. فرأتْ في ذلك علامة " شفاء المعلّم يتم بعودة علي جاد". وكانت ابنة مريم تجهل، آن رفعت الصلاة، أنّ ابنها على أبواب عين الغار. ونهضت عزيزة، وقالت مستغلّة انشغال ابنة مريم بالمقام وما يعلوه من سماء:

– لا تمرض الله يخلّيك.. لا تموّتني!! وفكّت أصابعها عن راحة يده الباردة، ونزلت.

–511–

حين وصل علي جاد الصغير إلى البيت، رأى الذعر على وجه أمّه. خالَ عليّ أنّ قلقها عليه هو ما ارتسم على وجهها. لكنّ أية طمأنينة لم ترتسم على الوجه الخائف الحزين مع رؤيتها له:

– أبوك تعبان، وقع على طريق جبل الصنوبر، برضاي عليك عجّل خذه إلى المشفى! وتذكّرتْ سيّارة النجدة وراجي وناهلة، وامتلأت عيناها بالدمع. وفيما انصرفت ابنة مريم إلى دمعها، اتجه علي جاد الصغير إلى أبيه.

–512–

وبعد قليل، توقّفت الحافلة كاترينا التي غادرها علي جاد الصغير من دقائق قليلة، أمام دار المعلّم. كثيرون رأوا المعلّم يصعد إلى الحافلة، لكنّ أحداً منهم لم يأبه للألم المرتسم على وجهه. كان الشارع مزدحماً ببشر، بعضهم في طريقه من دفن الساموك، وبعضهم الآخر في طريق الاستعداد لعرس ابن بارود.

-513-

في الحافلة، جلستُ إلى يسار معلّمي، وجلس صديقي علي جاد الصغير إلى يمينه. أمسكتُ بالرسغ ورحت أتتبع النبض، راجياً السائق أن يسرع وأن لا يهزّ السيارة في آنٍ معاً. كان ذلك مستحيلاً في طريق مليء بالحفر. لم أكن أتخيّل أن يشحنني نبض معلّمي بكل ذلك الحزن الأبيض.

-514-

ولم تكن ابنة مريم بحاجة إلى من يرجوها زيارة المقام، فما إن انطلقت الحافلة بالمعلم مشفوعاً بيدها، حتى يممت شطر المزار. وقبل أن تخلّف أواخر بيوت عين الغار وراء ظهرها، رأت ظهر امرأة تعرفه، يتلاشى خلف دغلة صغيرة ينعطف بعدها الطريق.

كانت المرأة قد غادرت بيت المعلّم، عاقدةً العزم على زيارة مقام الخضر، والدعاء بشفاء رجل أحبّته. كانت أسرعت في خطوها نحو المقام كي لا يتأخر دعاؤها فيسوء حال حبيبها.

أوّل ما رأتها، خطر ببال ابنة مريم أن تنادي المرأة لتصعدا الجبل معاً، لكنّها ترددت. ثم عدلت عن الفكرة، فهي تريد أن تبكي ولا تستطيع أن تبكي بوجود أحد، سواء من الأقربين أم الأبعدين. كانت مريم قد أنشأت ابنتها على المكابرة على الجراح. وكان من المعيب في بيت مريم أن يشكو المرء من أي شيء، طالما هو قادر على الوقوف على قدميه، فكيف به يبكي ضعفاً. رأت ابنة مريم أن تبطئ الخطو وتتوارى قرب المزار، ريثما تنتهي المرأة من صلواتها.

كانت ابنة مريم على ثقة من أنّ المرأة تصلّي لشفاء المعلّم. ومن وراء جذع السنديانة العتيقة، جاءتها رائحة بخور، فراحت ترفع دعاءها مع البخور الغريب، بانتظار بخوّر في جيبها سيطلق عبقه بعد قليل.

-515-

وغير بعيد عن المكان الذي غادر فيه علي بن سلمان كاترينا، بدا ظهرٌ نحيلٌ يسير صوب المدينة على ساقين رفيعتين. بدا أشبه بشاخصة مرور رمادية غادرت مكانها من أجل أن يجددوا عليها الطلاء، ويرسموا عليها رجلاً غرز معوله في كومة تراب. كان علي قد نبش أرض روحه بحثاً عن أشياء أضاعها، وأهال التراب على حُفرٍ لم يجد فيها شيئاً، وعلى أخرى طمر فيها أشياء. كان علي بعد أن أفرغ مثانته على تخم ذلك البستان المقتطع من الغابة، أدرك قعر الإهانة التي تعرّض لها في الحافلة. لكنّه لم يكن يعرف كيف يرد الاعتبار لنفسه، ويعود إلى السطح، هو الوحيد الفقير الهزيل البدن.

فكّر عليّ في البداية بأن يلجأ إلى رفيقيه في الشام، فيصل وجلال للانتقام من المساعد بوعلي، ثم تراجع عن فكرته، ورأى أن يرد بنفسه. كان علي يعرف عن عشق فيصل لأخته شمّا، ويعرف قسوة قلب جلال، لكنّه راح يبحث عن فعل يثبت فيه لأهالي ضيعته أنّه لا يسكت عن الإهانة. ولم يكن مع عودة كاترينا قد اهتدى إلى حل. كان قد ندم على عدم إشباع المساعد ضرباً. خيّل إليه مع تصاعد الغضب في روحه، أنّه يملك ذراعين ضخمتين من حديد، وأنّه سيسحق خصمه كما سيسحق كل من يخطر بباله أن يسانده.. حتى إنّه رأى بوضوح كيف تمسك يداه القويتان بالمساعد، وكيف تجعلان منه عجينة، وتلقيان به من نافذة الحافلة.

-516-

ومع زمور طويل، توقّفت كاترينا قرب الظهر الرمادي النحيل، وصاح سائقها بوسلطان:

– اطلع، يا خال، اطلع! ورأى علي معلّمه كامد الوجه يتألم بين شابين كانا تغيّرا في غيابه، كما تغيّر في غيابهما. اندفع علي إلى يد المعلّم وقبّلها، أمام دهشة الركاب. وعانقناه صامتين، علي الصغير وأنا. أراد علي جاد الصغير أن يعتذر عن عدم تعرّفه عليه قبل نزوله من كاترينا، لكنّه آثر الصمت.

– رحمة الله على أبيك! دهش المعلّم لرؤية علي هنا، وكان حسبه حضر دفن أبيه وهمَّ بالمغادرة قبل الأوان

– ارجع إلى الضيعة يا علي، وقم بواجب التعزية، أبوك ظُلِم في حياته فلا تظلمه في مماته، اسبقني، راجع إن شاء الله. وراح المعلّم، رغم توسّل علي جاد الصغير أن لا يتعب نفسَه بالكلام، راح يسأل تلميذه عمّا إذا كانت المشكلة في المأذونية. صمت علي، وكان شعر بشيء من آلام معلّمه، وشعر بالخجل وبالغضب من نفسه، وأسف على ضعفه وحيرته، ونهض، وبدا كأنّما هو سيقوم بالركض صوب الضيعة في ضبابٍ من المشاعر والنوايا. واستغفر بوسلطان الله، وأوقف السيارة لنزول العسكري. وانطلقت الحافلة إلى طبيب القلب.

-517-

ورأت ناهلة وجهاً تعرفه يبتسم لشابين، تمسك أيديهما بحمّالة نحو غرفة الإسعاف، واتجهت إليه!

– حالة قلبية! قال لها أحدهما. وابتسم المعلّم حين رآها، وسالت من عينه دمعة.

– اليوم آخر أيام راجي، والعلم عند الله، أما أنا فالحمد لله. بكت ناهلة. وكان علي الصغير فتح لها باب غرفة راجي أوّل أمس، لكن راجي لم يفتح عينيه.

-518-

ودخل علي دار أبيه الميت. ألقى التحية على الرجال القلائل الذين جلسوا تحت السقيفة، ثم انصرف عنهم دون اعتذار إلى حيث النساء. كانت هناك بنات عمّ أبيه الثلاث. حين رأينه، نهضن دامعاتٍ لاحتضانه، فأعرض عنهن، واتجه إلى أمّه. وبعد عناقه الصامت لها وبللٍ أصاب قميصه العسكري من دمعها الصائت، عاد إلى السقيفة التي كان بوسلطان أصلحها بعدما كسرت ظهر رجل البيت. لم يتجه علي إلى حيث انعزلت شمّا في الحجرة الداخلية.

-519-

كانت شمّا منزوية في غرفة صغيرة مظلمة ذات نافذة خلفية تفضي، بعد أقل من مترين من تراب خرجت منه تينة برّية، إلى سور بيت الجيران الواطئ. هناك، راحت شمّا تبكي ميتها بمرارة، وتبكي فقر حال أسرتها الذي جعل كل من يغازلها يبحث فيها عن غرضٍ جنسي، دون أن يخطر ببال أحد منهم أن يتزوّجها، ويخرجها من ظلمة هذا البيت. كانت شمّا تعي نواياهم. وكانت، لهذا السبب وغيره، تنتقم لنفسها ولفقر أهلها منهم. تغويهم وتقطع حبل وصلهم. وتهامست بنات عمّ أبيها المتربعات في مجلس العزاء بأنّها قد تستغل انشغال أمّها بالضيوف، وتفتح نافذتها للعشاق.

-520-

وبعدما انصرف بعض المعزّين، جاء فيصل وجلال، جاءا على غير انتظار. لم يكونا قد أخبرا رفيقهما عن عزمهما المجيء. ومن أين لهما كانا أن يخبراه! فعليّ، جاء من وحدته العسكرية مباشرة إلى عين الغار، حين أخبرته برقية بموت أبيه. وكان فيصل وجلال في وحدتين ترابطان في غير مكان. وفاجأ علي نفسه حين عانق صديقيه، قائلاً لفيصل:

– تزوج شمّا يا فيصل، لا تظلمها وتظلم نفسك وتترك الأنذال يشمتون فينا. ثم شكا لصديقيه صدمته مما رآه من أبناء ضيعته.

لم يشأ علي أن يصدّق أنّ البشر في عين الغار تغيّروا إلى هذا الحد. ولا هما استطاعا تصديق أن ينصرف الناس إلى الرقص وتراب الميت لم يجف بعد. صعب عليهما تقبّل أن يبلغ الاستخفاف بالفقراء واحتقار المساكين هذه الدرجة.

-521-

وكانت أمّ فيصل قد أنزلت البزة عن السطح وعانقت ابنها وبكت ولعنت ما آل إليه الناس من سوء. وكانت نورا الحجّار قد سكن الخوف قلبها من جلال فكرهته بعدما أحبته، ولم تغفر له أنّه لم يدعها تراه في ذلك اليوم الذي قيل إنّه جاء فيه إلى الضيعة آخر مرّة.

-522-

وبعد ساعتين من قرع الطبل وزغردة الزمر وارتداد صدى صوتيهما إلى بيت بوعلي سلمان. وكان آخر المعزين قد انصرف قبل ثلاث ساعات من الآن. وكان قد بقي تحت السقيفة فيصل وجلال وعلي وأخوه الصغير، الذي زاد موتُ أبيه وجهَه صفرةً على صفرة. وكانت شمّا قد خرجت من حجرتها إليهم، فيما سرق النوم عجوزين جلستا بالقرب من أمّها مواسيتين. وكان فيصل مدّ يده نحوها:

– أهلا بخطيبتي! ورداً على اندهاش ارتسم في عينيها، جاء تأكيد علي:

– نعم، فيصل طلب يدك مني!

– اليوم.. معقول!؟

وارتسم على وجه فيصل مزيج من الحزن والقلق. فقد خشي أن يكون لدى شمّا ما يجعلها تعتذر عن القبول به.

-523-

ومع صمت الثلاثة الأصدقاء، وبكاء شمّا، جاء صوت ابن بارود الأسمر. جاء صوتٌ خشنٌ سكران ينادي شمّا إلى العرس:

– تعالي يا شمّا، أبوك مات والحي أبقى، لا تخذلينا يا زينة الأعراس، عندنا ضيف كبير!

وكان الأسمر قد همس في أذن الضابط الذي جاء لإسكات الرصاص بأنّه سيأتي إليه بشمّا وأنّها أحلى من نورا بألف مرّة، وأن شفتيها وحدهما تساويان مائة نورا.

– امشي معي، وخلّي الذي ما شافك يشوفك اليوم ويعرف زهرة صبايا عين الغار، ويعرف قيمة شمّا.

-524-

ورآهم الأسمر فانعقد لسانه. وخرجوا إليه، فتراجع، ثم أخرج مسدّسه، حين قدحت عيونهم المصوّبة إلى عينيه، وسار القهقرى، ثم استدار للفرار، فتعثر، وسقط المسدّس من يده. تركوا رجليه الرخوتين تغادران مسدّسه، إلى حيث يرقص المعزّون في عرس ابن بارود. وحشر علي، وكان الأعزل الوحيد بينهم، مسدس الأسمر في خاصرته. وتفقّد فيصل مسدّسه. واتجهوا صوب قرع الطبل.

-525-

في الأعراس، ستجد أحداً ما غاضباً بالتأكيد. ستجد من يكتشف أنّه يحب الفتاة في صبيحة عرسها، فيعمّر بندقيته بانتظار المساء. وستجد من يكتشف أنّه لا يحب العريس فيعدّ ديناميته وكبسوله وفتيله بانتظار المساء. وستجد، لا محالة، عائلتين متعاديتين، يتبارى أولادهما بالرقص ثم بقتل السماء. ومع أنّ الأعراس لم تتوقف إلى اليوم، فقد كان عرس ابن بارود آخر الأعراس التي أُطلق فيها الرصاص. وليس لأحد أن يتباهى على بارود، فقد أَطلق في عرس ابنه النارَ رجالٌ كبار، وشربوا نخب الرئيس، مثنىً وثلاثاً ورباعاً، وقُتل فيه رجل أهمّ من أولئك الذين قتلوا في الأعراس الأخرى. وحده عكّاز بارود الموسكوفي المرصّع بالعاج، لم يحضر العرس، وزوجته أيضاً. كان الجيران قد استفاقوا على صراخها بعد منتصف الليل السابق للعرس، وسمعوا أصوات أشياء تتكسر.

-526-

بعد ثلاث دورات من الدبكة، بدا أن الرصاص وحده لا يكفي. دوّى صوت انفجارين شديدين، في وادي الجراد الذي تنفتح عليه باحة المدرسة. أحدٌ ما، ألقى بكتلتي ديناميت هائلتين هناك. كانت زوجة النمر لا تزال تحشو مخازن الكلاشينكوف لزوجها بالرصاص. كانت ماهرة بذلك، وكان حيدر ابنها الصغير يساعدها في عملها الدؤوب. النمر يستهلك الرصاص بأسرع مما تستطيع امرأته " التلقيم".

حين دوّى الانفجاران كان النمر لتوه قد انتهى من إطلاق الرصاصة رقم ستين ومدّ يده لتناول المشط التالي. شعر النمر بأنّه المعني بالتفجير. ترك الرشاش لزوجته وركب دراجته النارية مسرعاً نحو البيت. كانت قيادة الجيش قد باعت العسكر درّاجات (هوندا-125) و(ياماها) ليتمكّنوا من الالتحاق بقطعاتهم العسكرية حين تدعو الضرورة. وبعد قليلٍ، عاد النمر، واعتلى سطح المدرسة، وراح يلقي رماناته اليدوية الخضراء الملساء، عالياً، فتنفجر في الهواء. ولسوء حظ ابنه سعد، أنّه كان لحظة انفجار الرمّانة الأولى فتح سحاب سرواله وأخرج إحليله ليبول في ظلمة جدار المدرسة، ففعلها على السروال. وابتلعت أصوات الانفجارات لعناته التي لحسن حظّه لم يسمعها أبوه النمر.

وعلت في السماء شهبُ إشارةٍ ورصاص خطّاط. أطلق بارود شهاباً أبيض، وأعقبه بآخر أحمر. وأطلق رجل، من الظلام، رشقات من الرصاص الخطّاط المضيء، فراحت ترسم دروباً في السماء. واحتار الجند في معسكرهم، وصعب عليهم فهم مغزى الإشارات.

-527-

ومع كل انفجار، راح الدابكون يضربون الأرض بقوة أكبر. خيّل إليهم أن الأصوات التي مزّقت السماء، هي أصوات خبط أقدامهم على الأرض. وبعد الرمّانة الثالثة، علت زغردة زوجة النمر. لوّح لها رجلها عن السطح، ماسحاً أعداءه بابتسامة تهديد، فاستجابت لابتسامته. وقفت المرأة، وأطلقت رشقة من الرصاص تحية لنمرها. نزل نمرها عن السطح، وتوجّه إلى مقدّمة حلقة الدبكة، ونظر ابنها سعد إلى البندقية في يدها. راح يتخيّل البندقية في يده، ويتخيّل نفسه يطلق النار.. كان عاد إلى الشعور بحرارة الصفعة على وجهه، وشعر بحاجةٍ، لم يعان مثلها من قبل، إلى مسح آثار الإهانة عن وجهه، هنا والآن. فهم (الأوّل) أن عليه تسليم دوره للنمر. كان هناك آخرون ينتظرون، لكن أحداً لم يعترض. ليس لدى النمر نقود. وزّع النمر كثيراً من التحيّات ببضع ليرات، ثم واحدة منها مجانيّة، مكرّرة ثلاث مرّات، للأب المفدّى، ومثلها للقائد. وبدأ جمعة الزمّار تحدّيه للنمر، برشقةٍ مديدة من مزماره. وراح الطبّال يفجّر الصوت ما استطاع على الجلد المشبع ناراً. لكن شيئاً ما قطع على النمر نشوته. فجأة راح الأهالي المشدودون إلى النمر يصرفون نظرهم عنه إلى جهة أخرى.

-528-

ونظر سعد بن النمر، من ظلمته، نحو نورا ثم نحو لمياء ابنة العطّاس، وكانت عادت من الشام دون بكالوريا مع أختها التي ما زالت تنتظر عودة زوجها. أمعن سعد النظر في لمياء، وكان قد مضى عام لم يرها خلاله، ونظرت نحوه، وبعد ابتسامة ساخرة، اشاحت بنظرها عنه، ثم قالت شيئاً ما لنورا وضحكتا. ولسبب يصعب تفسيره، كما يحصل عادة حين يكون للمصادفة منطقها الخاص الذي تعلنه حيناً بصورة هزلية وحيناً آخر بصورة مأساوية، نظر النمر نحو الفتاتين ثم نحو ابنه، وناداه:

– تعال.. تعال يا نمر يا ابن النمر!.. لكن الشاب اختفى وامتلأ غضباً على غضب، وليس بسببٍ من سرواله المبلل بالبول، فقد كان ركض إلى البيت واستبدل به واحداً آخر. كان سعد قد تلقّى صفعة من أبيه بحضور لمياء.

-529-

كان سعد في الصف العاشر وكانت لمياء في التاسع حين تلقّى الصفعة. علم المعلّم بما تعرّض له سعد، فعرّج أثناء جولته المسائية على بيت النمر، واصطحبه في مشوار، وعاتبه على كسر شوكة ابنه أمام فتاة يحبّها. وعبّر النمر عن ندمه، مؤكّداً أنّه لم يكن يعرف شيئاً عن عشقه

للبنيّة. أكّد له المعلّم أنّ ذلك لا يجوز في حال من الأحوال، فكيف به يفعله بحضور فتاة، وأنّه سيكون من الصعب على الصبي تجاوز ذلك، فكيف سيثبت شخصيته بعد اليوم!

-530-

حين رأى سعد حركة يد أبيه تناديه، احمرّت عيناه وتلاشى خلف الصفوف. خشي أن يكرر أبوه ما فعله، وما جعل الفتاة تنصرف عنه، وتسخر منه كلّما رأته، مشيرة بطرفها إلى آثار أصابع اليد على خدّه.

راح يخيّل لسعد أنّه يرى تلك الآثار كلما نظر إلى نفسه في المرآة. وحتى مساء اليوم، حين راح يسرّح شعره، استعداداً للخروج إلى العرس، خروجاً ينطوي على أمل برؤية لمياء هناك، خيّل إليه أنّ علامات الأصابع عادت إلى الظهور على وجهه. وكثيراً ما فكّر سعد بطريقة لإعادة الاعتبار إلى نفسه، لكنّ خياراته كلّها كانت تنتهي إلى أحد أمرين، إمّا الانتحار أو قتل أبيه. ومع أنّ رفاقه راحوا يؤكّدون له أنّ آباءهم أيضاً يضربونهم، إلا أنّ ذلك لم يخفف عنه ثقل الشعور بالعجز والعار.. وأمّا اليوم فراودته فكرة أنّه يجب أن يثبت رجولته أكثر من أي يوم مضى. وأمّا فكرة الانتحار فكان طردها من زمان. اتجه سعد صوب أمّه وتناول من يدها الكلاشنكوف. زغردت امرأة النمر وراحت تُقبّل ابنها مهتاجة:

– قوّص يا نمر يا ابن النمر.. قوّص يا بطل..

-531-

ثلاث سيارات مليئة بالجند المسلّحين دخلت الساحة. تقدّم ملازم أوّل مرافقيه المسلّحين، شاقّاً الصف إلى داخل الحلقة. خيّمت لحظة صمت متوتر، ثم جاء صوت الضابط مضطرباً:

– يا جماعة، حيطان المنتجع اهتزّت من الانفجارات. الرئيس هنا يا مجانين! وما إن سمع الناس أن الرئيس على مقربة منهم، حتى نهض من كان يجلس منهم عن كرسيه، وراحوا جميعاً يهتفون: " بالروح بالدم.."، فيما الزمّار والطبّال يحاولان ضبط إيقاعهما مع الهتاف. يصيحون " بالروح"، يرد الطبل " دم.. دم..". يصيحون " بالدم.."، يرد الطبل " دم دم..". يصيحون " نفديك يا رئيس"، يرد الطبل " دم.. دَدَم.. دَدَم.. دَدَم". يبتسم الضابط:

– كرمى لسيادة الرئيس تفضلوا اقعدوا يا شباب!

– اجلبوا لهم كراسٍ– يصيح بارود مهتاجاً– تفضلوا.. على رأسنا السيد الرئيس، والتراب الذي يمشي عليه!

-532-

أصوات خليطة متداخلة وجّهت الدعوة والدعاء. هنا على مقربة من الضابط، وقف بارود أبو العريس، ووقف إلى جانبه أبو العروس والنمر والمتنافسون الآخرون على إطلاق النار. وأخيراً انصاع الضابط لرجائهم. في الحقيقة هو وجدها فرصة لتملي حسناوات عين الغار ومغازلتهن. كثيرات منهن ركضن إلى بيوتهن لوضع المزيد من المساحيق على وجوههن، وتدبّر حيلة لدفع أثدائهن إلى أعلى. وكم كان عامراً بالنداء صدر نورا التي أسعدها غياب شمّا فانفردت بالحسن والإثارة.

وُضعت طاولةٌ أمام الضابط الضيف. لم تكن هناك طاولة إلا أمام العروسين. كانت المائدة تقام في مكان آخر قبل بدء الدبكة، وكان أنصاف السكارى يأتون بزجاجات العرق معهم ويضعونها بين أرجلهم أو يسلمونها لزوجاتهم.

-533-

– كاس السيد الرئيس يا شباب! صاح النمر، فشرب الضابط مع الشاربين.

– كاس القائد! صاح بارود، فشرب الضابط مع الشاربين. انتظمت الدبكة من جديد.

– كرمى لعيون سيادة الرئيس، عَ الأوّل يا سيّدي! قال أحد عسكر عين الغار الشباب ممسكاً بيد الضابط. صفّق الجميع. ضرب الطبال ضربات قويّة متتالية على الجلد المشدود. سُلّم الضابط منديل (الأوّل) المفتول، وراح الزمّار يرسم حركات دائرية أمام الضابط، نافخاً المزيد من الهواء الصائت.

– يعيش الرئيس! صاح أحدهم. هزّ الضابط خصره. نزل أسمر بارود، وراح يدبك دبكة إفرادية أمام الضابط، وهو يصيح:

– أقوى سيّدي، أقوى، لعيون السيّد الرئيس! يعيش الرئيس يا شباب! صفّقوا يا أولاد القحبة. قال عبارته الأخيرة، ماسحاً حلقة المتفرجين بعينيه الحمراوين، ثم أخرج مسدسه وأطلق بضع رصاصات.

– لعيون السيد الرئيس! صاح الضابط، وأخرج مسدسه وأطلق ثلاث رصاصات. أجابت زوجة النمر بزغردة. راح النمر الممسك بيد الضيف يشق الأرض بقدميه.

تبيّن أن الضابط يجيد الدبكة، وأنّه يبحث عمن يستعرض مهاراته أمامها، فتلفّت حولّه متظاهراً بشدّ المنديل، ثم ابتسم لإحداهن، كما لو كان يدعوها إلى الرقص أو إلى متابعته في أقل تقدير. فهمت الصبيّة إشارته، لكنّها لم تغادر كرسيها. تابع الضابط حركاته الراقصة.

-534-

في وسط كل دور من أدوار الدبكة فاصل راقص، يتحوّل فيه الزمّار إلى نغمة راقصة خفيفة، وينتقل فيه الطبال من الضرب بالـ(جوكلان) إلى الضرب بالـ(سكسوكة) وبأصابع اليد. في هذه اللحظة، يدعو الشباب الفتيات إلى الرقص. اكتفت نورا بدعوة عيني الضابط. لم تكن نورا جميلة كما كانت في ذلك المساء. وقبيل انتهاء الرقصة، عادت نورا إلى جوار أمّها، وهي تلعن أحداً ما.

كان أسمر الواقع في غرام نورا جرّها من يدها بعيداً عن الضابط الراقص وهم بالذهاب لإحضار شمّا نكاية بها. ولكنّه قبل انصرافه همس للضابط بأنّه ليس المقصود بسحب نورا، ووعده بشيء ما، فابتسم الأخير، ووافقه، وتابع الرقص مع لمياء. وكانت تلك غلطة الضابط الأولى.. بعد ذلك، وجد الضابط كأساً ثالثة من عرق التين في يده. طُلب منه أن يجترعها دفعة واحدة، كرمى للسيد الرئيس، ففعل مصحوباً بالتصفيق..

– يعيش الرئيس ورجال الرئيس، لعيون الرئيس يا شباب! صاح النمر وبارود وأحد ما. أخرج الضابط مسدسه وأفرغ ما بقي فيه من رصاص في الهواء. أصلحت نورا حال وجهها، ثم ضحكت، ودفعت بشعرها إلى الوراء.

لم يأذن الضابط منذ البداية لأيّ من عسكره بالمشاركة في الدبكة. كان أمرهم بإشارة من يده بالعودة إلى السيارات. وأمّا بعد ضحكة نورا ورقصة لمياء ووعدٍ بشمّا، فأمرهم بالعودة إلى معسكرهم، محتفظاً هنا بسائقه ومرافقه فقط. ثم، ومع كأس رابعة، أمر الأخيرين بالانصراف أيضاً. وكانت تلك غلطته الثانية. واتجه نحو نورا، لكنّه هناك مد ذراعيه، وكانت تلك غلطته الثالثة، ساحباً بواحدة نورا وبالأخرى لمياء التي كانت أظهرت من الغنج ما اضطرها إلى الانسحاب من الحلبة والجلوس قرب صديقتها. وكان العسكر غادروا عرس ابن بارود ممتعضين. وكان بينهم من يهزّ رأسه ساخراً.

وبعد الكأس الرابعة، عاد الرصاص أشدّ مما كان عليه. فضاعت رصاصات فيصل وجلال وعليّ وسعد بين رصاص المبتهجين.

-535-

وبعد ثلاثة أعوام من ذلك اليوم، وكان سلّوم ذبح خروفاً، إحياءً لذكرى رحيل راجي الثالثة، وكان البرغل طُبخ في قِدرٍ نحاسية عتيقة، وأكل المدعوون، بعدما رفعوا نخب راجي وأفرغوه في حلوقهم، وكانت زوجة النمر خلعت ثياب الحداد.. وفي المساء، وعند تخوم عين الغار، جاء متوعّداً ذلك الصوت الضَجِر:

– قِفْ! أمر حامل رشاش السائقَ بإيقاف السيارة التي تكوّرتْ على مقعدها الخلفي بيجامةٌ سماويةٌ مخططة بالكحلي. كانت بيجامة صغيرَ المعلّم المريض تختلف عن لباس المعتقلين بعرض الخطوط، وربّما بشدّة اللون.

– هويّاتكم! قال حامل الرشاش، متلمّساً وجه المريض بسبطانة رشاشه الباردة. كان رأى في الألم المرتسم على وجه المريض تكشيرة ساخرة. كانت أمعاء الفتى تتمزّق، وكان جسده يتناوب التكوّر والانبساط ألماً، وعرقٌ باردٌ يتصبب من وجهه المصفرّ.

– نحن بحالة إسعاف! ابن المعلّم تسمم! المريض، ابن الأستاذ..

– ابن من قلت.. ما شاء الله؟! انزلْ، بلا لعي. هويتك!

– نسيت هويتي! قلت لحامل الرشاش.

– انزل.

ونزلتُ. ونظرتُ صوب السماء، فرأيت غُرابين يهبطان نحو عشهما في عين الغار. وسمعت هديراً وقرقعة حديد. وكان علي جاد الصغير، هاجر إلى غير بلاد.

–انتهى–